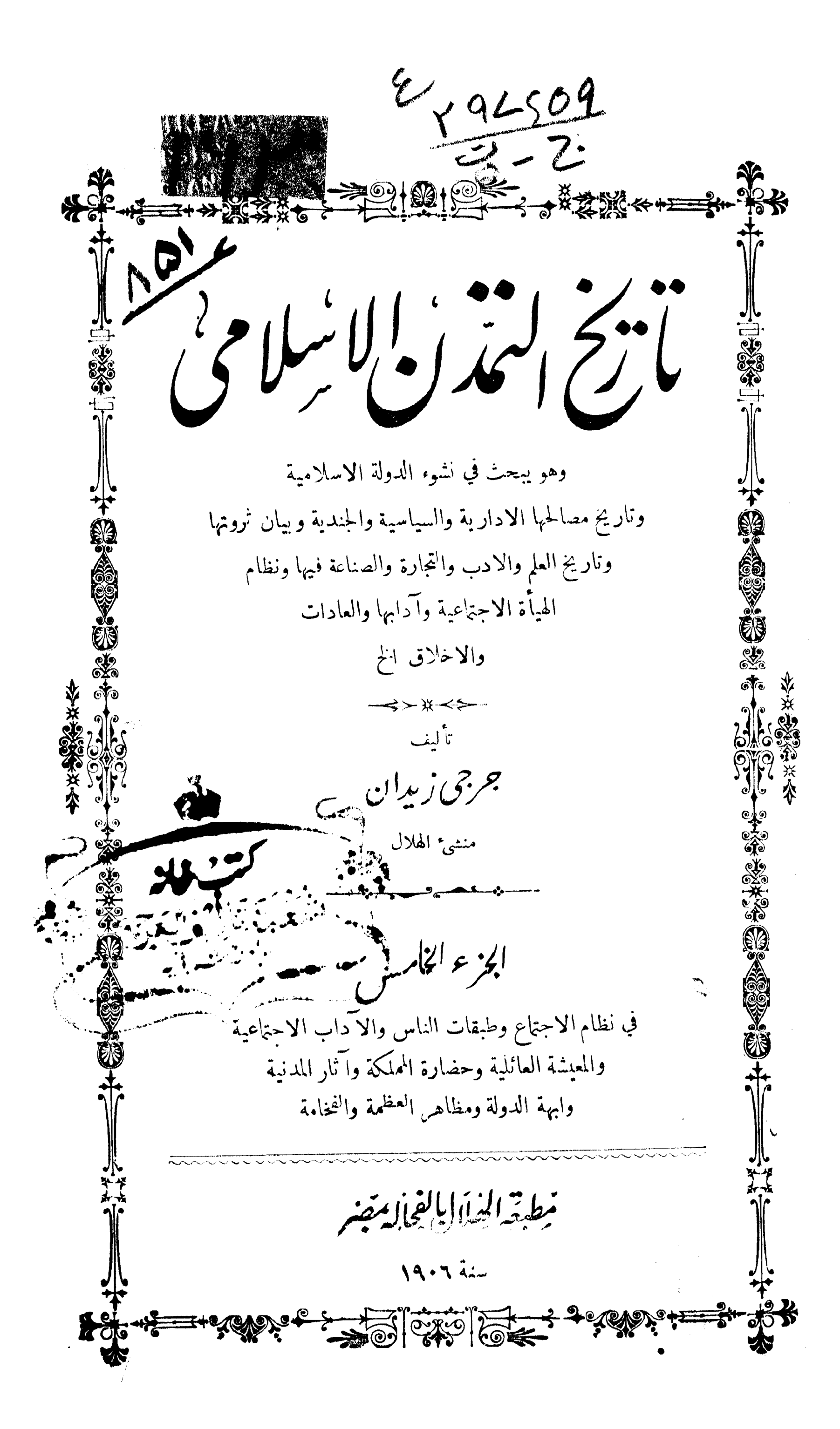




# تاريخ التمدن الاسلامي

وهو يبحث في نشوء الدولة الاسلامية
وتاريخ مصالحها الادارية والسياسية والجندية وبيان ثروتها
وتاريخ العلم والادب والتجارة والصناعة فيها ونظام
الهيأة الاجتماعية وآدابها والعادات
والاخلاق الخ

تأليف
جرجي زيدان
منشئ الهلال

## الجزء الخامس

في نظام الاجتماع وطبقات الناس والآداب الاجتماعية
والمعيشة العائلية وحضارة المملكة وآثار المدنية
وابهة الدولة ومظاهر العظمة والفخامة

مطبعة الهلال بالفجالة بمصر
سنة ١٩٠٦

## المقدمة

هذا الجزء الخامس من تاريخ التمدن الاسلامي وهو آخر اجزاء الكتاب ٠ فنحمد الله لاننا توفقنا الى اتمام هذا العمل الشاق مع ما يعتوره من العقبات ويفتقر اليهِ من اعمال الفكرة والمراجعة لما توخيناه فيه من التحقيق والتدقيق ولاسيما بعد ان عمدنا الى ذكر المآخذ في هوامش الصفحات مع الاشارة الى الكتاب والجزء والصفحة من كل منها ٠ ولايخفى ما يقتضيه ذلك من التيقظ والتعب في ضبطه والتوفيق بين اجزائه ٠ ولكنهُ اعاننا من الجهة الاخرى على الايجاز في بعض الاماكن اكتفاءً بالاشارة الى خلاصة الموضوع واحالة القارىء في استيفائهِ الى المصدر الاصلي لئلاَّ يخرجنا ايرادهُ الى التطويل

على ان كثرة المواضيع وتعدد فروعها وتداخلها قد حملنا احيانًا على ايراد بعض النصوص في جزءٍ مع ورودها في جزءٍ آخر قبلهُ ٠ وانما فعلنا ذلك رغبة في استيفاء الادلة وإِحكام البرهان بتنسيق المقدمات ونتائجها وتفاديًا من إِرجاع القارئ الى بعض الاجزاء السابقة — وان كنا لم نرتكب هذا التكرار الاَّ عند الضرورة لان وجهتنا الاولى في كتابتنا انما هي بسط العبارة وايضاح الموضوع حتى ينجلي للقارىء كانهُ مجسمٌ ٠ على اننا كثيرًا ما احلنا المطالع الى مراجعة ما سبق ذكره في اماكنه

والجزء الذي نحن في صدده اكثر سائر الاجزاء طلاوة واقربها الى افهام المطالعين على اختلاف طبقاتهم وتفاوت معارفهم لانهُ يبحث في مثل ما أَلفوه من العادات والآداب مماتلذ مطالعته وتتوق النفس الى معرفته من الابحاث الاجتماعية والمواضيع العمرانية والأَحوال العائلية مما يريده الناس عادةً بقولهم «حضارة» او

« مدنية » وهو بالحقيقة بعض ظواهرهما على ما تبين لك في الاجزاء السابقة

فمواضيع هـذا الجزء سهلة على المطالع ولكنها شاقة على المؤلف لخلو كتب القوم من امثالها على الاسلوب الذي تحديناهُ في هـذا الكتاب · ولو فتشت ما كتبهُ اسلافنا في التاريخ والادب والعلم وغيرها ما رأيت لاحدهم فصلاً ولا جملة ولا فقرة في نظام الاجتماع مثلاً أو طبقات الناس او الآداب الاجتماعية او الحضارة او الابهة الاَّ ما قد يرد عرضاً في اثناء النوادر او الحكم او التراجم او الوقائع مما استعنَّا بهِ في الاستدلال على بعض الحقائق المذكورة

وابحاث هـذا الجزء تنتظم في اربعة ابواب كبرى (١) نظام الاجتماع (٢) الاداب الاجتماعية (٣) حضارة المملكة (٤) ابهة الدولة

فنظام الاجتماع اساسـهُ طبقات الناس ولذلك قدمنا الكلام بفصول في طبقاتهم قبل الاسلام في جزيرة العرب وما يحدق بها من البلاد العامرة في الشام والعراق ومصر وفارس وافريقية ثم طبقاتهم بعد الاسلام وما طرأ عليها من التغيير في ايام الراشـدين فالامويين فالعباسيين · وبسطنا الكلام في نظام الاجتماع بالعصر العباسي فقسمنا الناس الى طبقتين كبيرتين الخاصة والعامة وجعلنا الخاصة اربع طبقات الخليفة واهله واهل دولته وارباب البيوتات · واضفنا الى الخاصة طوائف من الناس يصح الحاقهم بها سميناهم « اتباع الخاصة » وهم الجند والاعوان والخدم · ويدخل في طائفة الخدم العبيد والجواري والخصيان · وبيَّنَّا ما كانت عليه كل طبقة او طائفة في عهد ذلك التمدن

وجعلنا العامة طبقتين كبيرتين الأُولى المقربون وهم فئـة من العامة سمت بهم قرائحهم اوهممهم الى اللحاق بالخاصة · كاصحاب الفنون الجميلة واهل الادب والشعر والغناء وارباب التجارات الثمينة والصنائع العليا · وذكرنا ما كان يكتسبهُ

هؤلاء من الاموال المتدفقة من خزائن الدولة · واما الطبقة الثانية من العامة فهم معظم الامة وينقسمون الى فئتين الأُولى اهل القرى وهم السواد الاعظم والثانية عامة اهل المدن وهم اكثر سكانها ويتعاطون الصناعات اليدوية والتجارات الصغرى وبينهم طوائف العيارين والشطار والمخنثين وغيرهم وذكرنا تاريخ كل منها

واما الاداب الاجتماعية فصدرناها بتمهيد في تاريخها من زمن الجاهلية فذكرنا مناقب البدو كالعصبية والانفة والوفاء والسخاء والنجدة والاريحية والعفة وكيف تسرب الفساد الى هذه المناقب تدريجاً بتقدم القوم في معارج الحضارة وذكرنا الاسباب التي بعثت على تبديل بعضها في عصر الراشدين فالامويين الى العصر العباسي · وبسطنا الكلام في اداب هذا العصر بسطاً وافياً لانهُ هو المراد بهذا الباب فقسمنا الكلام فيهِ الى فصول في العائلة ونظامها وما يتخلل ذلك من حال المرأة العربية فبينّا عفتها وانفتها في الجاهلية واوردنا امثلة ممن أَشتهرن فيها بالشجاعة والحزم والرأْي · وكيف تبدلت احوالها في عصر الترف بما ادخلهُ عليها الرجل من الجواري والسراري حتى ذهبت الغيرة ونشأ سوء الظن فحبسها وضيق عليها · وافردنا فصلاً لاسلوب الارتزاق في عهد ذلك التمدن بالسخاء المتسلسل على سنّة العرب · وجعلنا كلامنا في المعيشة العائلية فصولاً في الطعام واللباس والمأْوي فاجملنا تاريخ كل منها في ايام الجاهلية وما احدثهُ فيه ذلك التمدن

ثم اتينا الى الباب الثالث من هذا الجزء وهو حضارة المملكة فقسمناه الى قسمين اولها العمارة او العمران وثانيها الثروة والرخاء · والعمارة اما في المدن او في القصور فاتينا بامثلة من عمارة اهم المدن الاسلامية واشهر القصور والمباني في دمشق وبغداد والقاهرة وقرطبة وغرناطة وغيرها · اما الثروة فيدور الكلام فيها على أَبحاث في ثروة الخلفاء والامراء وما تقتضيه من التانق بالطعام والتنعم

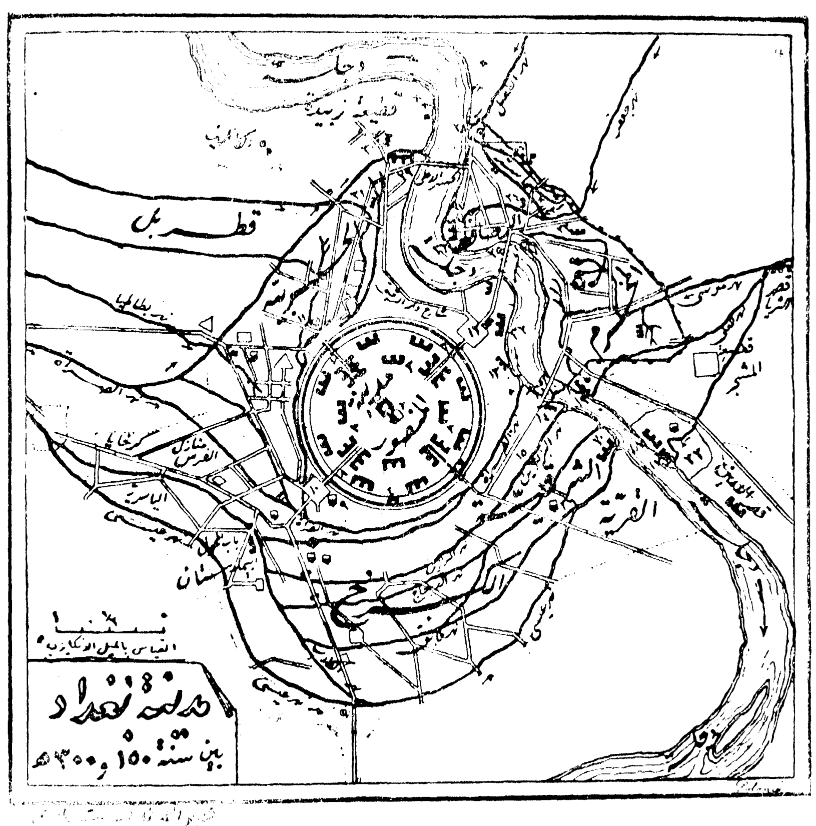
باللباس والتزين بالاثاث والرياش والمجوهرات ونحوها · ثم القصف وما يلابسه من التسري وعقد مجالس الغناء والشراب · ثم السخاء وقد نظرنا فيه من ايام الراشدين الى العباسيين وكيف تدرج القوم في مقدار الصلة ونوعها · ويتخلل ذلك فصول في الغناء وتاريخه من الوجهة الاجتماعية والادبية والمسكر وخلاصة اقوالهم في تحريمه وتحليله وتاريخ انتشاره وانغماس الخاصة به فضلاً عن العامة وما نتج عن ذلك من التهتك والاسراف والفحشاء

اما ابهة الدولة فجعلنا مدار الكلام فيها على الخلفاء واحوالهم من سذاجة الراشدين وتقشفهم الى بذخ العباسيين وابهتهم · وقسمنا البحث في هذا العصر الى فصول عديدة في مجالس الخلفاء ومواكبهم واحتفالاتهم وعلائقهم بالدول المعاصرة وملابسهم والعابهم وملاهيهم · ويتفرع القول في مجالسهم الى المجالس العامة ومجالس الادب والغناء والمناظرة وغيرها · فوصفنا المجلس وفرشه ومراتب الجلاس فيه وشروط الاستئذان في الدخول والتحية وآداب المجالسة وعلامة الصرف ونحو ذلك · وقسمنا ملاهيهم الى فصول في الصيد والسباق والكرة والصولجان ورمي البندق وارتباط السباع وغيرها

وذيلنا هذا الجزء بفهرسين كبيرين الاول جدول اسماء الكتب التي ذكرت في هوامش الاجزاء الخمسة مع اسم المؤلف وسنة نشر الكتاب ومحل طبعه والثاني فهرس ابجديٌّ عام لمواضيع الاجزاء الخمسة فضلاً عن فهرس هذا الجزء

وقد بذلنا الجهد في تحري الحقيقة وتوخينا الانصاف والاخلاص بما يبلغ اليه الامكان — فان احسنَّا فذلك قصدنا واقصى مرادنا وان أَسأْنا فعن غير عمد منَّا وما العصمة الاَّ لله وحده






١ قصر الذهب او القبة الخضراء
٢ جامع المنصور
٣ ابنية الحكومة لمصالح الدولة
٤ المطبق
٥ باب البصرة
٦ باب خراسان
٧ باب الشام
٨ باب الكوفة
٩ جامع المسيب
١٠ ديوان الصدقة
١١ سجن باب الشام

١٢ الميدان وبجانبه الاصطبل
١٣ دار القرار (قصر زبيدة)
١٤ دار حميد بن عبد الحميد وباب الشعير
١٥ جامع معروف الكرخي
١٦ مشهد علي
١٧ قصر جعفر البرمكي ثم صار من قصور الخلافة
١٨ قصر التاج
١٩ قصر الفردوس
٢٠ دار عيسى
٢١ قصر ابن الخصيب

٢٢ قصر المعتصم
٢٣ دار الروم ( البطرنخانة )
٢٤ قصور البرامكة
٢٥ باب الطاق
٢٦ قصر المهدي
٢٧ جامع الرصافة
٢٨ باب الشماسية وقصر موسى
٢٩ قصر الحريم الطاهري
٣٠ قصر زبيدة
٣١ دار الرقيق
٣٢ قصر الخلد
٢٣ حدائق القصور والبساتين

# نظام الاجتماع

## في المملكة الاسلامية

موضوع هذا الباب النظر في حال الهيأة الاجتماعية في ابان التمدن الاسلامي وبيان الجماعات التي كانت تتألف منها طبقاتهم وعلائقها بعضها ببعض . ولزيادة الايضاح نمهد الكلام بنظام الاجتماع على عهد الروم والفرس في البلاد التي فتحها المسلمون من تينك المملكتين وما كان من تأثير الاسلام في ذلك النظام وكيف تدرج في الارتقاء من ايام الراشدين فالاموبين فالعباسيين ثم نبسط القول في نظام الاجتماع بالعصر العباسي

## نظام الاجتماع قبل الاسلام

يقسم الكلام في ذلك الى وصف طبقات الناس (١) في الشام والعراق (٢) في مصر (٣) في افريقيا (٤) في بلاد فارس (٥) في جزيرة العرب

### ١ — طبقات الناس في الشام والعراق

نريد بهذين البلدين ما بين دجلة في الشمال الشرقي وآخر حدود الشام في الجنوب الغربي وسكان هذه البقعة اكثر امم الارض اختلاطاً في اجناسهم واديانهم وآدابهم لكثرة الدول التي توالت عليها من اقدم ازمنة التاريخ . وللعلماء ابحاث طويلة وآراء متضاربة في احوالهم لا محل لها ولا فائدة منها . وخلاصة ما يستخرج من ابحاثهم ان اقدم من عُرف من اهل تلك البلاد بطون من الساميين . وكانت مساكن القبائل السامية تمتد من دجلة عند اطراف ما بين النهرين شمالاً شرقياً الى سواحل سوريا حتى العريش فالبحر الاحمر غرباً وشواطيء اليمن وحضرموت جنوباً فخليج فارس وبحر عمان شرقاً . وهي عبارة عن بلاد ما بين النهرين والعراق وسوريا وفلسطين وجزيرة سينا وجزيرة العرب

والساميون ثلاثة فروع كبرى (١) الآراميون وهم القبائل السامية الشمالية كانت مواطنهم في ما بين النهرين والعراق وسوريا الا قسماً من شواطئها (٢) العبرانيون وهم القبائل

السامية الوسطى ومواطنهم في فلسطين وشواطيء سوريا (٣) العرب وهم القبائل السامية الجنوبية ومقامهم في جزيرة العرب وما يليها من بادية الشام والعراق وجزيرة سينا

الآراميون

فالآراميون كانت لغتهم فرعاً من اللغة السامية يعرف باللغة الآرامية وانقسموا بتوالي الاجيال الى امم اشتهرت في التاريخ اهمها امة السريان في ما بين النهرين والعراق والكلدان في اعالي سوريا · وانقسمت اللغة بهذا الاعتبار الى الفرعين السرياني والكلداني · والعبرانيون يراد بهم ابناء ابراهيم وقد استقروا في فلسطين نحو القرن الثالث عشر قبل الميلاد ويلحق بهم الفينيقيون وكانوا يتكلمون لغة تشبه العبرانية · واما العرب فكانوا يتفاهمون بلغة من اللغات السامية هي العربية ومن فروعها او اخواتها الحميرية والحبشية · واقرب القبائل العربية الى الشام الانباط وكان لهم شأن في اثناء تسلط الرومان على الشام سيأتي ذكره

فما بين النهرين والعراق والشام وفلسطين كانت في اقدم ازمنة التاريخ مأهولة بشعوب سامية تتقارب نسباً ولغة · اما قبل نزول الساميين فكانت مقاماً لامم لا يعرف اصلها وكان الساميون اقوى منهم فغلبوهم على بلادهم واستقروا فيها واخذ اولئك بالانقراض قبل الميلاد بعدة قرون · وهاك ترتيب مساكن الساميين هناك من الشمال الى الجنوب — السريان فالكلدان فالفينيقيون فالعبرانيون فالانباط · وخالطتهم امم شتى غير سامية اقامت بين اظهرهم في بقاعٍ مختلفة من بلادهم غير بقايا الشعوب الاصلية مما يطول بيانهُ ولكن الساميين تغلبوا عليهم جميعاً وعاشت اديانهم وآدابهم وعاداتهم

على ان مركز هذه البلاد الجغرافي جعلها عرضة لمطامع الفاتحين من الامم القديمة كالحثيين والمصريين والاشوريين والفرس فكانوا يتناوبون فتحها او اكتساحها وتتقاطر شعوبهم اليها · ولكن الامر لم يستقم لدولة من هذه الدول في سوريا كما استقام لليونانيين خلفاء الاسكندر · فان هذا القائد العظيم فتح هذه البلاد في القرن الرابع قبل الميلاد واوغل فيها ثم صيرها خلفاؤُه يونانية وتوافد اليها اليونان واقاموا فيها واختلطوا بأهلها ولا سيما بعد ظهور النصرانيــة وهي في سلطة الرومان · ولكن العنصر اليوناني ما زال متغلباً عليها واكثر تغلبهُ على سواحل بحر الروم ويضعف شأنه في الداخلية تدريجاً

· ومع ذلك الاختلاط ظلت الشعوب السامية محافظة على آدابها وعاداتها ولغاتها ولاسيما اليهود فانهم مع ما اصابهم من الاضطهاد والسبي ظلوا من حيث الآداب والدين نحو ما كانوا عليهِ في ايام داود وسليمان الاَّ ما اصاب لغتهم من التغيير في اثنـاء السبي

ببابل فانها اختلطت بالسريانية والكلدانية وعُرفت باللغة الآرامية او الكلدانية وبها كتبوا التلمود · وانقسموا الى اليهود والسامريين · اما من بقي من الشعوب السامية ولا سيما السريان فتنصروا وانفردوا بآدابهم وعاداتهم واكثرهم كانوا يقيمون في العراق وما بين النهرين واعالي سوريا الى فلسطين

الانباط

فكانت حدود الشام الغربية على سواحل بحر الروم يغلب عليها العنصر اليوناني وحدودها الشرقية مما يلي البادية يغلب عليها العنصر العربي · وكان هناك في اوائل القرن الرابع قبل الميلاد امة عربية عرفت بالانباط او النبط كان مقامهم وراء فلسطين غربًا جنوبيًا على انقاض الادوميين في بقعة تمتد من جزيرة سينا الى حوران تعرف بالبلاد العربيـة الصخرية Arabia Petra ولا تزال آثار مدينة بطرا باقيـة الى الآن وفيها الابنية المنقوشة والتماثيل المنحوتة ونحوها · حاربهم الروم سنة ٣١٢ ق م بقيادة انتيغونوس وكان الانباط عشرة آلاف · مقاتل وذكر ديودورس انهم كانوا يجتنبون الزراعة رغبة في الرحلة ويعيشون على اللحوم والالبان ويحرمون الخمر تحت طائلة القتل · وانما شرابهم المـاء يحلونهُ بالمن وهو كثير عندهم · وكانوا يتجرون بالمر والاطياب يحملونها من شواطىء البحر الاحمر وبلاد العرب وبالحمرّ او القار يحملونه من البحر الميت الى مصر ليستخدمه المصريون في التحنيط · وكانت طرق التجارة بين مصر وسائر المشرق لا تسلك الاّ على يدهم والاّ فانهم يهاجمون القوافل ويغزون التجار · ثم تغلب عليهم البطالسة وقهروهم فتباعدوا عن حدود مصر ونزلوا حوران ونبغ منهم في القرن الأول قبل الميلاد ملك يسميه اليونانيون اريتاس ( الحارث ) حارب عامل دمشق وغلبه على مدينته واستولى عليها وعلى ملحقاتها تحت رعاية الرومانيين نيفًا واربعين سنة · ثم صار الانباط حلفاء الرومان في القرن الاول للميلاد وامتدت شوكتهم في اثناء ذلك الى جزيرة العرب مما يلي سواحل البحر الاحمر

وظلت مدينة بطرا مركزًا تجاريًا بين الشرق ومصر حتى اكتشفوا الطريق من القصير الى قفط على النيل فاخذت بطرا بالتقهقر وكان الانباط قد تحضروا فذهبت خشونتهم وعجزوا عن الغزو والحرب فاركنوا الى الزراعة وأووا الى المنازل وانغمسوا في الترف فجـاءهم تراجان الروماني سنة ١٠٥ م فحاربهم واخضعهم واذلَّهم فذهبت عصبيتهم وانحلت قواهم فاخلدوا الى الدعة واختلطوا باهل البلاد الاصليين من السريان أوا لاراميين وانتشروا على حدود سوريا وفلسطين مما يلي البادية بين جزيرة سينا والفرات ولم تقم لهم قائمة

من ذلك الحين

ولما جاء المسلمون لفتح الشام وجدوا بقايا هذه الامة هناك يتكلمون اللغة الارامية او السريانية لغة اهل العراق وما بين النهرين فحسبوا الانباط والعراقيين امة واحدة فاطلقوا عليهم جميعًا اسم « الانباط » والذي عليه المحققون ان انباط بطرا وما يليها عربٌ وانما تكلموا الارامية على أثر اختلاطهم باهل الشام والعراق بعد ذهاب دولتهم . و يظن علماء التوراة ان النبطيين ينسبون الى نبايوط من اباء التوراة

ولما ضعف الانباط ظهر مكانهم على حدود الشام والعراق اجيال جديدة من العرب اتخذهم الروم والفرس حلفاء يردون عنهم غارات اخوانهم اهل البادية او ينصرونهم في الحروب التي كانت تنتشب بين تينك الدولتين قبيل الاسلام . فاقام حلفاء الروم في جهات حوران وهم الغساسنة واقام حلفاء الفرس على شاطىء الفرات في الحيرة وهم المناذرة . فاذا انتشبت حرب بين الروم والفرس تجند الغساسنة للروم والمناذرة للفرس ودافع كل منهما عن اصحابه . فكانوا مع بداوتهم وسذاجتهم عونًا قويًا لهاتين الدولتين الضخمتين ينصرون احداها على الاخرى . ولنحو هذا السبب اقام العرب على الحدود بين الفرس والروم في ما بين النهرين والعراق وفيهم بطون من اياد وربيعة

فسكان الشام والعراق عند ظهور الاسلام كان معظمهم من بقايا الاراميين الاصليين وهم السريان في الشمال والشرق واليهود والسامريون في الجنوب و بقايا الانباط في الغرب يليهم العرب الغساسنة والمناذرة ثم قبائل اياد وربيعة بين النهرين . و يتخلل هذا المجموع شتات من امم اخرى كالجراجمة في جبل اللكام [1] والجرامقة في الموصل [2] واخلاط من مولّدي اليونان الرومان على الشواطىء ومولدي الفرس والاكراد في الشمال . وكانت جامعة الدين قد غلبت على جامعة النسب او الجنس او اللغة فاصبحت الطوائف تنتسب الى مذاهبها الدينيـة كالنصارى واليهود والسامريين . وينقسم النصارى الى ملكيين و يعاقبة ونساطرة وموارنة وغـيرهم . وكانت الديانة والسياسة مرتبطتين والحزب الديني عبارة عن حزب سياسي يستخدم في تأييد الدولة . فالكنيسة القسطنطينية كانت ام كنائس المشرق وشعوب هذه الكنائس تنقاد الى تلك الكنيسة لتأييد سلطة القيصر صاحب العرش فيها والكلام في تفصيل ذلك يطول

(١) البلاذري (٢) مختصر الدول ١٣١

نظام الاجتماع في الشام والعراق

اما حال الاهالي بالنظر الى الحكومة فكان على غير المألوف بيننا لبعد النسبة بين الحاكم والمحكوم في تلك الايام ولا سيما في البلاد التي يحكمها الغرباء البعيدون عن اهلها لغة او ديناً او جنساً . فالرومان كانوا يعدُّون البلاد واهلها وهم العامة ملكاً لهم يتصرفون بهم كيف شاؤا وكان الفلاحون في كثير من البلاد يعدُّون من توابع العقار فينتقل العقار من مالك الى آخر وفلاحوه معه ويسمونهم سرف ( Serfs ) اي الاقنان ( جمع قن ) الاَّ الذين تسمو بهم هممهم الى التقرب من رجال الدولة بالصناعة او الادب او التجارة وهم قليلون . فكان الناس طبقتين طبقة الخاصة وهم الملك واهله واعوانه ورجال الدين ومن جرى مجراهم . والعامة اهل البلاد الاصليون واكثرهم الفلاحون او الاكرة

فخاصة اهل الشام في العصر الروماني حكامها وهم البطارقة والبطريق غير البطريرك . وكان البطارقة عند الرومانيين جماعة من اشراف المملكة الرومانية نشأوا مع مدينة رومية وكان لهم نفوذ عظيم في الدولة الرومانية وانحط شانهم بعد انقسامها ولم يبق لهم عمل فلما امتدت سطوة الروم الى المشرق رأوا تلك البلاد البعيدة لا يستطيع الحكم فيها واخضاع اهلها الاَّ اهل السطوة والهيبة فعهدوا بذلك الى البطارقة وولوهم المستعمرات الشرقية وفي جملتها الشام ومصر وكانت الشام ولاية واحدة تقسم الى ١١ اقليماً على كل اقليم بطريق معه الجند كانه حاكم مستقل (١) وكانت حدود الشام بالنظر الى الحكومة تنتهي من الشمال الشرقي الى الفرات ولا يدخل العراق وما بين النهرين فيها وانما جعلناهما منها في كلامنا عن الاهالي لانهم واهل الشام من اصل واحد كما رأيت

## ٢ — طبقات الناس في مصر

ان سكان مصر اقل اختلاطاً من سكان الشام والعراق ومع ذلك فقد توالت الهجرة اليها من اقدم ازمنة التاريخ قبل زمن الفراعنة . والفراعنة اكثرهم من الفاتحين الغرباء فكانوا اذا فتحوا مصر واستقام لهم الامر فيها هاجر اليها اهل عصبيتهم لاستثمار ذلك الفتح . فيأتون على ان تكون اقامتهم وقتية ريثما يجتمع لهم المال ولكن اكثرهم لا يرجعون ولا يمضي بضعة اجيال حتى يختلطوا بالسكان و يصيروا جزءًا منهم كما حدث في زمن الرعاة والفرس

(١) راجع تفصيل ذلك في صفحة ١٠٦ من الجزء الاول

واليونان والرومان وغيرهم ممن فتحوا مصر قبل الاسلام . والغالب في الفاتحين انهم لا يزالون يميزون عصبيتهم من عصبية سائر رعاياهم حتى ينتقل الامر من ايديهم الى فاتح آخر فتتناسى عصبيتهم و يندمجون في جملة الوطنيين . ناهيك بمن كان ياتي مصر للاتجار او الاستثمار لاشتهارها بالخصب والرخاء

وكان الفاتحون يترفعون غالبًا عن الاختلاط بسائر افراد الامة فيكون منهم الجند ورجال الدولة والكهنة ونحوهم من اهل السيادة ويجعلون مقامهم في المدن الكبرى و يبقى الشعب للفلاحة والصناعة والخدمة . فالبطالسة حكموا مصر نحو ٣٠٠ سنة وتقاطر اليونان في ايامهم بكثرة وكانوا يقيمون في الاسكندرية او غيرها من العواصم واكثرهم من الجند او التجار او رجال الدولة لادارة الحكومة . وكذلك كان شان الرومان فانهم تولوا وادي النيل ستة قرون والروماني يمتاز عن المصري لغة ومذهبًا وخلقًا وكانوا يقيمون في المعاقل والحصون او المدن الكبرى كما كان حالهم في الشام

فلما ظهر الاسلام كان سكان مصر طبقتين (١) الرومان او الروم وعاصمتهم الاسكندرية ومنهم رجال الدولة والاجناد و بعض رجال الاكليروس (٢) الاهالي وهم الاقباط الاصليون يخالطهم بعض المولدين من اليونان والرومان وغيرهم من النازحين للتجارة او الخدمة او غيرهما من اهل الشام واليمن والعراق والنوبة وافريقية . وكان بين الحكومة والاهالي فاصل آخر مذهبي فكان الروم على مذهب الملك وهم الملكيون والاقباط على مذهب يعقوب البراذعي وهم يعاقبة

## ٣ — طبقات الناس في افريقية

يريد العرب بافريقية البلاد الواقعة في شمال افريقيا حيث الآن تونس وطرابلس والجزائر ومراكش وهي في الاصل مستعمرة سامية لبعض النازحين من فينيقية قبل الميلاد بعدة قرون بنوا فيها مدينة قرطاجة او قرطجنة وانشأوا دولة هي شرقية باعتبار اصلها وان كانت غريبة في موقعها لان اهلها ساميون ولغتها من اخوات اللغة العربية . وقد حارب القرطجنيون الرومانيين ونازعوهم على السيادة فقطعوا اليهم البحار وجبال الالب حتى حاصروا رومية وكادوا يذهبون بدولتها ولو فعلوا ذلك لتغير وجه الارض عما نعرفه ولكنهم اخفقوا فرجعوا ثم ارتد عليهم الرومان وحاربوهم في بلادهم حتى افنوهم واخربوا مدينتهم

وتوالى على قرطاجة بعدهم امم شتى كالرومان والفندال والفرس وغيرهم

اما اهل البلاد الاصليون فقد كان معظمهم قبل القرطجنيين اقواماً من الجنس البربري يعتصمون بالجبال دأبهم النهب والغزو . ولما ذهب القرطجنيون وخلفهم الرومان وجدوا اهل تلك البلاد طبقتين احداهما حضرية تتوطن السواحل في ما هو الآن مراكش والجزائر وتونس يتعاطون التجارة والصناعة والاخرى تسكن الجبال والبادية . فسموا الاولى الموريتانيين والثانية النوميديين . وكان النوميديون من القبائل الرحل الاشداء فلم تقوَ الدولة الرومانية على اذلالهم بل كانوا كثيراً ما يهاجمون حاميتها في المدن و يعودون الى جبالهم . ذلك كان شانهم مع من فتح افريقية بعد الرومان . وما زالوا على ذلك حتى جاء المسلمون وفتحوا افريقية واهلها طبقتان الاولى اهل المدن وهم الموريتانيون ومن اختلط بهم من الامم الفاتحة الروم والفندال وقد اعتنقوا النصرانية وتحضروا . والثانية النوميديون وهم لا يزالون على بداوتهم وظلوا ممتنعين في جبالهم الى اواخر القرن الاول للهجرة وهم الذين يسميهم العرب قبائل البربر على ما هو مدون في كتبهم ولهم شأن كبير في في تاريخ الاسلام

## ٤ — طبقات الناس في بلاد فارس

نريد ببلاد فارس ما بين دجلة في الغرب الجنوبي ونهر جيحون في الشرق الشمالي و يدخل فيها خوزستان وكرمان ومكران و بلاد الجبال وخراسان واذربيجان وارمينيا وغيرها وهي تحوي شعوباً شتى من امم مختلفة لا يمكن حصرها وتمييزها بعد ان طال العهد عليها . ولكنها تمتاز في كل حال عما يجاورها من سكان العراق والشام امتيازاً كلياً في الجنس واللغة والدين اما الجنس فسكان بلاد فارس اكثرهم من الجنس الآري وهو غير الجنس السامي الذي عمر الشام وما وراءها كما تقدم . اما اللغة فالفارسية من اللغات الآرية اخوات لغات اوربا وهي غير اللغات السامية . واما الدين فالمذهب الذي كان شائعاً في تلك البلاد قبل الاسلام الزردشتية أو المجوسية ومذهب اهل العراق والشام النصرانية واليهودية

وتوالى على بلاد فارس دول كثيرة حتى فتحها الاسكندر في القرن الرابع قبل الميلاد فلما مات واقتسم المملكة قواده لم يستطيعوا استبقاء تلك البلاد في حوزتهم فاقتسمها امراؤها وهم المعروفون بملوك الطوائف حتى قام اردشير بن ساسان سنة ٢٢٤ م فجمع كلمتها

بالسيف وتوالى عليها اهلهُ الى ظهور الاسلام وهي الدولة الساسانية

فلما ظهر الاسلام كان سكان تلك المملكة طبقتين العامة والخاصة . اما العامة فاهل البلاد الاصليون ومنهم الفلاحون والصناع والخدم وغيرهم من نتاج الاختلاط قروناً بين القبائل الآرية و بعض القبائل الطورانية من الاتراك والديلم . وكانوا يسمون عند ظهور الاسلام « الطاجية » ولا يعرف اصل هذه اللفظة تماماً[1] ولكنهم يريدون بها طبقة العامة والطاجية ضخام الاجسام اقوياء الابدان

واما الخاصة فالملك واهله ورجال دولته ورجال الدين والاشراف من بقايا الدول السالفة . فبعد الملك واهله تأتي طبقة الشهارجة « شهريجان » او السهارجة[2] وهم اشراف السواد وارباب الدولة كالبطارقة عند الروم . تليهم طبقة الدهاقين واحدهم دهقان و ينتسبون الى الملوك القدماء من الدول السالفة وهم اصحاب الارضين وفي ايديهم اكثر البقاع يستغلونها على رقاب الطاجية . والدهاقين خمس مراتب وقد يتولون الامارات و يتعاطون الحكومة كامراء بخارا ( بخارا خدا ) فقد كانوا عند ظهور الاسلام من الدهاقين وكذلك هرات . وقد يكون الدهقان مثل بعض العامة

وكانت مملكة فارس عند ظهور الاسلام في حوزة الدولة الساسانية تقسم الى عمالات يتولى كل عمالة امير يسمونه « مرزبان » واصل معنى هذه اللفظة قائد الحدود . على ان بعض العمال كانوا يتمتعون بشيءٍ من الاستقلال في احكامهم ولا سيما في الامارات البعيدة وكان بعضها مستقلاً استقلالاً تامًّا و يتخذ كل امير لقباً خاصًّا بهِ مثل « رتبيل » لقب امير سجستان و « رنجان » لامير سمندجان و « جيغويه » لصاحب طخارستان و « اصبهبذ » لصاحب بلخ و « باذان » لمرو الروذ و « شهرك » للطالقان و « اخشيد » لصاحب فرغانة وقس عليهِ . على ان بعض الولايات كمرو وسرخس وطوس كان يتولاها المرازبة

واكبر نفوذاً وسطوة من اشراف المملكة وملوكها رجال الدين وهم كهنة الزردشتية و يسميهم المسيحيون المجوس واسمهم عند الفرس الموبذان واحدهم « موبذ » وهم كالاساقفة عند النصارى رئيسهم يسمونهُ « موبذ موبذان » مثل رئيس الاساقفة وكان نفوذهم في الدولة يفوق نفوذ الملك[3] ومنهم القضاة او من يقوم مقامهم في الحكومة بين الناس

وكان في بلاد الفرس جماعات تجمعهم نسبة او صفة يقيمون في بلد او يتنقلون في البلاد

---

(١) الهلال صفحة ٩٩ سنة ١٣ (٢) المسعودي ١٢٣ ج ١

(٣) Christianisme dans l-Empire Perse 6

كالاساورة والسيابجة والزط والاحامرة ونحوهم [1]

## ٥ — طبقات الناس عند العرب الجاهلية

قد علمت ان سكان جزيرة العرب من الشعوب السامية اخوان الاراميين والعبرانيين ولكنهم لم يصبهم ما اصاب اخوانهم في العراق والشام من الاختلاط لامتناع جزيرتهم على الفاتحين بما يحدق بها من البوادي التي يعسر سلوكها على الجيوش . وقد همَّ بها الاشوريون واليونان والروم وغيرهم ورجعوا عنها بلا طائل حتى اذا كان القرن الخامس للميلاد فتح الاحباش قسمها الجنوبي ( اليمن ) وعجزوا عن الحجاز فاستنصر اليمنيون الفرس فنصروهم واخرجوا الاحباش وحلُّوا محلهم واختلطوا باهل اليمن وعرفوا بالابناء الاحرار

على ان بلاد العرب كانت ملجأً النازحين من الشام او مصر او العراق فراراً من ظلم او ضغط او امتناعاً على الحكومة لسبب من الاسباب واكثر الامم نزوحاً اليها اليهود لكثرة ما قاسوه من الاضطهاد منذ خروجهم من مصر الى ان اضطهدهم الروم على عهد طيطس وغيره — وهاجر اليها كثيرون من اليونان والرومان والفرس والهنود والاحباش وغيرهم بلا حرب ولا اضطهاد . ومع ذلك فان العرب ظلوا مستقلين بانسابهم وعاداتهم وآدابهم ويقسمون باعتبار النسب او الوطن الى قحطانية او يمنية وعدنانية او حجازية . وانقسمت لغتهم بهذا الاعتبار الى حميرية ومضرية وقد فصلنا طبقات العرب وقبائلهم وحلفاءهم ومواليهم وعبيدهم في الجزء الرابع من هذا الكتاب

## نظام الاجتماع في عصر الراشدين

بيَّنا في الجزء الرابع المذكور ما احدثهُ الاسلام من التغيير في العصبية العربية وما تولد بهِ من الطبقات الجديدة التي لم تكن قبل الاسلام كالمهاجرين والانصار واهل بدر واهل القادسية وما اقتضاه النسب الهاشمي او القرشي من العصبيات الجديدة ومنهم طبقات الاشراف من العلويين او العباسيين وابناء الانصار والمهاجرين على ما وضعه عمر في ديوانه من مراتب العطاء باعتبار تلك الطبقات [2] .وما يلحق بذلك من طبقات التابعين وتابعي

---

(١) البلاذري ٣٨١ (٢) الجزء الاول ١٢٥

التابعين والانتساب الى مشاهير الصحابة كآل الزبير وآل ابي بكر وغير ذلك مما اقتضاه الاسلام والفتوح الاسلامية · فتولد من ذلك بيوتات اسلامية غير البيوتات العربية التي كانت قبل الاسلام

اما البلاد المفتوحة فلما جاء المسلمون لفتحها فأول من لقيهم على حدودها العرب ابناء لغتهم واهل عصبيتهم ولما اوغلوا في الشام والعراق استأنس اهلوها باللسان العربي لقربهِ من لسانهم الآرامي او السرياني مع بعد لسان حكامهم يومئذ الرومي او الفارسي عنهم — فكان ذلك من جملة ما مهد لهم اسباب الفتح · اما طبقات الناس الاصلية فقلما اصابها تغيير في عصر الراشدين لان المسلمين لم يكونوا يخالطونهم ولا يدخلون في شيءٍ من احوالهم الادارية او الدينية او السياسية وانما كان همهم اقتضاء الجزية والخراج وحماية من دخل في ذمتهم من اهل الكتاب · فكانوا يقيمون في مضاربهم اومعاقلهم بضاحية البلد المفتوح بما يشبه الاحتلال العسكري — الاَّ من دخل في حوزتهم من الارقاء بالاسر او السبي ومن اعتقوه فصار من الموالي · وهناك طبقة جديدة نشأت بانتشار الاسلام خارج جزيرة العرب وهم المسلمون من غير العرب ولهم شروط واحوال تخالف ما للعرب على ما بيَّناه في الجزء الرابع

## نظام الاجتماع في عصر الامويين

كانت قصبة الاسلام على عهد الراشدين في المدينة بجوار قبر النبي فنقلها الامويون الى الشام قرب البلاد المفتوحة وعملوا على توسيع دائرة مملكتهم فجردوا الجيوش وفتحوا المدن حتى وطئت حوافر خيولهم ما وراء النهر في اقصى الشرق وركبوا بحر المجاز ( بوغاز جبل طارق ) الى اسبانيا ففتحوها وما وراءها من بلاد الافرنج الى نهر تورس · ونصبوا اعلامهم على اعظم مدائن الفرس والترك والروم والاسبان والافرنج حتى هددوا القسطنطينية · وحولوا الاحتلال الموقت الى السيادة الدائمة · وجعلوا الاسلام دولة بعد ان كان ديناً وأبدوه بنقل دواوين الحكومة في الشام ومصر والعراق من اليونانية والقبطية والفارسية الى العربية وبعد ان كانت تلك الدواوين يتولاها اهل البلاد غير المسلمين جعلوها في ايدي المسلمين · وضربوا النقود العربية فاستعاضوا بها عن نقود الروم والفرس ونقشوا عليها الآيات القرآنية بدلاً من الصور والرموز · ونقلوا طراز الدولة من اليونانية او الفارسية الى العربية — فآل ذلك كلهُ الى انتشار العرب في الارض وسيادة العنصر العربي ونشر اللغة العربية

على ان شدة تعصبهم للعرب دعا الى انقسام المسلمين الى طبقتين العرب والموالي فضلاً عما فرقوا فيه بين العرب انفسهم باعتبار النسب القحطاني والعدناني . وظل العرب في ايامهم على بداوتهم بما كانوا يتوخونه من المحافظة على خشونة الجاهلية وتنشيط ادابها

فطبقات الناس في العصر الاموي تقدمت خطوة عما كانت عليه في زمن الراشدين فكان الناس طبقتين كبيرتين المسلمين وغير المسلمين والمسلمون طبقتان العرب وغير العرب وهم الموالي . وغير المسلمين هم اهل الذمة من القبط والانباط والروم والفرس وغيرهم كما كانوا قبل الاسلام — الاَّ من دخل في خدمة المسلمين من الاطباء والكتاب والمترجمين وهم طبقة جديدة من اهل الذمة لم تكن قبل الاسلام . غير ما حدث في اثناء الفتوح الاموية والحروب الاهلية من انتقال بعض الطوائف والجماعات من بلد الى آخر كانتقال السيابجة والزط الى سواحل الشام في ايام معاوية . ونقل الحجاج جماعة من زط السند الى العراق واسكنهم باسافل كسكر . وسبى عبيدالله بن زياد خلقاً من اهل بخارا فاسكنهم البصرة . ولما بنى الحجاج مدينة واسط نقل كثيراً منهم اليها فاقاموا فيها وتناسلوا [1] فضلاً عمن كانوا يصطحبونهم احياناً في حملاتهم البعيدة للفتح او الغزو فقد يكون في الحملة جماعات من البرابرة والانباط والاقباط والجرامقة والجراجمة [2] فهؤلاء اذا فتحوا بلداً أقاموا فيه وتناسلوا واختلطوا بأهله

وبالجملة فان الهيئة الاجتماعية في ايام الامويين كانت في بدء انتقالها من حالها القديمة في عصر الروم والفرس الى العصر الاسلامي . ولم يتم ذلك الانتقال وتتكيف بشكلها الخاص بالاسلام والتمدن الاسلامي الاَّ في العصر العباسي لترفع الامويين عن الاختلاط بغير العرب ورغبتهم في البقاء على البداوة . ومع ايغال جنودهم في بلاد فارس وخراسان وتركستان ومصر وافريقيا والاندلس قلما اختلطوا باهلها او اقتبسوا منهم او قلدوهم في شيء من عاداتهم واخلاقهم حتى الخليفة المقيم في دمشق — الاَّ ما اتخذوه من الحرس والبريد والسرير على ما يأتي بيانه . اما العباسيون فنظراً لتغلبهم بالموالي واهل الذمة على الامويين جعلوا مقامهم بين اشياعهم الفرس فبنوا بغداد على الحدود بين الفرس والسريان او بين الآريين والساميين او بين المجوس والنصارى وقربوا الفرس واتخذوا منهم الوزراء والعمال ورجال الدولة فنظموا لهم الدواوين على نحو ما كانت عليه في الدولة الساسانية

---

(١) البلاذري ٣٨٤ (٢) البيان ١١٤ ج ١ وابن الاثير ٣٥ ج ٥

## نظام الاجتماع في العصر العباسي

كل ما قدمناه من الكلام على طبقات الناس في العصور السالفة انما هو تمهيدٌ للكلام عن العصر العباسي اذ نضج التمدن الاسلامي وتكيفت طبقاته على شكل خاص بهذا التمدن وكان على اتمّ اشكالهِ في مدينة بغداد قصبة العالم الاسلامي فهي اوضح نموذج يمثل بهِ نظام الاجتماع في ذلك العصر

كان الناس في العصر العباسي طبقتين الخاصة والعامة تحت كلٍّ منهما طبقات واتباع وفروع سيأتي تفصيلها :

### طبقات الخاصة

كان الخاصة خمس طبقات (١) الخليفة (٢) اهلهُ (٣) رجال دولتهِ (٤) ارباب البيوتات (٥) توابع الخاصة

فالخليفة صاحب السلطتين الدينية والسياسية [1] فاحرٍ بمن كان هذا منصبهُ ان يعظم الناس شأنه و يتقربوا اليهِ بالطاعة و بذل الخدمة و يتزلفون بالمدح والاطراء · وسيأتي الكلام على الخلفاء ومجالسهم ومواكبهم والآداب في مخاطبتهم وغير ذلك في باب ابهة الدولة من هذا الجزء

واهل الخليفة هم بنو هاشم وكانوا ارفع الناس قدرًا بعده و يسمونهم الاشراف وابناء الملوك [2] فاذا دخلوا على الخليفة جلسوا على الكراسي وسائر الناس دونهم على الوسائد او البسط الا هو فانهُ يجلس على السرير · وكانوا يرتزقون على الغالب برواتب يقتضونها من بيت المال فضلاً عن النعم والهدايا على ما يتراءى للخليفة في امرهم فاذا خاف تطاول احدهم للملك اغلّ يديه بالهدايا وقطع لسانه بالعطاء — تلك كانت سياسة العباسيين منذ تاسيس دولتهم · وكان الهاشميون في اوائلها عونًا كبيرًا في تايدها يتولون الاعمال و يقودون الجند و يعينون الخليفة بالرأي والسياسة · فلما تايدت اصبح الخلفاء يخافون مطامع اهلهم

(١) راجع الجزء الرابع صفحة ١٧٩ (٢) المسعودي ١٧٧ ج ٢ وغيرهُ

فاخذوا يبذلون لهم الاموال فمن اعجزهم كف اذاه بالمال عمدوا الى الفتك به — باشر ذلك ابو جعفر المنصور وتمشى الخلفاء على خطته فكانوا يعطون اهلهم الرواتب الباهظة والهدايا الفاخرة يسهلون عليهم اسباب القصف واللهو ليشتغلوا بذلك عن طلب الملك وتعجز هممهم عن النهوض

فكان الهاشميون في الغالب من اهل السعة والرخاء يتمتعون بشرف الملك ولا يحملون اوزاره واعباء تبعته فانغمس اكثرهم في الترف وانهمكوا بالشراب والغناء وابتنوا القصور الشماء والحدائق الغناء واستكثروا من الجواري وجمعوا اليهم المغنيين والقيان وقربوا الشعراء والادباء . واكثر مقامهم في البصرة بعيدين عن دور الخلفاء ودسائسها الا من ولاه الخليفة عملاً او جنداً . واشتهر بعضهم بالثروة الطائلة كمحمد بن سليمان فقد بلغت امواله نيفاً وخمسين مليون درهم غير الضياع والدور وكانت غلته ١٠٠,٠٠٠ درهم في اليوم (١) وبلغت ثروة خمنة بنت عبد الرحمن الهاشمي مالا يسعه الديوان (٢) ومع ذلك فقد كانوا يؤخذون بغير ذنبهم و يخافون الدسائس على حياتهم

واما رجال الدولة فنريد بهم الوزراء والكتاب والقواد ومن جرى مجراهم من ارباب المناصب العالية . وكان اكثرهم في ابان الدولة العباسية من الموالي وخصوصاً الفرس كالبرامكة وآل الربيع وآل سهل وآل وهب وآل خاقان وآل الفرات وآل الخصيب وآل طاهر وغيرهم . وكانوا يختلفون نفوذاً وسطوة باختلاف الخلفاء وتفاوت ادوار التمدن . ولكن الوزارة كانت على الاجمال من اوسع ابواب الكسب على ما بيناه في الجزء الثاني من هذا الكتاب

اما اهل البيوتات فهم الاشراف من غير الهاشميين ومرجع شرفهم الى اتصال حبل قرباهم بالنسب النبوي او بقريش وكان الخلفاء يراعون جانبهم و يفرضون لهم الاعطية والرواتب و يقدمونهم في مجالسهم . على ان هذه الانساب كانت اكثر نفعاً لاصحابها في عهد بني أمية مما في ايام بني العباس ولا سيما بعد سقوط العنصر العربي بقتل الامين . فلما افضى الامر الى المعتصم قطع رواتب الاشراف في جملة ما قطعه من اعطيات سائر العرب ولعلها غيدت بعد ذلك على غير قياس

---

(١) المسعودي ١٨٨ ج ٢ (٢) الاتليدي ١٥١

## اتباع الخاصة

وللخاصة اتباع أخرجوهم من طبقات العامة بما خصوهم به من اسباب القربى او الخدمة وهم اربع طبقات (١) الجند (٢) الاعوان (٣) الموالي (٤) الخدم

فالجند فرق كثيرة تختلف اصلاً ونظاماً على ما فصلناه في الجزء الأول من هذا الكتاب وقد يتبادر الى الذهن قياساً على المألوف عندنا ان الجند رجال الخليفة يأتمرون بامره . وقد يكون بعضهم كذلك لكنهم كانوا يختلفون في ذلك العصر عما هم عليه الآن لان بعض الخاصة من الوزراء او العمال كانوا يجندون رجالاً ينفقون عليهم من اموالهم وقد يبتاعونهم غلماناً و يربونهم للاستعانة بهم على اعدائهم وقت الحاجة و يسمونهم باسمائهم . وقد يذهب الوزير او العامل و ينتقل جنده الى غيره و يبقى معروفاً باسمه . فاجتمع في بغداد من الاجناد طوائف كثيرة تنتسب الى اصحابها كالساجية والنازوكية والبيلغية والهارونية وفيهم الاتراك والفرس والبرابرة والاحباش والاكراد . ومن هذا القبيل الفرق العزيزية والاخشيدية والكافورية في مصر مما لا يحصى ومن تلك الفرق ما هو من قبيل الضابطة او نحوها كالشاكرية او لمجرد حماية القصور او غير ذلك

اما الاعوان فهم خاصة الرجل ورفاقه ولا يراد بهم ما يراد بالرفاق او الاصدقاء اليوم فقد كان للخلفاء وسائر الخاصة من رجال الدولة والاشراف رفاق يصطحبونهم و يجالسونهم و يعيشون في منازلهم و يكون لهم رواتب يقتضونها . ومنهم طائفة الجلساء الذين يجالسون الخليفة او الامير وهم غير الندماء او الشعراء وانما هم رجال من اهل التعقل والثقة يختصهم الخليفة او الامير او الشريف بمجالسته فيفاوضهم في شؤونه و يركن اليهم في مهامه و يكون لهم الدالة عليه وربما كان بعضهم من مشائخ اهله او بعض ذوي قرابته

واما الموالي فقد فصلنا الكلام عنهم في الجزء الرابع من هذا الكتاب و بيّنّا احوالهم وشروطهم وتاريخهم ولا حاجة الى المزيد

### الخدم

اما الخدم فأكثرهم في ذلك العهد الارقاء السود والبيض من الذكور والاناث وقد اصطلحوا ان يسمّوا الارقاء البيض مماليك والسود عبيداً و يقسم الكلام في الخدم الى ثلاثة اقسام الارقاء والخصيان والجواري :

# ١ — الارقّاء

في الجزء الرابع من هذا الكتاب فصلٌ عن الرق في الاسلام ومصادره واحكامه (صفحة ٤٤ وما بعدها) وفصل آخر عن الخدم وطبقاتهم ونفوذهم في الدولة حتى نبغ منهم القواد والوزراء (صفحة ١٦١) فنأتي في هذا المقام بما يختص من هذا الموضوع بنظام الاجتماع

قلنا في ما تقدم عن طبقات الناس قبل الاسلام ان العامة من اهل البلاد الاصليين بالشام والعراق ومصر وفارس كانوا يئنون تحت نير الاستعباد وبعضهم ارقاء فعلاً ولا سيما الاقنان خدمة المزارع الذين كانوا ينتقلون مع العقار من مالك الى مالك . فهؤلاء العامة جاءهم الاسلام رحمة لانهم تحوَّلوا من الرق الى الحرية او الى العهد فمن اسلم صار حرًّا لهُ ما للمسلمين وعليهِ ما عليهم ومن ظلَّ على دينه دخل في ذمة المسلمين يدافعون عنهُ ما ادى الجزية الاَّ من حاربهم واسروه فهو ملك لهم يتصرفون بهِ كيف شاؤُا . ولكن اكثر الذين حاربوا المسلمين في صدر الاسلام من حامية البلاد وهم الجنود من الروم او الفرس غير العامة اهل البلاد المظلومين . فمن دخل من الحامية في اسر المسلمين صار ملكاً لهم — فكأن الاسلام حرَّر العبيد واستعبد الاحرار — الاَّ ما زعمهُ بعض امراء بني امية من استعباد اهل البلاد المفتوحة عنوة او اعتبار المسلمين غير العرب من الموالي

## كثرة الاسرى او الارقاء

وتكاثر الاسرى في اثناء الفتوح حتى كانوا يعدُّون بالالوف ويباعون بالعشرات — اعتبر ما كان من ذلك في الصدر الاول وما تبعهُ من الفتوح البعيدة في ايام بني امية فقد بلغت غنائم موسى بن نصير سنة ٩١ هـ في افريقية ٣٠٠،٠٠٠ رأس من السبي فبعث خمسها الى الخليفة الوليد بن عبد الملك ٦٠،٠٠٠ رأس ولم يسمع بسبي اعظم من هذا [١] وذكروا ان موسى هذا لما عاد من الاندلس كان معهُ ٣٠،٠٠٠ بكر من بنات شرفاء القوط واعيانهم [٢] وقس على ذلك غنائم قتيبة في بلاد الترك وغيرها

وبلغت غنائم ابراهيم صاحب غزنة سنة ٤٧٢ هـ من قلعة في الهند ١٠٠،٠٠٠ نفس [٣] وفي وقعة ببلاد الروم سنة ٤٤٠ هـ بقيادة ابراهيم بن ينال سبا المسلمون ١٠٠،٠٠٠ رأس غير الدواب [٤] . وفي جملة غنائم الحرب فضلاً عن الاسرى من الرجال جماعات من النساء

(١) نفح الطيب ١١٣ ج ١ وابن الاثير ٢٥٩ ج ٤ (٢) ابن الاثير ٢٧٢ ج ٤
(٣) ابن الاثير ٤٦ ج ١٠ (٤) ابن الاثير ٢٢٧ ج ٩

والغلمان مما يثقل نقله فكثيراً ما كانوا يبيعونهم بالعشرات رغبة في السرعة كما فعلوا في واقعة عمورية سنة ٢٢٣ هـ اذ نادوا على الرقيق خمسة خمسة او عشرة عشرة . وربما بلغ ثمن الانسان بضعة دراهم — ذكروا ان غنائم المسلمين في واقعة الارك بالاندلس سنة ٥٩١ هـ بيع الاسير فيها بدرهم والسيف بنصف درهم (١) والبعير بخمسة دراهم وقد يقضون عدة اشهر وهم يبيعون الاسرى والغنائم

تلك امثلة من اسباب تكاثر الرقيق عند المسلمين غير ما كان يرسلهُ بعض العمال الى بلاط الخلفاء من الرقيق وظيفة كل سنة من تركستان (٢) وبلاد البربر وغيرهما

معاملة الاسرى

كانوا في صدر الاسلام اذا ظفروا بغنيمة تولى الامير قسمتها على القواد بعد ارسال الخمس الى بيت المال ثم اختلف ذلك مع الزمان باختلاف الدول . ففي الدولة الفاطمية بمصر كانوا اذا عاد الجند من حرب ومعهم الاسرى يصل الاسطول بالنيل الى شاطىء القاهرة فينزلون الاسرى ويطوفون بهم القاهرة ثم ينزلونهم في مكان كانوا يسمونهُ المناخ (في جهة الاسماعيلية اليوم) كان مستودعاً للاسرى الذكور فينظرون فيهم فاذا استرابوا في احد قتلوه ومن كان شيخاً لا ينتفع ضربوا عنقه وألقوا جثته في بئر كانت في خرائب مصر تعرف ببئر المنامة . ومن بقي يضاف الرجال منهم الى من في المناخ ويمضي بالنساء والاطفال الى قصر الخليفة بعد ما يعطي الوزير منهم طائفة و يفرق الباقي لخدمة المنازل . ويدفع الصغار من الاسرى الى الاستاذين فيربونهم و يعلمونهم الكتابة والرماية و يسمونهم اذذاك «الترابي» وقد يرتقي اولئك الصبيان الى رتب الامراء (٣)

ولم يكن استخدام الاسرى على هذه الصورة خاصاً بالمسلمين بل هي عادة كانت مرعية في تلك الاعصر فمن يقع من المسلمين في ايدي اعدائهم كان حظهم الاسترقاق حتى يفتديهم المسلمون وكان للخلفاء عناية في فكاك الاسرى يبذلون في سبيله المال او يعطون اسرى عندهم على سبيل المبادلة . واشهر ما وقع من الفداء بين المسلمين والروم لان الحرب كانت سجالاً بينهما في البر والبحر يأْسرون بعضهم بعضاً فاحتاج الخلفاء الى الفداء . وكان الامويون يفتدون اسراهم احياناً وعلى قلة النفر بعد النفر في سواحل الشام والاسكندرية وملطية وسائر الثغور على الحدود — واول فداء منظم وقع في ايام بني العباس على يد الرشيد سنة ١٨٩ هـ وتوالى

---

(١) نفح الطيب ٢٠٩ ج ١ (٢) المقريزي ٣١٣ ج ١
(٣) المقريزي ١٩٣ ج ٢ و٤٨٩ ج ١

الفداء بعده بضع عشرة مرة في اثناء ١٥٠ سنة · وتزايدت عناية المسلمين في فكاك اسراهم حتى اصبح اهل الورع من الاغنياء يقفون المال على فكاكهم [١]

اما الروم فقلما كانوا يفتدون اسراهم بالمال ولعل السبب في ذلك ان اولئك الاسرى يكونون في الغالب لفيفاً من رعاياهم او اجناداً من الغرباء المأجورين وليس من الروم انفسهم اما المسلمون فهم غالباً المهاجمون فاذا ظفروا كانت غنائمهم من ذلك اللفيف واذا غُلبوا فمن وقع في الاسر منهم كان من المحاربين الذين يستحقون الفداء والرابطة القومية بين المسلمين يومئذٍ اشد وثوقاً منها بين الروم ورعاياهم واجنادهم · على ان المسلمين كثيراً ما كانوا يأبون المال بدل الاسرى ولا سيما في الدولة الفاطمية ولا يعرف عن هذه الدولة انها فادت اسيرًا من الافرنج بمال ولا بأسير مثله فكان ذلك من جملة البواعث على زيادة الارقاء عند المسلمين

فهل يستغرب بعد ذلك اذا استكثر المسلمون من العبيد والمماليك فيبلغ عددهم عند بعضهم عشرة او مئة او الف · حتى الفقراء من عامة الجند كان احدهم لا يخلو من عبد او بضعة عبيد يخدمونه [٢] وكان للفارس في عصر الايوبيين عشرة اتباع يخدمونه او بضع عشرات الى مئة [٣] فكيف بالامراء والقواد حتى في صدر الاسلام فان الخليفة عثمان كان له الف مملوك مع علمك بزهد الراشدين قبله [٤] فاعتبر كم يكون عددهم في ايام الثروة والترف فقد كان الامير في الدولة الاموية اذا سار مشى في ركابه مئة عبد او بضع مئات او الف عبد [٥] وبلغ عدد غلمان رافع بن هرثمة والي خراسان سنة ٢٧٩ هـ ٤٠٠٠ عبد ولم يملك احد من ولاة خراسان قبله مثله

### اصناف الارقاء

وكانوا اذا تكاثر الارقاء عند احدهم واراد استخدامهم في منزله جعل عليهم نقيباً يتولى النظر في شؤونهم يسمونه الاستاذ · على ان الغالب في الغلمان اذا كثروا عند امير ان يتخذهم جنداً يحرسونه فيعلمهم الحرب والقتال · فقد كان عند الاخشيد صاحب مصر ٨٠٠٠ مملوك يحرسه في كل ليلة الفان · واكثر فرق الجند عند الامراء من غلمانهم واصلهم من السبي والاسرى او يبتاعونهم بالمال لهذه الغاية كما تقدم في كلامنا عن فرق الجند وربما بلغ ثمن المملوك الف دينار

(١) المقريزي ٧٩ و ١٩١ ج ٢ (٢) المسعودي ٢٢ ج ٢ (٣) المقريزي ٩٥ ج ١
(٤) الدميري ٤٩ ج ١ (٥) ابن الاثير ١٤٧ ج ٤ والاغاني ٣٧ ج ١

اما الباقون من الارقاء للخدمة في البيوت فيعلمونهم الصنائع اللازمة لتدبير المنزل فمنهم الفراش والطباخ والخازن والوكيل او النقيب والبواب والملاح والركابي وغيرهم (١) ومنهم الوصيف والمملوك وفيهم الرومي والتركي والفارسي والبربري والزنجي والصقلبي بين مجلوب ومولّد من الذكور والاناث مما لا يحصى

واذا زادوا عما يحتاجون اليه في الخدمة او الحراسة او الحماية اتخذوا الغلمان منهم زينة لمجالسهم وكان يفعل ذلك اهل السعة واليسار ولا سيما الخلفاء فانهم تأنقوا في تزيينهم بانواع الالبسة المزخرفة مما لم يسبق له مثيل وأول من اقدم على ذلك الامين بن الرشيد فانه بالغ في طلب الغلمان ولا سيما الخصيان وابتاعهم وغالى فيهم وصيرهم لخلوته وزينهم مثل زينة الجواري . ثم صار الاستكثار من الغلمان سنّة عند الخلفاء فكان عند المقتدر بالله ١١٠٠٠ غلام او مملوك وفيهم البيض والسود . فالبيض من الفرس والديلم والترك والطبرية وغيرهم والسود من النوبة والزغاوة يجلبونهم من مصر ومكة وافريقية . والزنج صلهم من رجال صاحب الزنج الذي ثار بالبصرة وهم غتم فحج يأكلون لحوم الناس والبهائم لميتة وقد عوقبوا على ذلك فلم يرجعوا وكانوا منفردين لا يختلطون بالبيض ولكل طائفة وبة في خدمة الخليفة بين حراسة وغيرها (٢)

## ٢ — الخصيان

الخصاء عادة شرقية كانت شائعة قديماً بين الاشوريين والبابليين والمصريين القدماء وأخذها عنهم اليونانيون ثم انتقلت الى الرومان فالافرنج . ويقال ان اول من استنبطها سميراميس ملكة اشور نحو سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد — وكان المظنون ان الخصاء يذهب بقوة الرجولية وفي التاريخ جماعة من الخصيان اشتهروا بالشجاعة والسياسة وتولوا مناصب مهمة في أزمنة مختلفة منهم نارسس القائد الروماني الشهير في عهد يوستنيان في القرن السادس للميلاد وهرمياس حاكم اتارنية في ميسيا الشهير الذي قدم الفيلسوف ارسطو ذبيحة عن روحه غير ما ذكره فيه من القصائد . وممن اشتهر من الخصيان في الاسلام كافور الاخشيدي صاحب مصر . واشتهر منهم في الهند وفارس والصين جماعات كبيرة واستبد الخصيان في أواخر الدولة الرومانية استبداداً كبيراً

(١) طبقات الاطباء ١٤١ و ١٤٥ ج ١ (٢) تاريخ الوزراء ١٢

وللخصاء اغراض اشهرها استخدام الخصيان في دور النساء غيرة عليهن • فلما ظهر الاسلام وغلب الحجاب على اهله استخدموا الخصيان في دورهم واول من فعل ذلك يزيد بن معاوية فاتخذ منهم حاجباً لديوانه اسمه فتح واقتدى به غيره فشاع استخدامهم عند المسلمين مع ان الشريعة الاسلامية أميل الى تحريمه على ما يؤخذ من حديث رواه ابن مظعون

وكانت تجارة الرقيق شائعة في أوربا قبل الاسلام • ومن اسباب رواجها ان قبائل السلاف الروسيين) نزلوا في اوائل ادوارهم شمالي البحر الاسود ونهر الطونة ثم أخذوا ينزحون غرباً جنوبياً نحو أواسط أوربا وهم قبائل عديدة عرفت بعدئذ بقبائل السلاف ( او السكلاف ) والسرب والبوهيم والدلمات وغيرهم • فاضطروا وهم نازحون ان يحاربوا الشعوب الذين في طريقهم كالسكسون والهون وغيرهم • وكان من عادات أهل تلك العصور ان يبيعوا اسراهم بيع الرقيق كما تقدم فتألف لذلك جماعات كبيرة من التجار يحملون الاسرى عن طريق فرنسا فاسبانيا الى افريقية ومنها الى الشام ومصر • فلما وقعت هذه البلاد في ايدي المسلمين راجت تلك التجارة

فكان التجار من الافرنج وغيرهم يبتاعون الاسرى من السلاف والجرمان من جهات المانيا عند ضفاف الرين والالب وغيرها الى ضفاف الدانوب وشواطئ البحر الاسود — ولا يزال اهل جورجيا والجركس الى اليوم يبيعون اولادهم بيع السلع — فاذا عاد التجار من تلك الرحلة ساقوا الارقاء امامهم سوق الاغنام وكلهم بيض البشرة على جانب عظيم من الجمال وفيهم الذكور والاناث حتى يحطوا رحالهم في فرنسا ومنها ينقلونهم الى اسبانيا ( الاندلس ) فكان المسلمون يبتاعون الذكور للخدمة او الحرب والاناث للتسري • وغلب على اولئك الارقاء انتسابهم الى قبيلة السلاف وكانت تلفظ عندهم « سكلاف » فعربها العرب « صقلبي » واصبح هذا اللفظ عندهم يدل على الرقيق الابيض بالاجمال • وكثيراً ما يرد لفظ الصقالبة في تاريخ الاسلام ويراد به الارقاء من قبائل السلاف والجرمان — وفعل الافرنج نحو ذلك ايضاً فاستخدموا هذه اللفظة لنفس هذا المعنى ومنها ( Esclave ) في الفرنساوية و ( Sklave ) في الجرمانية و ( Slave ) في الانكليزية

ولما شاع الحجاب بين المسلمين في ابان سلطانهم واستخدموا الخصيان في دورهم عمد تجار الرقيق واكثرهم من اليهود الى خصاء بعض الارقاء وبيعهم باثمان غالية فراجت

تلك البضاعة وكثر المشتغلون بها وانشأوا « لاصطناع » الخصيان معامل عديدة اشهرها « معمل » الخصيان في فردون بمقاطعة اللورين في فرنسا • كانوا يخصون اولئك المساكين وهم اطفال فيموت كثيرون منهم على اثر العملية فمن بقي حياً ارسلوه الى اسبانيا فيشتريه الكبراء بثمن كبير • واصبحوا بتوالي الازمان يتهادون الخصيان كما يتهادون الخيل او الآثاث او الآنية فكان ملوك الافرنج اذا ارادوا التقرب من خليفة المسلمين في الاندلس او غيرها اهدوه التحف ومن جملتها الخصيان كما فعل ملكا برشلونه وطركونة لما طلبا تجديد الصلح من المستنصر خليفة الاندلس فانهما اهدياه ٢٠ خصياً من الصبيان الصقالبة و ٢٠ قنطاراً من صوف السمور • الخ • فتكاثر الخصيان في بلاط الخلفاء حتى تألفت منهم فرق لحراسة الخاصه كما تألفت الفرق من سائر المماليك والعبيد • فاذا احتفل الخليفة ببيعة أو نحوها كان المماليك والخصيان زينة ذلك الاحتفال

وراجت تجارة الصقالبة في ابان التمدن الاسلامي وكل ما كان يفد على المملكة الاسلامية منهم يستجلب من الاندلس لانهم كانوا يخصون بالقرب منها • غير ما يحملونه من الصقالبة من جهات خراسان مما يسبيه الخراسانيون ويحملونه للبيع • لان بلد الصقالبة طويل يسبيه الافرنج من الغرب والخراسانيون من الشرق (١)

## ٣ — الجواري

### تكاثرهن

للجواري شأن كبير في تاريخ التمدن الاسلامي لا يقلّ عن شأن العبيد والموالي • واصل الجواري مايسبيه الفاتحون في الحرب من النساء والبنات فهنّ ملك الفاتحين ولو كنّ من بنات الملوك او الدهاقين يستخدمونهن او يستولدونهنّ او يتصرفون في بيعهن تصرف المالك بملكه (٢) ولما افضت احوال المسلمين الى الترف والقصف وتدفقت الاموال من خزائن الخلفاء والامراء جعلوا يتهادونهن كما يتهادون الحلي والجواهر • فمن احب التقرب من كبير اهدى اليه جارية اتقنت صناعة يعلم انه راغبٌ فيها — فاذا علم مثلاً انه يحب الجمال اهداه وصيفة جميلة او علم منه ميلاً الى الغناء اهدى اليه قينة رخيمة الصوت • وقد يهديه عدة جوار اتقنّ عدة صنائع وربما صارت احداهن بعد حين ام ذلك المنزل وصاحبة

(١) ابن حوقل ٧٥ ٢) ابن خلكان ٣٢٠ ج ١

الامر فيه اذا استولدها سيدها • واذا كانت في دار خليفة لا يبعد ان تصير من امهات الخلفاء كما اتفق لاكثر خلفاء بني العباس — ذكروا ان جارية اسمها دنانير صفراء صادقة الملاحة كانت اروى الناس للغناء القديم وقد خرجها رجل من اهل المدينة فاشتراها جعفر البرمكي وسمع الرشيد صوتها فالفها وصار يسير الى جعفر لسماع غنائها ووهب لها هبات سنية • وعلمت امرأته زبيدة بخبرها فشكته الى عمومته فلم ينجحوا في ارجاعه فرأت ان تشغله عنها بالجواري فاهدت اليه عشر جوار منهنّ مارية ام المعتصم ومراجل ام المأمون وفاردة ام صالح (١)

وكثيراً ما كان العمال والامراء يتقربون الى الخلفاء بامثال هذه الهدايا فاهدى ابن طاهر الى الخليفة المتوكل هدية فيها ٢٠٠ وصيفة ووصيف (٢) فلا غرو اذا تكاثرن في قصور الخلفاء والامراء واهل الوجاهة • وليس الاستكثار منهن حادثاً في الاسلام وانما هو من بقايا التمدن القديم فقد كان ملوك الفرس والروم يتهادونهن وبلغت عدتهن عند بعض الاكاسرة ٦٠٠٠ جارية (٣) وكان لجماعة من بني العباس الف جارية وسيأتي بسط ذلك في مكان آخر

اصناف الجواري

فلما تعوّد الناس اقتناء الجواري اشتغل النخاسون في استجلابهنّ من اقصى بلاد الترك والهند والكرج والخطا وارمينيا والروم والبربر والنوبة والزنج والحبشة صغاراً وكباراً يربونهنّ على ماتقتضيه مواهبهن او جمالهن فينبغ منهن الخدم والحواضن والمواشط والولائد والمغنيات والعوادات والعالمات وامهات الدهاء والسياسة وغير ذلك • وفيهن البيضاء والسمراء والحمراء والبربرية والزنجية بين مولدة في البصرة او الكوفة او بغداد ممن يفصحن العربية ومجلوبة من ارضها او سبية اخيذة على حالها تتكلم التركية او الفارسية او الرومية او الهندية او البربرية ولا تزال ولو تعربت اعجمية اللسان • والمولدة اثمن من الجليبة وتختلف اثمانهن باختلاف الصناعة او الجمال و باختلاف الغرض من ابتياعهن للتوليد او الغناء او الخدمة • وفي الجليبات النصرانية واليهودية والمجوسية لكل منهن شأنها في دينها حتى يعيدن اعيادهن بما يستلزمه العيد من الزينة الدينية كالصلبان والاحجبة ونحوها — ذكر احمد بن صدقة انه دخل على المأمون في يوم الشعانين و بين يديه عشرون وصيفة جلبا روميات مزنرات قد

(١) الاغاني ١٣٧ ج ١٦ (٢) المسعودي ٢٨٠ ج ٢

(٣) المسعودي ١١٥ ج ١ وترتيب الدول ١١١

تزينّ بالديباج الرومي وعلقن في اعناقهن صلبان الذهب وفي ايديهن الخوص والزيتون (١)

على انهم كانوا يختصون كل صنف من الجواري بصفات خاصة وقد صنفوا كتباً في هذا الموضوع بينوا فيها الصفات المستحسنة في كل صنف منهن وخلاصة ذلك قولهم : من اراد النجابة فبنات فارس ومن اراد الخدمة فبنات قيصر ومن اراد غير ذلك فبنات بربر والمولدات والزنجيات للزمر والحبشيات للحفظ وخزن المال والنوبة للطبخ والارمن للتربية والرضاع . ومن اقوالهم الوجوه في الترك والاجسام في الروم والشعور في الخطا وفارس والعيون في الحجاز والخصور في اليمن (٢) وقالوا في وصف المولدات بالبصرة والكوفة انهن ذوات الالسن العذبة والقدود المهفهفة والاوساط المخصرة والاصداغ المزرفنة والعيون المكحلة (٣) مما يطول شرحه . وكانت تجارة الجواري على اروجها في بغداد فكانوا يحملون اليها اجملهن خلقاً واذكاهنّ عقلاً لما يتوقعونه من بيعهن بالاثمان الباهظة

تعليم الجواري

وكان تعليم الجواري وتربيتهن من ابواب الكسب الواسعة في ذلك العصر فيذهب احدهم الى دار الرقيق يبتاع جارية يتوسم فيها الذكاء فيثقفها ويرويها الاشعار او يلقنها الغناء او يحفظها القرآن او يعلمها الادب او النحو او العروض او فناً من فنون المنازل ثم يبيعها . وكان يفعل ذلك على الخصوص المغنون المشهورون بدقة الصناعة كابراهيم الموصلي وابنه اسحق فربما ابتاع احدهم الجارية بمئة دينار فاذا علمها وثقفها باعها بخمسمائة او الف دينار (٤) واشهر المغنيات في المدينة والبصرة وبغداد تعلمن على هذه الصورة . وقد يربي بعضهم الجارية ويهديها الى الخليفة او الوزير لتكون وسيلة له في نفوذ الكلمة عنده . وقد تنبغ احداهن في فن من الفنون الجميلة كالغناء او الشعر او الادب فتباع بالوف الدنانير (٥) . فكيف اذا اتقنت غير فن منها . وربما نبغت منهن من تجيد الشعر والغناء او فنون الادب والاخبار فيقصدها اهل الادب وذوو المروأة للمذاكرة والمساجلة في الشعر وغيره وقد ينبغن في حفظ القرآن حتى كان منهنّ عند ام جعفر مئة جارية لكل واحدة ورد عشر القرآن وكان يسمع في قصرها كدوي النحل من القراءة (٦)

---

(١) الاغاني ١٣٨ ج ١٩ (٢) ترتيب الدول ١١٢ (٣) المسعودي ١٥٤ ج ٢
(٤) الاغاني ١٥٤ ج ٨ (٥) الجزء الثاني من هذا الكتاب صفحة ١٣٦
(٦) ابن خلكان ١٩٠ ج ١

فتعدّد الجواري في دور الكبراء وتسابق اهل الترف الى التفنن في تزيينهن . واشهر من فعل ذلك ام جعفر المذكورة فانها لما رأت ابنها يغالي في تخنيث الغلمان والباسهم ملابس النساء اتخذت طائفة من الجواري سمتهنّ المقدودات عممت رؤوسهن وجعلت لهن الطرر والاصداغ والاقفية وألبستهن الاقبية والقراطق والمناطق كانهن من الغلمان واقتدى بها وجيهات قومها فاتخذن الجواري الغلاميات او المطمومات وألبسوهن الاقبية والمناطق الذهب (١)

نفوذ الجواري

وطبيعي في ربات الحسن ان يكنّ نافذات الكلمة لان الجمال قوة والحب سلاح ولذلك كان ارباب الدهاء من الخلفاء والامراء يتباعدون عن الجواري اذا اهدي الى احدهم جارية لم يلتفت اليها ولا سيما مؤسسي الدول كمعاوية والمنصور وعبدالرحمن الداخل . فاشتهر المنصور بكرهه للهو وكان عبد الرحمن اذا اهداه احدٌ جارية ردّها (٢) وعكس ذلك خلفاء اواسط الدولة ابان الترف والقصف والرخاء فانهم كانوا يتيّدون في حب الجواري حتى يتسلطن على عقولهم كما فعلت حبابه بيزيد بن عبد الملك الاموي حتى كادت تذهب بعقله وشغلته عن مهام الخلافة . وكما فعلت ذات الخال بالرشيد فانها ملكت قياده حتى حلف يوماً انها لا تسأل شيئاً في ذلك اليوم الاّ قضاه لها فسألته ان يولي حمويه الحرب والخراج بفارس سبع سنين ففعل وكتب لهُ عهده بهِ وشرط على ولي عهده بعده ان يتمها لهُ ان لم تتم في حياته (٣) كثيرًا ما كان الخلفاء والامراء يشتغلون بالجواري عن رعاية الملك ولا سيما المغنيات ولذلك كان رجال الحيلة يستخدمونهن للجاسوسية او نيل رتبة أو منصب وكان المأمون يدس الوصائف هدية ليطلعنه على اخبار من شاء (٤) و يزداد الجواري نفوذاً وسطوة اذا صرن أمهات كما صارت الخيزران وغيرها من امهات الخلفاء — راجع الجزء الثاني والرابع من هذا الكتاب وسيأتي الكلام على المغنيات في باب المغنين .

---

(١) المسعودي ٣٦٦ ج ٢ (٢) نفح الطيب ٧٠٩ ج ٢ (٣) الاغاني ٨٠ ج ١٥
(٤) العقد الفريد ١٤٨ ج ١

## طبقات العامة

فرغنا من طبقات الخاصة واتباعهم ونحن متكلمون عن العامة وهم اكثر عدداً وابعد عن الحصر لانهم لفيف من امم شتى ولا سيما في بغداد في ابان عمارتها وقد تقاطر اليها المرتزقون والمحترفون والمستجدون من اطراف المملكة الاسلامية بين صانع وبائع وفيهم العربي والنبطي والفارسي والخراساني والتركي والسندي والرومي والكرجي والارمني والكردي والقبطي والبربري والنوبي والزنجي والاندلسي وغيرهم . وفيهم اهل الحرف الراقية والسافلة وتجار السلع والاقمشة والجواهر والرقيق وباعة الطعام والشراب فضلاً عن الادباء والشعراء والحكماء والمغنين والندماء مما يطول شرحه ويعسر حصره . على اننا تسهيلاً للبحث نقسم العامة على الاجمال الى طبقتين كبيرتين الأُولى طبقة المقربين من الخاصة والثانية طبقة الباعة واهل الحرف والرعاع وغيرهم .

### الطبقة الأُولى

### المقربون من الخاصة

نريد بهذه الطبقة نخبة العامة الذين تسمو بهم نفوسهم اوعقولهم الى التقرب من الخاصة بما يعجبهم او يطربهم فيستظلون بهم ويعيشون من عطاياهم او رواتبهم او يرتزقون من بيع سلعهم عليهم وهم اربع فئات اهل الفنون الجميلة والادباء والتجار والصناع

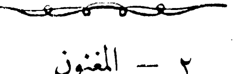
#### ١ — اهل الفنون الجميلة

المصورون

الفنون الجميلة ويسميها العرب « الآداب الرفيعة » ثلاثة التصوير والشعر والموسيقى . فالتصوير لم يكن له شأن كبير في التمدن الاسلامي لورود القول بتحريمه وانما كانوا يصورون ما يصورونه في الدولة الاموية والعباسية يقلدون بهِ ما بين ايديهم من تصوير الروم والفرس او ما جاء بهِ السلاجقة من صناعة المغول من اواسط تركستان . على ان التصوير ازهر وارتقى في بلاد فارس بعد اجتماع كلمة الفرس تحت سيطرة المغول على اثر فتح هولاكو بغداد سنة ٦٥٦ هـ فان تلك الصناعة اخذت بالارتقاء من ذلك الحين

لان المغول المشار اليهم اتوا معهم بمهندسين من اهل الصين تولوا هندسة حصار بغداد ومعهم جماعة من ارباب الفنون الجميلة والرياضيات والصناعات الدقيقة فاستفاد الفرس منهم واتقنوا هـذه الفنون وفي جملتها التصوير ونشروه في سائر ممالك المسلمين وزينوا به كتبهم وجدران قصورهم ومنسوجاتهم في بلاد فارس ومصر وتركستان وغيرها [1] وفي دور الكتب الكبرى في مدائن العالم المتمدن اليوم امثلة من هذه الصور ملونة تلوينـاً بديعاً اكثرها تمثل حوادث بعض كتب التاريخ او الادب او العلم . وبعضها تمثل رسوماً خيالية كصورة المعراج ونحوها . ففي دار الكتب الخديوية بالقاهرة صور ملونة هي عبارة عن اشكال زينوا بها كتاب الشاهنامه للفردوسي وعجائب المخلوقات للقزويني وغيرهما . اما في ابان التمدن الاسلامي فلم يكن لاهل هذه الصناعة سوق عند الخاصة الا من اشتغل منهم بهندسة الابنية ولا سيما في الاندلس

واما الشعر والموسيقى فقد راجا وتقرب اصحابهما من الخلفاء وسائر طبقات الخاصة واكتسبوا بهما الاموال الطائلة . وقد بينّا في الجزء الثالث من هذا الكتاب ما هو الشعر العربي وما اصلهُ وما كان شأنه في الجاهلية وما آل اليهِ بعد الاسلام من عصر الراشدين فالامويين فالعباسيين وسائر دول الاسلام وعن جمع الشعر ورواته وطبقات الشعراء في الاسلام واشعارهم والشعر تأثيره في الدولة والشعر والخلفاء والامراء وغير ذلك — وسيأتي الكلام عما كان الشعراء يصيبونه من الاموال — بقي علينا النظر في الموسيقى واهلها وهم المغنون



## ٢ — المغنون

### الغناء قبل الاسلام

الغناء طبيعي في الامم لانه لغة النفوس وترجمان العواطف وكل امة غناؤها يناسب طبائعها وعاداتها فالعرب الجاهلية كانوا اهل ماشية وانعام وخيام فلم ينتبهوا الى شيء من الفنون الجميلة غير الشعر . وكانوا يلهجون به ويطربون بتلاوته بلا ترنيم ولا غناء وتلك اول خطوة خطوها نحو الموسيقى لانها بنت الشعر او أخته

ثم ظهر فيهم « الحداء » وهو غناء يتغناه الحداة في سوق ابلهم والفتيان في فضاء خلواتهم ثم عمدوا الى « الترنيم » . وكان ترنيمهم على نوعين « الغناء » وهو ترنيم الشعر

(1) Revue Arch. Les Ecoles de Peinture en Perse 1905 II

و « التغبير » ( بالغين والباء ) وهو ترنيم القراءة لغير الشعر

ثم تنوع الغناء عندهم حتى صار على ثلاثة اوجه او ثلاثة الحان او اصوات وهي النصب والسناد والهزج . « فالنصب » يريدون به غناء الركبان وغناء الفتيان وهو الذي يقال في المراثي ويسمى « الغناء الجنابي » نسبة الى رجل من قبيلة كلب اسمه جناب بن عبد الله يزعمون ان اصل الحداء منه وهو يخرج من الطويل في العروض . و « السناد » اللحن الثقيل ذو الترجيع الكثير النغمات والنبرات . وهو على ستة طرق منها الثقيل الاول وخفيفه والثقيل الثاني وخفيفه . واما « الهزج » فهو الخفيف الذي يرقص عليه ويمشي بالدف والمزمار فيطرب ويستخف الحلوم . وشاع الغناء قبل الاسلام في أمهات المدن من بلاد العرب وهي المدينة والطائف وخيبر (١)

اما آلات الموسيقى عندهم فاشهرها الدف وهو اشكال منها المستدير والمربع والكبير والصغير . والمزمار على ابسط انواعه . ولا يظهر انهم كانوا يعرفون غير الدف والمزمار و ما يتفرع عنهما من آلات النفخ والقرع . واما آلات الاوتار كالعيدان والطنابير والمعازف ونحوها فهي من صناعة الفرس والروم لم يعرفها العرب الاَّ بعد الاسلام

الغناء في الاسلام

فلما جاء الاسلام واستولى العرب على ممالك الدنيا وحازوا سلطان العجم والروم كانوا في عصر الراشدين لا يزالون على بداوتهم مع غضارة الدين وشدته مما يدعو الى ترك احوال الفراغ وما ليس نافعاً في دين ولا معاش حتى تركوا ما كان عندهم من انغام الجاهلية ولم يكن الملذوذ عندهم الاَّ ترجيع القراءة والترنم بالشعر . فلما جاءهم الترف في ايام بني امية ومن بعدهم وغلب عليهم الرفه بما حصل لهم من غنائم الامم صاروا الى نضارة العيش ورقة الحاشية واستحلاء الفراغ . وكان المغنون من الروم والفرس قد دخلوا في سلطان العرب وحمل بعضهم الى الحجاز في جملة الاسرى او السبايا فأصبحوا من موالي العرب وقد حملوا معهم العيدان والطنابير والمعازف والمزامير فغنوا بها فاعجبوا بالحانهم فاشتغل المغنون واكثرهم من الموالي في تلحين اشعار العرب على الالحان الفارسية او الرومية فنبغ في المدينة في ايام بني امية طائفة من المغنين . والمشهور ان اول من ادخل غناء الفرس الى العربية سعيد بن مسجح وهو مكي اسود كان في مكة لما حاصرها الامويون وفيها ابن الزبير في اواخر القرن الاول للهجرة فاستقدم ابن الزبير بعض البنائين من الفرس لترميم الكعبة فسمعهم سعيد بن مسجح يغنون

(١) العقد الفريد ١٨٦ ج ٣

بالفارسية فالتقط النغم وغناه بالعربية فاعجب الناس كثيراً فسافر الى الشام وفارس فاتقن فن الغناء وعنهُ اخذ من جاء بعده من مغني المدينة وغيرها . وشاع الغناء في المملكة الاسلامية وراجت بضاعتهُ باتساع اسباب الحضارة والرخاء وتكاثر المغنون لما شاهدوه من رغبة الخاصة بالغناء فنبغ جماعة من مهرة الموسيقيين اتقنوا هذه الصناعة وآلاتها اتقاناً حسناً على ما بيَّناه في الجزء الثالث من هذا الكتاب صفحة ١٩٧ وانما يهمنا الآن النظر في تاريخ انتشار المغنين في الاسلام وما كان من منزلته ومنزلتهم

الغناء والدين

كان الغناء في صدر الاسلام مكروهاً ان لم نقل محرماً واختلف الائمة في تحريه وتحليله كله او بعضه . ويقال بالاجمال ان اهل الحجاز اجازوه واهل العراق كرهوه وحجة من احلَّهُ ان اصله الشعر الذي امر النبي بهِ وحضَّ عليه وندب اصحابه اليهِ وتجند بهِ على المشركين فقال لحسان شاعره « شن الغارة على بني عبد مناف فوالله لشعرك اشد عليهم من وقع السهام في غلس الظلام » واكثر شعر حسان يغنى بهِ . وحجة من حرمهُ انهُ يسعر القلوب ويستفز العقول ويستخف الحليم ويبعث على اللهو ويحض على الطرب وهو باطل من اصله (١) وحلل آخرون بعض الغناء وحرموا بعضهُ ولكن اهل التعقل والتقوى كانوا يكرهونهُ في كل حال ولذلك لم يظهر الاَّ بعد عصر الراشدين . وكان معاوية بن ابي سفيان يعيب على الراغبين في الغناء ولا سيما اهل الوجاهة والشرف ولهُ مع عبد الله بن جعفر حكاية تدلُّ على ما عابه عليه من استماع الغناء (٢) وان سرَّه اشتغال هذا وسواه من اهل النبي باللهو والطرب عن مقاومته في طلب الخلافة — بل هو كان يبذل لهم الاموال في هذا السبيل

ولما تولى الخلافة اصحاب اللهو والقصف اخذ الغناء في الانتشار واول من اباحهُ ونشط اهلهُ يزيد بن معاوية ففي ايام يزيد هذا ( سنة ٦٠ — ٦٤ ﻫ ) ظهر الغناء في مكة واستعملت الملاهي لانهُ كان صاحب لهو وطرب (٣) وتفشى الغناء الجديد في الحجاز ولا سيما المدينة . وما زال محصوراً فيها تقريباً حتى افضت الخلافة الى الوليد بن يزيد بن عبد الملك ( سنة ١٢٥ — ١٢٦ ﻫ ) وكان صاحب شراب ولهو مع تهتك وخلاعة فبعث الى

---

(١) العقد الفريد ١٧٨ ج ٣ (٢) العقد الفريد ١٨٢ ج ٣
(٣) المسعودي ٦٨ ج ٢

المدينة في استقدام المغنين اليهِ في دمشق [١] فأخذ الغناء بالانتشار في بلاد الاسلام من ذلك الحين

مقاومة الخلفاء للغناء

على ان اهل التعقل من الخلفاء او الامراء كانوا لا ينفكون عن منعه جهد طاقتهم وكان العقلاء غير الحكام يحرضون الولاة على منعه حتى في المدينة معدن الغناء في ذلك العصر [٢] وكثيرًا ما كان امير مكة يخرج المغنين من الحرم خوفًا من افتتان الناس بغنائهم [٣] وصرفهم عن امور دينهم ولم يكن اهل الغيرة على العرض يصبرون على سماعه ومن اقوالهم « المغنون رسل الغرام »

ذكروا ان سليمان بن عبد الملك وكان يكره الغناء سمع مغنيًا في عسكره فطلبهُ فجاؤُوه به فقال « اعد ما غنيت » فتغنى واحتفل فقال سليمان « والله لكأنها جرجرة الفحل في الشول وما احسب انثى تسمع هذا الاّ صبت اليهِ » ثم امر بهِ فخصي [٤]

وسليمان هو الذي امر بخصي المخنثين في المدينة لمثل هذا السبب — قيل انهُ كان في بادية له يسمر ليلةً على ظهر سطح وقد تفرق عنهُ جلساؤُهُ فدعا بوضوءٍ فجاءَت بهِ جارية فبينما هي تصبُّ عليهِ لحظ ان ذهنها مشتغل عنه بغناءٍ تسمعه فتجاهل . وفي الصباح ذكر الغناء ولين فيه حتى ظن القوم انهُ يشتهيه فأفاضوا فيه وذكروا من كان يسمعه ومن يغنيه حتى توصل الى الرجل الذي شُغلت الجارية بغنائهِ في الامس . فلما تحقق ذلك اقبل على القوم وقال « هدر الجمل فضبعت الناقة ونبّ التيس فشكرت الشاة وهدر الحمام فزافت الحمامة وغنى الرجل فطربت المرأة » ثم امر بهِ فخصي وسأل عن الغناء اين اصلهُ فقيل « في المدينة بجماعة المخنثين وهم ائمتهُ والحذاق فيهِ » فكتب الى عامله هناك « اخصِ من قبلك من المخنثين المغنين » فخصاهم [٥]

على ان المتهتكين من الخلفاء والامراء لم ينكروا ما يجرُّ اليه الغناء من اسباب اللهو قال الوليد بن يزيد الذي ذكرنا انه اول من استقدم المغنين اليهِ « اياكم والغناء فانه ينقص الحياء ويزيد في الشهوة ويهدم المروأة ويثور على الخمر ويفعل ما يفعل المسكر فان كنتم فاعلين فجنبوه النساء فان الغناء رقية الزنا واني لأقول ذلك فيهِ على انه احبُّ اليَّ من كل

---

(١) العقد الفريد ٢٦٩ ج ٢ والمسعودي ١٣٣ ج ٢ (٢) العقد الفريد ١٩٦ ج ٣
(٣) الأغاني ١٣٠ ج ٢ (٤) الكامل للمبرد ٣٧٧ (٥) الاغاني ٦١ ج ٤

لذة واشهى اليّ من الماء البارد الى ذي الغلة ولكن الحق احق ان يقال »[1]

فكيف بالعقلاء واهل الحزم ومؤسسي الدول او معيديها مثل معاوية وهشام والمنصور وابي مسلم او اهل التقوي مثل عمر بن عبد العزيز الاموي والمهتدي العباسي · فقد تقدم ما عابه معاوية على ابن جعفر · اما هشام فسمع عن اشعب المضحك في المدينة فامر كاتبه ان يكتب باستقدامه فلما ختم الكتاب اطرق هشام طويلاً ثم قال « هشام يكتب الى بلد رسول الله ليحمل اليهِ مضحك ؟ » وتمثل

اذا انت طاوعت الهوى قادك الهوى الى بعض ما فيه عليك مقالُ

واوقف الكتاب[2] · واما المنصور فقد كان يعير آل الزبير بحبهم الغناء[3] وسمع ذات يوم ضرب طنبور في داره فكسره على صاحبهِ · اما عمر بن عبد العزيز فبلغهُ ان قاضياً من قضاته استخفهُ الطرب من الغناء فامر بعزله[4] · والمهتدي العباسي كان يتشبه بعمر المذكور فلما تولى الخلافة سنة ٢٥٥ هـ كانت الملاهي قد انتشرت في الدولة العباسية فامر بمنع الغناء[5] وربما امتنعوا عنه الى اجل ريثما يصفو لهم الزمان كما فعل المأمون لما عاد من خراسان وقد همه تأييد خلافته فبقي عشرين شهرًا لا يسمع غناء[6] وكذلك الامراء العقلاء مثل خالد القسري فانه امر صاحب شرطته بمنع الغناء من العراق[7]

اشتغال الخلفاء بالغناء

ولكن ذلك لم يكن ليمنع تيار الترف من مجراه الطبيعي على ما اقتضته الحضارة في ذلك العهد · فالمسلمون لما تحضروا وأخلدوا الى السكينة والراحة عمدوا الى اسباب الرخاء وفي جملتها الغناء والمرجع في ذلك الى الخلفاء والامراء لان الناس على دين ملوكهم ولا سيما في الحكم المطلق فاذا احب الخليفة الغناء احبه رجال دولته · فراجت بضاعتهُ وكثر المغنون والمغنيات حتى اشتغل الخلفاء واهلهم بهِ وتعلموا الضرب على آلاته واول من دونت صنعته بهِ عمر بن عبد العزيز في ايام امارته على الحجاز ثم الوليد بن يزيد ولهُ اصوات اشتهرت عندهم واشتغل جماعة من خلفاء بني العباس بصناعة الالحان والتلحين اشهرهم الواثق والمنتصر والمعتز والمعتمد والمعتضد · اما ابناء الخلفاء فأول من دونت صنعتهُ فيهِ ابراهيم بن المهدي واختهُ علية بنت المهدي وابو عيسى بن الرشيد وعبد الله بن موسى الهادي وعبد

(١) الاغاني ١٣٤ ج ٦ (٢) المسعودي ١٣١ ج ٢ (٣) الاغاني ١١٥ ج ١٣

(٤) المسعودي ١٢٢ ج ٢ (٥) فوات الوفيات ٣٧١ ج ٢

(٦) الاغاني ١٠٦ ج ٥ (٧) الاغاني ١٢٣ ج ٢ و ٦٣ ج ١٩

الله بن محمد الامين وابو عيسى بن المتوكل وعبد الله بن المعتز وغيرهم . فقس على ذلك ما كان في زمن بني امية ولا سيما في عصر الانحطاط حتى كانوا يحملون المغنين والآلاتهم في اسفارهم ولو الى القتال فقد وجدوا في معسكرهم لما ظفر به العباسيون بنواحي اصبهان سنة ١٣١ هـ ما لا يحصى من البرابط والطنابير والمزامير (١)

فالغناء المطرب من جملة ما اقتبسه المسلمون من البلاد التي فتحوها فاشتغلوا بنقل كتب الموسيقي من الفارسية والهندية (٢) وحملهم الترف على سماعه والولوع به فتقرب به اليهم جماعة من العامة صار لهم مقام رفيع بين الجلساء — وسنعود الى ذكرهم

## ٣ — العلماء والادباء والفقهاء

هم طائفة من العامة تقربوا الى الخلفاء بما يلذ لهم من سماع الاخبار والنوادر او النظر في علوم تلك الايام الدينية او اللسانية او الادبية او التاريخية . ويدخل في ذلك الفقهاء والمحدثون والنحاة والادباء من اصحاب الاخبار كالاصمعي وابي عبيدة والكسائي والفراء وغيرهم وكان للخلفاء رغبة في مجالستهم وسماع ابحاثهم فكانوا يقربونهم و يعظمون شأنهم و يجيزونهم و يفرضون لهم الاعطية والرواتب على ما سنبينه في باب ابهة الدولة . وقد تكلمنا عن الفقهاء ومنزلتهم في اماكن كثيرة من هذا الكتاب

واقتدى بالخلفاء وزراؤهم وامراؤهم كالبرامكة وآل الفرات فانهم اغدقوا الاموال على هؤلاء فنشطوا العلم واهله ربما صار العلم صناعة يرتزق بها اصحابها من الناس . ويدخل في ما تقدم المترجمون من غير المسلمين وفيهم السريان والروم والفرس وغيرهم ممن نقل العلوم القديمة الى اللغة العربية في العصر العباسي فانهم فئة من اهل الذمة قربهم الخلفاء واكرموهم من اجل علمهم على ما فصلناه في الجزء الثالث من هذا الكتاب

## ٤ — التجار

نريد بالتجار باعة السلع الثمينة التي تقتضيها الحضارة كالمجوهرات والمصوغات والرياش الثمين والثياب الفاخرة والآنية والرقيق . واكثر ارتزاقهم من الخليفة واهله واهل دولته وسائر الخاصة من جلسائه واعوانه . وكانوا يقيمون في بغداد والبصرة وغيرهما من المدن

---

(١) ابن الاثير ١٩٠ ج ٥ (٢) الجزء الثالث ١٩٨

الاسلامية واكثرهم من جالية الفرس والروم وغيرهم من الامم الراقية · كانوا يحملون الى دار السلام اصناف التجارة للارتزاق مما يتدفق من خزائن الدولة في عصر الثروة

فكانوا يحملون الياقوت والماس من بلاد الهند واللؤلؤ من البحرين والعقيق والعاج من الحبشة · والادهان والزيوت العطرية من نيسابور ونسيج الكتان من شينيز · وطراز الوشي والثياب المنسوجة من الشعر التي يصنع منها ثياب مثقالية يلبسها الخليفة ورجال الدولة والكلل المرتفعة والستور المعلمة من القز — هذه كلها من فسا · والبسط والنخناخ والمصليات والزلالي من جهرم · والستور والمقاعد من دشت · واحسن اصناف البسط والتكك الرفيعة والوسائد والانماط والمقاعد من ارمينية · وكان لهم صبغ من القرمز يصبغون به الصوف لا مثيل له · والعنابي والوشي وسائر ثياب الحرير من اصفهان · والثياب المنيرة من الري · والابريسم ومطارف القز وطباق الخشب من طبرستان ونيسابور · والسمور الاسود وجلود الخز وجلود الثعالب السود من بلاد الروس · والبز من بلخ · والكاغد والنوشادر والاوبار والسمور والسنجاب والثعالب من وراء النهر وكذلك المسك ولكن اصله من بلاد التبت · والبسط والمصليات وثياب الصوف من بخارا · والديبقي من تنيس ودمياط · والستور والبسط المصرية من البهنسا · والطيالسة المقورة الرفيعة من كرمان · والحصر والقباطي والقراطيس من مصر · والمناديل الديلمية البيضاء المعلمة من قومس — ربما بلغ ثمن المنديل منها ٢,٠٠٠ درهم · والمقانع القزيات من جرجان والسوس · والبرود المنيرة والقصاع والامشاط من الري · والاكسية والجوارب من قزوين · والخفاف والسمور من همدان · والزجاج والخزف من البصرة · والحصر من عبادان · والديباج والانماط من تستر والجلود المدبوغة من الحبشة بطريق اليمن · والمسك والكافور والعود من الصين

اما الرقيق فابيضه كان يحمل من وراء النهر واصله من الصقالبة او من الخزر الاتراك من بادية تركستان واحسنهم يربى في سمرقند وخوارزم ثم يحمل الى بلاد الاسلام · ويحمل الرقيق الابيض ايضاً من الاندلس وفيه الجواري والغلمان واصلهم من سبي الافرنج وجليقية او من الصقالبة كما تقدم · ومن الرقيق الابيض صنف كان يرد من خراسان غال جداً ربما بيع الغلام منه بخمسة آلاف دينار · اما الرقيق الاسود فكل ما يحمل منه الى بلاد الاسلام من السودان بطريق مصر او بلاد المغرب

وكان لهذه التجارات قوافل أو سفن تنقلها من الشرق والغرب والشمال والجنوب وتبيعها في اسواق بغداد وغيرها من المدن الاسلامية · واكثر الناس اشتغالاً بنقلها في البرطائفة

من التجار اليهود الراذانية كانوا يتقنون اللغات الرائجة في ذلك العصر وهي العربية والفارسية والرومية والافرنجية والاندلسية والصقلبية و يسافرون بين الاقاليم العامرة يحملون التجارات من اقليم الى آخر [1] كما كان الفينيقيون في ابان دولتهم

اما التجارة البحرية فاشتهر اصحابها السيرافيون فقد كانوا يحملون الجواهر والعاج والابنوس والفلفل والصندل والعود والعنبر والكافور وسائر الاطياب والعقاقير والتوابل من الهند والصين وشواطيء افريقيا وجزائر الهند واليمن وغيرها الى البصرة فبغداد [2]

فكان التجار يفدون على دار السلام بهذه التجارات فيبيعونها بالاثمان الفاحشة ٠ و يدخل في هذه الطبقة من الناس الصيارف واكثرهم من اليهود وكانوا يقرضون رجال الدولة المال بالربا الفاحش ٠ اشتهر منهم في بغداد مصارف كبرى كانت مكاسبهم موقوفة على الدولة ورجالها كآل فنخاس وآل عمران وغيرهم

تجار المسلمين

فلما نضج التمدن الاسلامي واشتغل المسلمون انفسهم بالتجارة لم يقصروا في شيء من شروطها واتقنوها علماً وعملاً حتى الفوا الكتب فيها وفي الاقتصاد السياسي ٠ و بين يدينا نسخة من كتاب « الاشارة الى محاسن التجارة » للشيخ ابي الفضل جعفر بن علي الدمشقي من اهل القرن الخامس للهجرة فيه فوائد اقتصادية لم يسبقه احد اليها وابحاث في معنى النقود والسلع والمال الصامت والاعراض وتحقيق اثمان الاشياء ما لا تقلُّ قيمتهُ عما بلغ اليه علماء الاقتصاد في هذا العصر — يدلّ ذلك على ما بلغ اليه المسلمون من الرقي في علم التجارة ناهيك باهل الرحلة منهم الى اطراف المعمور في ذلك العصر فقد طافوا العالم برًّا و بحرًا من القرن الرابع للهجرة ودونوا رحلاتهم تسهيلاً لاسباب التجارة واكتشفوا طرقًا تجارية في البحر المحيط والبحر الهندي والاحمر وفي اواسط افريقيا واسيا لم يسبقهم اليها احد

اما الاسفار التجارية فقد كانوا فيها سلاطين البحار فمخرت سفنهم البحر الابيض على كل شواطئه والبحر الاحمر الى آخره والبحر المحيط الى سومطرا فزنجبار الى بلاد الكفرة وشرقًا الى كلكتة وجزائر الهند والصين وجنوبًا الى مداغسكر وسائر شواطيء افريقيا الشرقية واجتازوا بحر قزوين الى بلاد الخزر والروس ٠ أما برًّا فاخترقوا بلاد الهند وتركستان والتبت حتى نزلوا بلاد الصين ٠ واوغلوا في افريقيا الى خط الاستواء فقربوا الابعاد بين تلك الاصقاع المتباعدة

(١) ابن خرداذبة ١٥٣ (٢) الاصطخري والمسعودي

فكان التجار المسلمون حوالي القرن الرابع للهجرة يجوبون الاقطار براً و بحرا ينقلون التجارة من بلد الى بلد بين شواطيء فارس وسواحل افريقيا والحبشة واليمن وسواحل الهند والصين وسائر المشرق . و يقطعون صحاري خراسان وتركستان وارمينية وافغانستان والهند والشام ومصر والسودان وافريقية والاندلس في نقل اصناف التجارة كأنهم هم وحدهم تجار الارض . ومركز تجارة الشرق البصرة بحرًا و بغداد براً . واشتهر من تجار المسلمين ممن كانوا يخترقون البحار في القرن الرابع للهجرة السيرافيون الذين تقدم ذكرهم والعمانيون وكانت سفنهم التجارية تجوب بحار الصين والهند والزنج واليمن والقلزم وقد عرفهم المسعودي وذكرهم في تاريخه (١)

ثروة التجار

وقد استغرقنا في الكلام على التجارة — وجملة القول ان التجارة العليا كانت من ابواب الرزق الواسعة في ذلك العصر لاصحاب المواهب التجارية ولمن يخدمهم التوفيق و يتقربون من البلاط اوبعض اهله . فظهر في عهد ذلك التمدن بيوتات تجارية جمعت الاموال حتى تجاوزت ثروتها الملايين من الدنانير . وفيهم جماعة من عامة الناس يوصفون بالغفلة نجد منهم حظهم حتى ارتقوا الى طبقة الخاصة وجمعوا الاموال الطائلة كآل الجصاص تجار الجواهر وقد اشتهروا في العصر العباسي مثل شهرة آل روتشيلد في القرن الماضي وروكفلر الاميركاني في هذا القرن واول من اثرى منهم الحسن بن عبد الله وقد قصّ هو نفسه توصله الى الثروة فقال :

« كان بدء يساري أني كنت في دهليز ابي الجيش خمارويه بن احمد بن طولون بمصر وكنت وكيله في ابتياع الجوهر وغيره مما يحتاجون اليه وما كنت افارق الدهليز لاختصاصي به نخرجت اليّ قهرمانة لهم في بعض الايام ومعها عقدجوهر فيه مائة حبة لم أر قبله ولا بعده أنفر ولا احسن منه كل حبة منه تساوي مائة الف دينار وقالت يحتاج ان تخرط هذه حتى تصغر فتجعل في آذان اللعب وفي قلائدها . فكدت اطير واخذتها وقلت السمع والطاعة وخرجت في الحال مسرورًا وجمعت التجار ولم ازل اشتري كل ما قدرت عليه الى ان جمعت مائة حبة اشكالاً من النوع الذي طلبته وارادته وجئت عشياً وقلت ان خرط هذا يحتاج الى انتظار وزمان وقد خرطت اليوم ما قدرنا عليه وهو هذا ودفعت اليها المجتمع وقلت الباقي يخرط في ايام فقنعت بذلك واعجبها الحب نخرجت وما زلت اياماً في طلب الباقي حتى

(١) المسعودي ٥٤ ج ١

اجتمع فحملته اليها وقامت عليَّ المائة حبة بدون المائة الف درهم واخذت منهم جوهراً بمائتي الف الف دينار ثم لزمت دهليزهم واخذت لي غرفة كانت فيه فجعلتها مسكني وكان يلحقني من هذا اكثر مما يحصى حتى كثرت النعمة وانتهيت الى ما استفاض خبره » (١)

وكان لابن الجصاص بيت كبيرٌ في بغداد لبيع المجوهرات فلما كانت النكبات والمصادرات على عهد المقتدر بالله العباسي في اوائل القرن الرابع للهجرة كان ابن الجصاص في جملة الذين صودروا وسبب ذلك ان عبدالله بن المعتز لما بويع بالخلافة ثم انحل امره وتفرَّق رجاله وطلبه المقتدر اختفى عند ابن الجصاص المذكور فوشى بهِ خادم فصادره المقتدر بالله على ١٦,٠٠٠,٠٠٠ دينار وبقي لهُ شيءٌ كثير من الدور والقماش والاموال والضياع وغيرها . ويقال مع ذلك انهُ كان احمق ابله — فاعتبر مقدار ما كان يصل الى التجار اهل النباهة والدهاء

وقس على ذلك ثروة تجار الفرش والاثاث ولا سيما في البصرة فقد اشتهر فيها جماعة من اهل اليسار واكثر غناهم من تجارة البحر فقد كانت سفن بعضهم تعد بالمئات وتحمل بها التجارة الى انحاء العالم — ذكروا واحداً منهم اسمه الشريف عمر كان دخلهُ ٢,٥٠٠,٠٠٠ درهم في السنة (٢) وبلغت ثروة صاحب مراكب في البصرة ٢٠,٠٠٠,٠٠٠ دينار (٣) . ومنهم رجل اسمه احمد بن عمار كان طحاناً بالبصرة فاصعد الى بغداد في ايام المعتصم فاتسعت حاله حتى صار يخرج من الصدقة كل يوم مائة دينار . فاذا اعتبرتها عشر ماله كان دخلهُ الف دينار في اليوم واستوزرهُ المعتصم لامانتهِ ولكنهُ كان جاهلاً (٤)



## ٥ — الصناع

اما الصناعة فقد اخذوا منها بنصيب كبير لانهم كما برعوا بالاتجار في السلع برعوا ايضاً باصطناعها وارتقت الصناعة عندهم بتوالي الاجيال حتى فاقوا في بعضها البلاد الأُخرى وامتازوا بصناعات خاصة بهم . فهم الذين نشروا السكر في العالم نقلوه من مواطنه في الهند الى بلاد فارس وانشأوا لهُ المعامل واستخرجوا منه اصنافاً لم يكن لها مثيل (٥) وهم اتقنوا صناعة

---

(١) فوات الوفيات ١٣٨ ج ١ (٢) ابن الاثير ٢٠ ج ٩
(٣) ابن حوقل ١٩٨ (٤) الفخري ٢١٣ (٥) Encycl. Brit. article Sugar

الورق ونشروها في العالم وعنهم اخذها اهل اوربا بطريق الاندلس [1] وقد امتازت بعض مدن الاندلس بصناعات كانت تفاخر بها صنائع المشرق فكانوا يصطنعون في مرسية وشيًا مذهبًا في غاية الاتقان وفيها ايضًا معمل للبسط لم يكن له نظير وآخر للاسرة المرصعة . وكان في بالقة معامل للزجاج الغريب ونخار مزيج مذهب ونوع من الفسيفساء المفضضة على شكل خاص ولهم اختراع في صناعة الزجاج يؤثرونه لهم فذكروا ان اول من استنبط صناعة الزجاج من الحجارة عباس بن فرناس حكيم الاندلس [2] واخترعوا البارود للبنادق على ما بيّناه في الجزء الاول من هذا الكتاب

ولهم في الميكانيكيات صنائع حسنة كالساعة التي اشتهرت في جامع دمشق وذكرها ابن جبير في رحلته بالقرن السادس للهجرة — وهاك ما قالهُ في وصفها على ما شاهدهُ بعينه :

« وعن يمين الخارج من باب جيرون جدار البلاط الذي امامه غرفة لها هيئة طاق كبير مستدير فيه طيقان صفر قد فتحت ابوابًا صغارًا على عدد ساعات النهار ودبرت تدبيرًا هندسيًّا . فعند انقضاء ساعة من النهار تسقط صنجتان من صفر من فمي بازين مصوّرين من صفر قائمين على طاستين من صفر تحت كل واحد منهما احدهما تحت اول باب من تلك الابواب والثاني تحت آخرها . والطاستان مثقوبتان فعند وقوع البندقتين فيهما تعودان داخل الجدار الى الغرفة وتبصر البازين يمدان اعناقهما بالبندقتين الى الطاستين ويقذفانهما بسرعة بتدبير عجيب تتخيله الاوهام سحرًا . وعند وقوع البندقتين في الطاستين يسمع لهما دوي و ينغلق الباب الذي هو لتلك الساعة للحين بلوح من الصفر لا يزال كذلك عند كل انقضاء ساعة من النهار حتى تنغلق الابواب كلها وتنقضي الساعات ثم تعود الى حالها الاول . ولها بالليل تدبير آخر وذلك ان في القوس المنعطفة على الطيقان المذكورة اثنتي عشرة دائرة من النحاس مخرَّمة تعترض في كل دائرة زجاجة من داخل الجدار في الغرفة يدير ذلك كله منها خلف الطيقان المذكورة وخلف الزجاجة مصباح يدور به الماء على ترتيب مقدار الساعة فاذا انقضت عمَّ الزجاجة ضوء المصباح وفاض على الدائرة امامها شعاع فلاحت للابصار دائرة محمرّة ثم انتقل ذلك الى الاخرى حتى تنقضي ساعات الليل وتحمرّ الدوائر كلها وقد وُكل بها في الغرفة متفقد لحالها دَرِبٌ بشانها وانتقالها يعيد فتح الابواب وصرف الصنج الى مواضعها » اه [3]

---

(١) الجزء الأول ٢٠٠ (٢) نفح الطيب ٨٧٣ ج ٢

(٣) رحلة ابن جبير ٢٧١

وقس على ذلك كثيرًا من الآلات المائية وغير المائية المركبة من البكر والأكر والانابيب والامخال وغيرها للرفع والجر والنقل ولهم فيها مؤلفات طوى الزمان بعضها واكثرها مأخوذ في اصله عن اليونانية ككتاب «الحيل الروحانية ومخانيقا الماء» لفيلون البيزانطي وكتاب «رفع الاشياء الثقيلة» لهيرون الاسكندري نقلهُ الى العربية قسطا بن لوقا البعلبكي . وغيرهما مما نقلهُ الافرنج الى اللاتينية في نهضتهم الأخيرة وفقدت ترجمته العربية كما فقد اصلهُ اليوناني قبلهُ . وفي هذه الكتب كثير من الرسوم الموضحة لحركة تلك الآلات وقوتها (١)

واشتغل المسلمون في هذه الفنون وألفوا فيها الكتب من عند انفسهم . وقد وقفنا على مؤلف خطي في الآلات الروحانية اطلعنا عليهِ صديقنا الشيخ شبلي النعماني العالم الهندي الشهير وهو تأليف «رئيس الاعمال بديع الزمان ابو العز بن اسماعيل بن الرزار الجزري» في اسباب الحيل والحركات الروحانيــة والآلات المتخــذة للساعات المستوية والزمانية ونقل الاجسام بالاجسام من المقدمات الطبيعية — الفه لابي الفتح محمود بن محمد بن قزل ارسلان من آل ارتق في أواخر القرن السادس للهجرة فيه رسومٌ ملوّنة تمثل الآلات الضاغطة والرافعة والناقلة والمتحركة حركات خفية . و بينها رسم يشبه ما وصفهُ ابن جبير عن ساعة دمشق — فيدلُّ هذا وغيره على ما بلغ اليهِ المسلمون من اتقان فن الميكانيكيات مما يحتاج في وصفهِ الى كتاب برأسهِ

## الطبقة الثانية من العامة

نريد بهذه الطبقة سائر من بقي من الامة وهم السواد الاعظم وفيهم الزارع والصانع والعيار والشاطر واللص والمخنث والصعلوك وغيرهم مما لا يحصى . ولسهولة الاحاطة بهم نقسمهم الى قسمين اهل القرى وهم المزارعون واهل المدن وهم الصناع والباعة والرعاع

### ١ — المزارعون اهل القرى

فالمزارعون او الاكرة منهم يتألف معظم سكان المملكة وهم اصل ثروتها واكثرهم من اهل الذمة يقيمون في القرى الأمن اسلم منهم فينزل في المدن . وكانوا يتكلمون لغات

(١) المشرق عدد ٦ سنة ٧

البلاد الاصلية السريانية والآرامية واليونانية في العراق والشام والقبطية بمصر والفارسية في بلاد فارس والتركية في تركستان بما وراء النهر . واخذ العنصر العربي يتغلب على عناصرهم واللغة العربية تتغلب على السنتهم والاسلام يتغلب على اديانهم حتى ساد الاسلام عليهم جميعاً وعمّت العربية البلاد الواقعة غربي دجلة وهي العراق والشام ومصر وافريقية والسودان وصارت تعدُّ بلاداً عربيـة واكثر اهلها مسلمون . وانقرضت اللغات التي كانت منتشرة فيها الا بقايا قليلة من السريانية في بعض القرى المتباعدة من الشام والعراق . اما شرقي دجلة بفارس وتركستان والهند فقد ساد الاسلام ايضاً وانتشرت اللغة العربية بين اهل العلم ولكن ألسنة اهل البلاد ظلَّت حية يتفاهمون بها الى الآن

## ٢ — العامة سكان المدن

هم نفيُّ من يأمُّ المدن من اهل المطامع وطلاب المكاسب بالتجارة او الجندية او الادب او الشعر وتقعد بهم نفوسهم عن اللحاق باهل الهمم واصحاب القرائح فيضطرون الى احتراف ما يتعيشون به مما لا تعوزه همة او رأي . ولو اردنا الرجوع الى اصول عامة بغداد مثلاً لرأيناهم اخلاطاً من مولدي العرب والفرس والترك والديلم والروم والنبط والارمن والجركس والاكراد والكرج والبربر وغيرهم ولكنهم يعدُّون عرباً لتغلب اللغة العربية على السنتهم

وعامة المدن طبقتان الطبقة الاولى المرتزقون بالصناعة والتجارة وهم طائفتان (١) الصناع اصحاب الصناعات اليـدوية كالحدادين والحياكين والخياطين والحـلاقين والنجارين والصيادين والخبازين والطحانين ومن جرى مجراهم (٢) الباعة الذين يبيعون البقل واللحم وغيرهما من اصناف المأكولات على انواعها وبعض المنسوجات والسلع الدنيئة . وهم طوائف كثيرة كالزياتين والبقالين والجزارين وباعة الاقمشة والطحين والخضر ونحوها

والطبقة الثانية المرتزقون بالدعارة والنهب واللصوصية وهم اصناف كثيرة نشأت في بلاد الاسلام على أثر الفتن والانشقاق بين اهل الدولة لا يستطيع اهل هذا الجيل تصوُّر امثالهم لبعد ذلك عن مألوفهم — الا الذين ادركوا متشردي بيروت المعروفين بالزعران وهم طائفة من اهل البطالة كانوا يحترفون السرقة والتحرش بابناء السبيل . والزعران مثال صغير لرعاع ذلك العصر فقد كان في بغداد وغيرها من مدن الاسلام طوائف كثيرة تعرف بالعيارين والشطار والصعاليك والزواقيل ونحوهم كثيراً ما استفحل امر بعضهم حتى تعجز الحكومة عنهم وقد تستنجدهم في بعض حروبها

والسبب في ظهورهم اضطراب الدولة العباسية بعد عصرها الأول بمن دخل فيها من المفسدين منذ حجر على الخلفاء واستولى الاجناد على مصالح الدولة وجعلوا همهم جمع المال لانفسهم والتنازع على السلطة كما بيناه في الاجزاء الماضية ولا سيما الجزء الرابع . ولا يخفى ما تجرُّ اليه الفتن من وقوف الاعمال وغلاء الاسعار غير ما كان يرتكبه الحكام انفسهم من خزن الاقوات فتقلُّ ارزاق العامة فيعمدون الى التعدي ويتألفون عصابات لمناوأة اصحاب الاموال من التجار وغيرهم في المدن ولا سيما بغداد أُم المدائن الاسلامية في ذلك العهد . فكان الدعار يتكاثرون ويزدادون تعدياً والحكام في شاغل عنهم والخسارة معظمها على الاهالي . وتوالى ذلك اعواماً حتى خربت مدينة السلام وام حضارة الاسلام . ولا يمكن الالمام بكل طوائف الرعاع فنذكر اشهرها :

العيارون

ظهر العيارون ببغداد في اواخر القرن الثاني للهجرة وكان لهم في الفتنة بين الامين والمأمون شأن كبير لان الامين لما حوصر في تلك المدينة وعجز جنده عن الدفاع استنجد العيارين وكانوا يقاتلون عراة في اوساطهم الميازر وقد اتخذوا لرؤوسهم دواخل من الخوص سموها الخود ودرقاً من الخوص والبواري قد قرنت وحشيت بالحصى والرمل . ونظموهم نظام الجند على كل عشرة عريف وعلى كل عشرة عرفاء نقيب وعلى كل عشرة نقباء قائد وعلى كل عشرة قواد امير ولكل ذي مرتبة من المركوب على مقدار ما تحت يده . ومعهم اناس عراة قد جعل في اعناقهم الجلاجل والصدف الاحمر والاصفر ومقاود ولجماً من مكانس ومذاب . وبلغ عددهم يومئذ نحو خمسين الف عيار (1) وساروا للحرب يضربون الاعداء بالمقلاع والحصى وكانوا اهل مهارة بذلك فأبلوا بلاء حسناً لكنهم لم يثبتوا امام المجانيق والجنود المنظمة فعادت العائدة عليهم وقتل منهم خلق كثير وفيهم يقول الشاعر :

خرَّجت هذه الحروب رجالاً … لا لقحطان ولا لنزار
معشر في جواشن الحصر يعدو … ن الى الحرب كالليوث الضواري
ليس يدرون ما الفرار اذا الابـ … ـطال عاروا في القنا للفرار
واحد منهم يشدُّ على ألفيـ … ـن عريان ماله من ازار
ويقول الفتى اذا طعن الطـ … ـعنة خذها من الفتى العيار

(1) المسعودي ٣١٨ ج ٢

وحدث نحو ذلك من العيارين في حرب المستعين والمعتز سنة ٢٥١ ﻫ اذ حصر المستعين بالله ببغداد نحو حصار الامين فيها فاستعان بالعيارين وفرض لهم الاموال وجعل عليهم عريفًا اسمه بينونه وعمل لهم تراسًا من البواري المقيرة واعطاهم المخالي ليجعلوا فيها الاحجار . على انهم كانوا كلما حدثت فتنة اهلية اغتنموا اشتغال الدولة بها وهموا بالمنازل والحوانيت واخذوا الاموال . وكثيرًا ما كانت تحدث امثال هذه الفتن في بغداد من القرن الثالث للهجرة وما بعده [1]

وكانوا يزدادون قوة كلما ازدادت الدولة ضعفًا وتكاثرت تعدياتهم على بغداد كلما تكاثرت الفتن فيها اما بين الحكام في التنازع على السلطة او الاموال واما بين العامة تعصبًا لبعض المذاهب ولا سيما بين السنة والشيعة او الحنفية والشافعية . فلم ينقض النصف الاول من القرن الخامس للهجرة حتى تسلط العيارون على بغداد وجبوا الاسواق واخذوا ما كان يأخذهُ رجال الدولة وانتظموا انتظام الشرطة او الجند واشتهر من رؤسائهم في ذلك العصر رجل اسمه الطقطقي وآخر اسمه الزيبق [2] بطل القصة المشهورة

وظهر العيارون في سائر المدن الاسلامية وعظم شأنهم وكثيرًا ما كان الوزراء وغيرهم من ارباب الحل والعقد يقاسمونهم و يسكتون عنهم [3]

الشطار

هم طائفة أُخرى من اهل الدعارة كانوا يمتازون بملابس خاصة بهم ولهم مئزر يأتزرون به على صدورهم يعرف بازرة الشطار [4] وكانوا اكثر انتشارًا في المملكة الاسلامية من العيارين واطول بقاءً منهم وظهروا في الاندلس ولهم فيها نوادر وتنكيتات وتركيبات واخبار مضحكة تملأُ الصحف الكبار لكثرتها وتضحك الثكلى [5] على ان اسمهم كان يختلف باختلاف البلاد فهم يعرفون في العراق بالشطار وفي خراسان يسمونهم سرابداران وفي المغرب الصقورة وسماهم ابن بطوطة «الفتاك» وذكر تفشيهم في ايامه ( القرن الثامن للهجرة ) واشار الى اجتماعهم على الفساد وقطع الطرق وتكاثرهم في نواحي سبزوار حتى هجموا على مدينة بيهق وملكوها وملكوا غيرها وجندوا الجنود وركبوا الخيل وولوا احدهم سلطانًا عليهم وانحاز اليه العبيد يفرون من مواليهم فكل من جاء من هؤلاء اعطاه ذلك السلطان مالاً

---

(١) ابن الاثير ٢٤٤ ج ٨ و ١٤٥ — ١٥٠ ج ٩ (٢) ابن الاثير ٢٤٦ ج ٩
(٣) ابن الاثير ٤١ ج ١١ (٤) الاغاني ٩١ ج ٦ (٥) نفح الطيب ٧٦٦ ج ٢

وفرساً اذا ظهرت منه شجاعة أمَّرَهُ الى آخر ما ذكر (١)

ولم يكن الشطار وغيرهم من اهل الشرور يعدون اللصوصية جريمة وانما كانوا يعدونها صناعة ويحللونها باعتبار ان ما يستولون عليه من اموال التجار الاغنياء زكاة تلك الاموال التي اوصي باعطائها للفقراء (٣) وكان اولئك اللصوص اذا شاخ احدهم ربما تاب فتستخدمه الحكومة في مساعدتها على كشف السرقات . وكان في خدمة الدولة العباسية جماعة من هؤلاء الشيوخ يقال لهم « التوابون » على انهم كثيراً ما كانوا يقاسمون اللصوص ما يسرقونه ويكتمون امرهم (٢)

طوائف أخرى من الرعاع

وهناك طوائف اخرى من رعاع العامة او من في معناهم تكاثروا في عصر الانحطاط بالمملكة العباسية كالصعاليك والزواقيل والحرافيش وغيرهم كان طلاب السلطة يستعينون بهم في حروبهم بعضهم على بعض و يعدون بالآلاف فقد كان مع ابي دلف عشرون الفاً من الصعاليك (٤)

ويدخل في معنى هذه الطوائف ممن تجمهروا للارتزاق بالتعدي على اصحاب الاموال العبيد وكانوا كثيرين لا يخلو منهم منزل كما رأيت . فلما اختلت الاحوال وضعف اسيادهم ذهبت الهيبة من قلوبهم حتى اذا سنحت لهم فرصة نهضوا مع الناهضين . وربما انتحلوا لنهوضهم دعوة دينية يقومون بها كما فعل صاحب الزنج في اواسط القرن الثالث للهجرة فانهُ قام قرب البصرة باسم الشيعة العلوية وكان في ضواحيها جماعة من العبيد يكسحون السباخ فدعاهم الى النهوض معه على ان يحررهم من الرق و يريحهم من التعب وكانوا قد شاهدوا رفاقهم الارقاء البيض ( المماليك الاتراك ) يتمردون على الخلفاء فاقتدوا بهم . فكل عبد سمع بهذه الدعوة تبعها حتى استفحل امرهم وضربوا اسيادهم بالسياط (٥) واجتمع منهم مئات الالوف وحاربوا الدولة العباسية بضع عشرة سنة قتلوا في اثنائها ٢٥٠٠٠٠٠ نفس من الرجال والنساء والاطفال مما تقشعر له الابدان . وانتهت تلك الدعوة بقتل زعيمها وتفرق اصحابه . واراد البجة بمصر أن يفعلوا مثل الزنج بالعراق فلم يفلحوا . وقد يعدُّ من هذا القبيل ايضاً الحشاشون وهم طائفة من الفوضويين ظهروا في القرن الخامس للهجرة وجعلوا دأبهم

(١) رحلة ابن بطوطة ٢٣٥ ج ١ (٢) الجزء الرابع ١٧١

(٣) المسعودي ٣٣٥ ج ٢ (٤) ابن الاثير ٦٩ ج ٧

(٥) ابن الاثير ٨٢ ج ٧ والطبري

الفتك بأهل السلطة غدرًا وكان لهم شأن كبير في تاريخ الاسلام [١]

ومن طبقات العامة « المخنثون » وكانوا في الحجاز قبل الاسلام وهم جماعة من اهل الخلاعة انتشروا بالمدينة بعد الاسلام على اثر ظهور اللهو والقصف وكثرة الاموال وكثيرًا ما كانوا يفسدون النساء يتوسطون بينهن وبين الرجال . وكان احسن المغنين منهم وقد تقدم خبر سليمان بن عبد الملك وما فعله بهم . وربما اشبهوا ما كان في القاهرة من « الخول » من عهد غير بعيد . ولما انتشر الغناء في المملكة الاسلامية انتشر المخنثون معه وتكاثروا في بغداد والشام ومصر والاندلس وسائر المغرب والاندلسيون اذا قالوا المخانيث قد يريدون المماليك الصقالبة

وفي ما خلا ذلك فقد كان في المدن من طبقات العامة مالا يحصيه عدّ من اهل الاحتيال للمعايش باساليب الخداع والشعوذة او نحوهما ولكل صنف من هذه الاصناف اسم خاص . وربما زاد عددها جميعًا على عشرين نوعًا كقولهم المخطراني والكاغاني والبانوان والقرسي والعواء والمشعبذ والفلور والاسطيل والمزيدي [٢] وغيرهم

## أخلاق العامة

فالعامة في المدن اخلاط من غوغاء ولفيف من امم شتى وصناعات شتى وهم جهال اتباع من سبق اليهم من غير تمييز بين الفاضل والمفضول . وسئل الامام علي عن العامة فقال « همج رعاع اتباع كل ناعق » . وقال الفضل بن يحيى « الناس اربع طبقات ملوك قدمهم الاستحقاق ووزراء فضلتهم الفطنة والرأي وعليّة انهضم اليسار واوساط ألحقهم بهم التأدب والناس بعدهم زبد جفاء وسيل غثاء لكع لكاع وربيطة اتضاع همّ احدهم طعامه ونومه » . وقال معاوية للاحنف صف لي الناس فقال « رؤوس رفعهم الحظ واكتاف عظمهم التدبير واعجاز اشهرهم المال وادباء ألحقهم بهم التأدب والناس بعدهم اشباه البهائم ان جاعوا ساموا وان شبعوا ناموا » — هذه هي آراء خاصة تلك الايام في عامتهم

ومع ذلك فطلاب السلطة كانوا يراعون جانبهم ويقربونهم بما يرضيهم ولاسيما الدين وهو جامعتهم الكبرى ولا غرو فانه اكبر اسباب سعادتهم ولهذا السبب رأيتهم شديدي التعلق بالخليفة اذا اظهر التقوى لما في منصبه من الصبغة الدينية وهو رئيسهم وامامهم

---

(١) الهلال صفحة ٨٣ سنة ١٠ (٢) كتاب البخلاء ٣٧

فكانوا له عضداً قوياً ولولاهم لذهبت الخلافة العباسية من بغداد قبل الزمن الذي ذهبت فيهِ لانهم كانوا كثيراً ما ينهضون لنصرته على القواد والوزراء اذا ارادوا خلعهُ · وا كثرهم مع ذلك لا يعرفون من الدين غير اسمهِ ولو سئل احدهم عن اعتقاده لما احسن الجواب فضلاً عن بساطتهم وسذاجة افكارهم وجهلهم سائر الامور

ذكروا من دهاء معاوية في مداراة الناس واجتذاب قلوب العامة ان رجلاً من اهل الكوفة دخل على بعير له الى دمشق في حال منصرفهم عن واقعة صفين فتعلق بهِ رجل من اهل دمشق فقال هذه ناقتي اخذت مني في صفين فارتفع امرهما الى معاوية واقام الدمشقي خمسين رجلاً بينة يشهدون انها ناقته فقضى معاوية على الكوفي وامره بتسليم البعير اليهِ فقال الكوفي « اصلحك الله انهُ جمل وليس بناقة » فقال معاوية « هذا حكم قد أُمضي » ودسَّ الى الكوفي بعد تفرقهم فاحضره وسأله عن ثمن بعيره ودفع اليهِ ضعفيه وبرَّه واحسن اليهِ وقال له « ابلغ علياً اني اقابله بمائة الف ما فيهم من يفرق بين الناقة والجمل »

وبلغ من امرهم في طاعته انه صلى بهم عند مسيرهم الى صفين الجمعة في يوم الاربعاء واعاروه رؤوسهم عند القتال وحملوه بها وركنوا الى قول عمرو بن العاص ان علياً هو الذي قتل عمار بن ياسر حين اخرجه لنصرته · ثم ارتقى بهم الامر في طاعته الى ان جعلوا لعن علي سنَّةً ينشأ عليها الصغير ويهلك عليها الكبير

وذكروا عن عامة بغداد في ابان التمدن الاسلامي ان رجلاً منهم رفع الى بعض الولاة وشاية برجل من علماء الكلام زعم انه يتزندق · فسأله الوالي عن مذهب الرجل فقال « انهُ مرجئ قدري اباضي رافضي يبغض معاوية بن الخطاب الذي قاتل علي بن العاص » فقال لهُ الوالي « مادري على اي شيءٍ احسدك على علمك بالمقالات اوعلى بصرك بالانساب»

وكان جماعة من علماء ذلك العصر يجتمعون في بغداد للمناظرة في ابي بكر وعمر وعلي ومعاوية وكان بعض العامة يأتون فيستمعون فتصدى اكبرهم لحية ذات يوم لبعض المباحثين وقال لهُ « كم تطنبون في علي ومعاوية وفلان وفلان »

فقال لهُ الرجل « فما تقول انت في علي »

قال « اليس هو ابا فاطمة »

قال « ومن هي فاطمة »

قال « امرأة النبي عليه السلام بنت عائشة اخت معاوية »

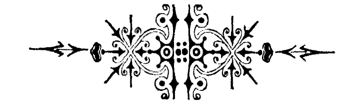
---

(١) راجع الجزء الرابع ١٨٤

قال « فما كانت قصة علي »

قال « قتل في غزاة حنين مع النبي وقد كان عبد الله بن علي حين خرج في طلب مروان الى الشام وكان من قصة مروان ومقتله ما قد ذكر ونزل عبد الله بن علي الشام ووجه الى ابي العباس السفاح اشياخاً من اهل الشام من ارباب النعم والرياسة فحلفوا لابي العباس السفاح انهم ما علموا لرسول الله قرابة ولا اهل بيت يرثونه غير بني امية حتى وليتم الخلافة » (١)

اولئك هم العامة في كل زمان ومكان وطلاّب السلطة المطلقة لا يستغنون عنهم لانهم معظم الرعية وبهم تجبى الاموال ومنهم تتألف الجنود فمن استطاع كسب ثقتهم واجتذاب قلوبهم ملكوه ولا يجتذب قلوب العامة مثل الدين فاذا اجتمعت السياسة والدين تمت وسائط السلطة المطلقة وتولى امور الناس اكثرهم دهاءً واقدرهم على استرضاء العامة بالتقوى



(١) المسعودي ٥٢ ج ٢

# الاداب الاجتماعية

## في المملكة الاسلاميـة

نريد بالآداب الاجتماعية ما يدور بين الناس من المعاملات الادبية والامور الاعتبارية في هيأتهم الاجتماعية وما يتبادلونه من العلائق العائلية على ما تقتضيه عاداتهم واخلاقهم وطبائع اقليمهم . واساس تلك الاداب في التمدن الاسلامي ماكان عندالعرب قبل الاسلام من المناقب والعادات وحال المرأة عندهم فنقدم الكلام بتمهيد في هذا الشأن

### مناقب العرب الجاهلية

تختلف مناقب الناس وآدابهم باختلاف ضروب معائشهم وأطوار تمدنهم وطبائع اقليمهم فللبدو مناقب غير مناقب الحضر ولاهل القرى آداب تختلف عما لاهل المدن واهل الاقاليم الحارة ادابهم تخالف آداب اهل الاقاليم الباردة جريًا على مايقتضيه ناموس الارتقاء من التناسب بين طباع القوم وطبائع اقليمهم لئلاَّ يتولاهم الضعف و يدركهم الفناء

فاهل البادية يحتاجون الى الشجاعة مثلاً اكثر مما يحتاج اليها المتمدنون لتفرد البدوي عن المجتمع وتوحشه في الضواحي و بعده عن الحاميـة وانتباذه عن الاسوار و يقوم بالدفاع عن نفسه بيده فهو دائمًا يحمل السلاح و يتفرد في القفر واثقًا بنفسه فصارت الشجـاعة سجية له . بخلاف اهل المدن الذين القوا جنوبهم على مهاد الراحة وانغمسوا في الترف ووكلوا امرهم في المدافعة عن اعراضهم واموالهم وانفسهم الى واليهم والحامية التي تولت حراستهم واستنـاموا الى الاسوار التي تحوطهم فهم آمنون قد القوا السلاح وتوالت على ذلك منهم الاجيال وتنزلوا منزلة النساء والولدان الذين هم عيال على سواهم فاصبح الجبن طبيعة فيهم . اعتبر ذلك بسائر ما يغلب في طباع اهل البدو كالعصبية والكرم والوفاء والانفة والنجدة وغيرها مما تستلزمهُ البداوة ولا تستقيم الاَّ به على ما سنبينهُ :

#### ١ ــ العصبية

هي اظهر طبائع البدو واعمها وقد فصلنا اسبابها وشروطها وسائر اطوارها في الجزء الرابع

## ٢ ــ الشجاعة

البدو يعيشون غالباً بالغزو وهم دائماً في قتال او يتأهبون لقتال فالشجاعة شرط من شروط بقائهم وقد كانت غالبة فيهم يكرمون الشجاع و يتفاخرون بالشجعان واشتهر فيهم جماعة كبيرة من اهل البسالة في الجاهلية والاسلام كعمر بن معدي كرب وربيعة بن المكدم ودريد بن الصمة وعروة بن الورد وعنترة العبسي وملاعب الاسنة وعامر بن الطفيل وعلي ابن ابي طالب وخالد بن الوليد والمقداد بن الاسود وسعد بن ابي وقاص وعبد الله بن الزبير واخيه مصعب وغيرهم . واشتهرت نساؤهم بالشجاعة ايضاً كما سيجيء في كلامنا عن المرأة

## ٣ ــ الكرم

وهو من مناقب اهل البادية اقتضته طبيعة اقليمهم لما قدمناه من مسير البدوي في اسفاره منفرداً وقد يبتعد عن مضربه اياماً في بادية لا طعام فيها ولا ماء فاذا لم يجد من يقريه و يسقيه مات . فنشأ عن ذلك الضيافة وقرى الضيفان واصبح الكرم من افضل المناقب عندهم شأن سائر اجيال البدو غير العرب كالجرمان قبل تمدنهم . فكان البدو يتفاخرون بالضيافة و يتسابقون الى المغالاة فيها حتى اوقدوا ناراً بجانب مضاربهم يهتدي بها المارة ليلاً يسمونها نار القرى و بالغوا في احترام الكرماء ترغيباً للناس في هذه الفضيلة لافتقارهم اليها . فاصبح الاسخياء يبالغون في ذلك و يكثرون من النيران فاذا اشتد البرد او هبَّت الرياح فعجزوا عن ايقادها فرقوا الكلاب حول الحي و ربطوها الى العمد لتستوحش فتنبح فيهتدي الاضياف على نباحها . ولذلك كان من اسماء الكلب عندهم « داعي الضمير ومتمم النعم ومشيد الذكر » وكانوا يتفاخرون بعظم جفانهم وارتفاعها ومن اكبر تلك الجفان جفنة عبد الله بن جدعان كان الرجل يستظل في ظلها (١)

واشهر الكرماء في الجاهلية حاتم الطائي و يضرب المثل بكرمه فيقال للمبالغة في مدح كريم « انه اكرم من حاتم طي » ومنهم كعب بن امامة الايادي وهرم بن سنان وخالد بن عبد الله وغيرهم . وكان جودهم قاصراً على الضروري من حاجات الانسان كالطعام والشراب واللباس لبساطة احوالهم و ربما جادوا بالابل او الماشية . فلما ظهر الاسلام وكثرت اموالهم من الغنائم والعطايا صاروا يجودون بالنقود والجواهر والضياع والرقيق وغيرها كما سترى

## ٤ ــ الوفاء

لما كان الغدر سهلاً على البدوي لامكانه الفرار من القصاص والايغال في البادية حيث

---

(١) الف باء ٨٣ ج ٢

لا يستطيع خصمه الوصول اليه وليس ثمة وازع يخيفه او جند يقبضون عليهِ ولا هناك دين يزجره مما يفضي الى ضياع الحقوق وفساد الاحوال جعلوا يرغبون الناس في الوفاء ويعظمون امره ويمتدحون اهله فرغب الناس فيهِ واصبح بتوالي الاجيال خلقاً لهم وصاروا يأنفون من اخلاف الوعد ويشهرون مرتكبه ويبالغون في الثناء على أهلهِ

٥ — الاستقلال

لاشيء احب الى اهل البادية من الاستقلال ولاسيما الرحَّل فانهم طبعوا على الحرية وكرهوا التقيد بشيء حتى المكان فهم لا يتوطنون صقعاً بل يجعلون منازلهم على ظهورهم ينتقلون بها الى حيث يطيب لهم المقام. وهم لا يحملون ضيماً ولا يصبرون على ظلم. وتمكنت الحرية من طباعهم حتى ظهرت في اقوالهم وافكارهم ونشأوا على الانفة وعزة النفس واباء الضيم. ألا ترى كيف ظهر ذلك منهم في صدر الاسلام اذ كانوا يخاطبون الخلفاء كما يخاطبون عامة الناس والخلفاء لا يرون بأساً بذلك لانه كان طبعاً مألوفاً فيهم

٦ — النجدة

هي من طبائع البدو ولازمة لزوم الضيافة وبينهما تناسب من حيث اغاثة الضعيف فاذا استنجدت البدوي على امر انجدك ولو بذل نفسه في هذا السبيل. وتظهر نجدتهم على الخصوص في الجوار وحمي الذمار وقد فصلنا ذلك في الجزء الرابع صفحة ٢٨

٧ — الاريحية

وقد وصفنا هذه المنقبة مختصرًا في الجزء المذكور صفحة ٢٩ وهي من مناقب اهل النجدة والفروسية التي يعبر عنها الافرنج بقولهم Chevalerie ومرجعها الى الافتخار بحسن الاحدوثة ولما كان العرب اهل خيال وذوي نفوس حساسة كان للاريحية عندهم شأن كبير فالرجل منهم تقيمه كلمة وتقعده ُ وربما تجردوا للحرب نقمة على عبارة تطعن في شجاعتهم او كرمهم او وفائهم وكانوا يتأثرون على الخصوص من اقوال النساء مدحاً او طعناً فيبذلون ما في وسعهم التماساً لثنائهن وكثيرًا ما كان ذلك سبباً في ابتعادهم عن الرذائل وربما تعرض بعضهم للقتل خوفاً من استخفافهن وفي اخبار الجاهلية شواهد كثيرة على ذلك

٨ — الثأر

وكما ينجدك البدوي اذا استنجدته فهو لا يصبر عن الاخذ بثاره اذا اسأت اليه واذا قتل رجل من قبيلة رجلاً من قبيلة اخرى نشأت العداوة بين القبيلتين فتقوم الموتورة منهما الاخذ بثارها ولا تنفك حتى تقتل كفوءًا لقتيلها او يتصالحوا على الدية. ومن اشهر حوادث

الإثآر في الجاهلية الحرب التي أثارها المهلهل بن ربيعة للاخذ بثار اخيه كليب فاصبح المهلهل مثلاً في ذلك فيقولون « فلان آخذ للثار من المهلهل » لأنه حلف منذ طلب الثار انه لاينزع درعه ولا يشرب الخمر ولا يدهن رأسه بالطيب ولا يقرب للنساء الاَّ بعد نيل مرامه

٩ — الشيخوخة

كان للشيخوخة عند العرب مقام رفيع ولفظ الشيخ يدلُّ عندهم على الشيخوخة والرئاسة معاً. وكانوا اذا تساوت المناقب في من يرشحونهُ للامارة فضلوا اكبرهم سنًّا كما فعلت قريش في حرب الفجار الثاني(١) ولما جاءَ الاسلام واحدث ما احدثه من المناقب الدينية كانت هذه المناقب في جملة ما فضلوه على السن فاذا تساوت كلها في المترشح للامارة فضلوا اكبرهم سنًّا عملاً بالحديث النبوي بشأن الامامة وهـذا نصهُ « يؤم القوم اقرأهم لكتاب الله تعالى فان كانوا في القراءَة سواء فأعلمهم بالسنة فان كانوا في السنة سواءً فاقدمهم هجرة فان كانوا في الهجرة سواءً فاقدمهم سنًّا »(٢)

## المرأة في الجاهلية

اختلفت الآراء في حال المرأة العربية بالعصر الجاهلي ولا مشاحة انها كانت على الاجمـال عظيـمة الشأن عفيفة النفس وعفتها من ثمار حبّ الاستقلال والانفة لان المرأة التي تشبُّ على استقلال الفكر واباءَة الضيم تترفع عن ارتكاب ما يهون على الناشئة في مهاد الذل المغلولة باغلال الحجاب . ويقال نحو ذلك في غيرة رجالهم على العرض فانهُ من مستلزمات العفة والانفة والاستقلال لان الرجل الانوف اذا تعوَّد العفة من امرأَته يعظم على طباعه احتمال مايمس عرضها من قول او فعل . وتزداد غيرته عليها اذا كانت وحيدة لم يحب سواها كما كان حال العرب في الجاهلية لقلة الجواري يومئذ ومشقة الحصول على النساء مع حاجة البدوي الى امرأته في تدبير شؤونه واعانته في اسفاره واعماله

الوأد

وبلغ من غيرة بعضهم في الجاهلية ان يقتلوا بناتهم او يئدوهنّ لئلاّ يرتكبن ما يجرُّ عليهم العار ولم يكن الوأد عاماً في قبائل العرب ولا كان قديمًا عندهم وانما حدث قبيل الاسلام وكان منحصرًا في بعض بني تميم بن مر ظهر فيهم لسبب طرأ عليهم — ذكروا انهم كانوا يؤَدُّون الاتاوة ( الجزية ) الى النعمانُ ملك الحيرة فمنعوها سنة من السنين فجرد عليهم

(١) الجزء الاول (٢) مشكاة المصابيح ١٠٠

النعمان كتائبه وساق انعامهم وسبى ذراريهم فعظم ذلك على التميميين فوفدوا عليه يطلبون اهلهم واموالهم فأبى فقالوا « اعطنا النساء » فقال « اننا نخيرهن في الذهاب او البقاء » واعلن « ان كل امرأة اختارت اباها ردّت اليهِ . وان اختارت صاحبها تركت عليهِ » فكلهن اختارت اباها الاّ ابنة قيس بن عاصم كانت قد احبت عمرو بن المشمرج فاختارت البقاء عنده فغضب قيس ونذر لا تولد له ابنة الاّ قتلها [1] وربما اقتدى بهِ بعض اهله او اهل قبيلته . وكان بعض الغيورين من العرب لا يزوّج بناته غيرة عليهن واشهرهم ذو الاصبع العدواني فكانت لهُ اربع بنات منعهنّ الزواج وهن يردنه في حديث طويل ذكره المبرد [2] ولم يطل زمن الوأد عند العرب لانه مخالف لاحكام العقل ومبائن لعواطف الوالدين . فما لبث ان ظهر صعصعة بن ناجية واخذ على نفسه فداء البنات المؤودات [3] حتى بطل الوأد

شهيرات الجاهلية

وكان للمرأة في الجاهلية شأن وارادة وكانت صاحبة انفة ورأي وحزم فنبغ غير واحدة منهنّ في السياسة والحرب والأدب والشعر والتجارة والصناعة ولا سيما في اوائل الاسلام على اثر ما حصل من النهضة في النفوس والعقول فاشتهرت جماعة منهنّ بمناقب رفيعة تضرب بها الامثال واكثرها في المدينة مقر الخلافة الاسلامية في ذلك العهد

فاللواتي اشتهرن في الجاهلية بالشجاعة وشدة البطش او كبر النفس منهنّ سلمى بنت عمر احدى نساء بني عدي بن النجار فانها كانت امرأة شريفة لا تتزوّج الرجال الاّ وامرها بيدها اذا رأت من الرجل شيئاً تركتهُ . على ان الغالب في نساء الجاهلية ان يخيرن قبيل الزواج فلا يزوّج الرجل ابنته الاّ بعد ان يشاورها [4] واشتهرت التيميات من نساء قريش في حظوتهن عند رجالهن وكبريائهن وقسوتهن عليهم [5] ناهيك بمن اشتهرت منهن بالبسالة في اثناء الغزوات . ففي معركة أُحد وقع لواء قريش في ساحة القتال فلم يزل صريعاً حتى اخذتهُ امرأة منهم اسمها عمرة بنت علقمة الحارثية فرفعته لهم فلاذوا بها [6] . وفعلت هند بنت عتبة امرأة ابي سفيان في تلك المعركة مالم تفعله الرجال فجمعت اليها نسوة اخذن في ايديهن الدفوف يضربن خلف الرجال وهي تنشد في تحريضهم على الثبات . ولما انتهت الواقعة خرجت مع النسوة تمتار جثث القتلى فوجدت بينها جثة حمزة عم النبي فبقرت

---

(١) الكامل للمبرد ٢٧٨ (٢) الكامل ٣١٦ (٣) الف باء ٢٠ ج ٢
(٤) الاغاني ١٤٩ ج ٩ و٢٠٨ ج ١٨ (٥) الاغاني ٢٠٣ ج ١٨
(٦) الاغاني ١٧ ج ١٤

عن بطنه واخرجت كبده فلاكتها من غيظها فلم تستطع ان تسيغها فلفظتها ثم علت صخرة وانشدت اشعاراً تفخر بالفوز على المسلمين (١)

ونساء الجاهلية كن يصحبن الرجال الى ساحة القتال فيداوين الجرحى ويحملن قرب الماء ومن اشتهرن بالشجاعة امعمارة بنت كعب الانصارية وام حكيم بنت الحارث والخنساء الشاعرة اخت صخر وغيرهن (٢)

ونبغ بالرأي والحزم غير واحدة اشهرهن خديجة بنت خويلد وكانت عاقلة حازمة لبيبة ذات شرف ومال تنتقي من اشتهر من الرجال بالامانة والحزم فتستأجرهم بمالها وتضاربهم اياه بشيء تجعله لهم . ولما سمعت بشهرة النبي قبل الدعوة بالامانة وكرم الاخلاق بعثت اليه ان يخرج في مالها تاجراً الى الشام وتعطيه افضل ما كانت تعطي غيره من الرجال فلما افلح في تجارته عرضت عليه ان يتزوج بها فأجابها . وهي اول من اسلم وقد نشطته للقيام بالدعوة فكان لا يسمع شيئاً مما يكرهه من ردّ عليه او تكذيب له فيحزنه ويخبرها به الا ثبتته وخففت عنه وهوّنت عليه وما زالت على ذلك حتى ماتت

## الآداب الاجتماعية

### في العصر الاسلامي العربي

ينقضي هذا العصر بانقضاء دولة الامويين في الشام سنة ١٣٢ ﻫ وقد علمت مما ذكرناه عن سياسة هذا العصر في الجزء الرابع انها كانت عربية النزعة وقوادها عرب وعمالها عرب والسيادة فيها للعنصر العربي . وكذلك الآداب الاجتماعية فقد كانت لاتزال عربية بدوية — او هو دور الانتقال من البداوة الى الحضارة حاول العرب فيه البقاء على ما الفوه في جاهليتهم من المناقب التي تقدم ذكرها كالوفاء والجوار والكرم والنجدة والشجاعة والعفة . وكانت الحضارة وما تقتضيه من الترف والرخاء تغالب تلك المناقب حتى غلبت على معظمها في اواسط العصر العباسي .

ويقسم العصر الاسلامي العربي الى ايام الراشدين وايام الامويين فنذكر الآداب الاجتماعية في كل منهما على حدة

(١) الاغاني ٢٠ ج ١٤ (٢) الف باء ٢١٠ ج ٢

## ١ — الآداب الاجتماعية في عصر الراشدين

قلما اصاب المناقب البدوية تغيير في عصر الراشدين الاَّ ما اقتضاه الدين من جمع كلمة العرب تحت لوائهِ فضعفت بذلك العصبية بين القبائل والبطون واجتمع العرب من قحطان وعدنان في ظل الاسلام . واصاب الكرم في ذلك العصر تغيير اقتضاه عدل الراشدين ولا سيما عمر بن الخطاب فانهُ كان من الصرامة وحب العدل حتى يطالب العامل بالدرهم والدانق واذا علم انهُ كسب مالاً من غير راتبه شاطره اياه وكذلك كان علي بتدقيقه في محاسبة عماله وسائر رجاله . فكانوا لا يبذلون المال الاَّ لمن استحقه من اهل العطاء فلم يكن لأصحاب الاستجداء عيش في ايامهم . وكان الصحابة يومئذ يقلدون الخلفاء في هذا التدقيق وهو مخالف للسخاء والبذل حتى اتهموهم بالبخل وما هو بخل ولكنهم كانوا يرون اعطاء كل ذي حق حقه

اما ما بقي من مناقب العرب فظلت على نحو ما كانت عليهِ وبعضها زاد تمكنًا في نفوسهم كالوفاء والنجدة والعفة والانفة لان الاسلام زادها رونقًا وقوة بالعدل والتقوى فكان الخليفة او اميره اذا وعد وفى واذا عاهد انجز لا يثنيه عن ذلك طمع او خوف . اعتبر ما كان من وفائهم لاهل الذمة اذ عاهدوهم على ان يحموهم ما ادوا الجزية . فكانوا اذا شغلهم عن حمايتهم شاغل ردوا الجزية الى اصحابها واعتذروا (١) ولو لم يردوها ما طالبهم بها احد وانما كانوا يفعلون ذلك من عند انفسهم . والشجاعة كانت سائدة في ذلك العصر لما كانوا فيهِ من الحاجة اليها في الفتح والجهاد . وقس على ذلك سائر المناقب ولا سيما الاستقلال والحرية فانهما زادا قوة في صدر الاسلام لما توخاه الراشدون من التسوية بين المسلمين على اختلاف طبقاتهم حتى اصبحوا يخاطبون الخليفة او الامير بجسارة وانفة كما يخاطبون بعض اقرانهم واذا رأوا فيهِ اعوجاجًا هددوه او عنفوه واصلحوه فاذا لم يطعهم قتلوه كما فعلوا بالخليفة عثمان وكثيرًا ما كان المسلمون يحصبون اميرهم وهو يخطب فيهم اذا انكروا شيئًا من اقواله او اعمالهِ

### المرأة في عصر الراشدين

اما المرأة فاتجهت قواها في صدر الاسلام الى سداد الرأي ومزاولة الادب والشعر مع بقاء العفة والانفة فاشتهر منهن غير واحدة جرت بذكرهن الامثال : منهن عائشة ام المؤمنين فقد كان لها عقل راجح وفيها دهاء وقوة حتى رأست حزبًا كبيرًا من الصحابة واثارت حربًا عوانًا وروت احاديث كثيرة هامة

---

(١) الجزء الاول ٥٧

وعائشة بنت طلحة بن عبيد الله الصحابي الشهير كانت مفرطة الجمال تقيم في المدينة ولها عقل ورأي وعلم واسع باخبار العرب وأيامها وفي مطالع الكواكب واحوالها . وكانت مع جمالها لا تستر وجهها عن الرجال لعظم قدرها وكبر نفسها . وكثيراً ما كانت تجلس في قصرها فيتناضل بين يديها الرماة ويتفاخرون بما ينالونه من اعجابها . وكانت اذا حجت يجيئها النساء الشواعر وغيرهن ويدخل الشعراء فتجيزهم الجوائز الكبيرة وكان لها موكب لم يسمع بمثله في عصرها مؤلف من عدة مواكب واحد لماشطتها واخر لخازنتها وآخر لكل من كبار اتباعها . اما موكبها الخاص فهو كوكبة فيها ٣٠٠ راحلة عليها القباب والهوادج(١)

وسكينة بنت الحسين بن علي وكانت معاصرة لعائشة بنت طلحة في المدينة وتسميان عقيلتي قريش(٢) وكانت عفيفة برزة تجالس الاجلة من قريش وتجتمع اليها الشعراء وتأذن للناس اذناً عاماً حتى تغص الدار بهم فتأمر لهم بالاطعمة ثم تطرح على الشعراء الاسئلة في الشعر والادب وتنتقد اقوالهم وتجيزهم وخبرها في ذلك مشهور(٣)

واسماء بنت ابي بكر المعروفة بذات النطاقين وهي أم عبد الله بن الزبير وفي مراجعة قولها لابنها هذا لما يئس من الفوز وهو محصور بمكة وجاء يستفتيها وتحريضها اياه على استقبال الموت بشرف دليل كاف على كبر نفسها وحزمها(٤)

ونبغ في ذلك العصر عدة نساء بالشعر كليلى الاخيلية والخنساء المتقدم ذكرها والفارعة المرية واشتهر في البادية غير واحدة ممن كان يجتمع الرجال عندها للمناشدة او المذاكرة على غير ريبة فاذا توسمت في احدهم انحرافاً منعته واحتجبت عنه . كما اتفق لابي دهبل الجمحي مع عمرة الجمحية وكانت امرأته جزلة يجتمع اليها الرجال لانشاد الشعر وكان ابو دهبل من اشراف بني جمح وكان لا يفارق مجلسها وكانت تحبه وتتقدم اليه في كتمان حبها فجاء نسوة كن يتحدثن اليها فذكرن لها شيئاً عن ابي دهبل وانهُ يقول انها عاشقة لهُ فرفضت مجلسها وتركت مجالسة الرجال ظاهرة وضربت حجاباً بينها وبينهم(٥)

ولما نضج التمدن الاسلامي اشتهر عدة نساء بالسياسة والصلاح والدهاء وغير ذلك مما ذكرناه في الاجزاء الماضية

---

(١) الاغاني ٦٠ ج ١٠ (٢) العقد الفريد ٢٥٤ ج ٢

(٣) الاغاني ١٧٣ ج ١٤ (٤) ابن الاثير ١٩١ ج ٤ (٥) الاغاني ١٦٥ ج ٦

## ٢ — الآداب الاجتماعية في عصر الامويين

اصاب المناقب العربية في الدولة الاموية تغيير يختلف عما اصابها في عصر الراشدين باختلاف احوال الدولتين • فالامويون لما جعلوا همهم الرجوع الى ما كان لهم من السيادة في الجاهلية اغفلوا كل ما كانوا يخافون حيلولته بينهم وبين ذلك المرمى واستبقوا ما يتوسمون منه نفعاً لغرضهم — فالكرم رأوا فيه وسيلة لجمع الاحزاب فنشطوه وتسابقوا اليهِ فزادوا الاعطية وفرضوا الجوائز واقاموا بيوت الضيافة واكثروا من السخاء على رؤساء الاحزاب والشعراء ومن يخافون سطوتهم ولا يقوون على قتلهم على ما بيناه في باب السخاء

والشجاعة لم يكن لهم بدٌّ منها فقربوا اصحابها ، والعصبية كانت ملجأهم الاكبر في مناوأة اعدائهم من شيعة علي وغيرهم فبعد ان ضعفت في عصر الراشدين وقامت جامعة الدين مكانها اعادها الامويون الى نحو ما كانت عليه قبل الاسلام

اما الوفاء فكان عثرة في طريق اغراضهم لما كانوا يعلمونه من حق مناظريهم في الخلافة وقوتهم فلجأوا الى الغدر والفتك • وكان معاوية زعيمهم ومؤسس دولتهم يفعل ذلك سرًّا ويموّه غدرهُ بالحلم والكرم والدهاء وحسن الاسلوب • فتدرج الخلفاء بعده من بني مروان الى الغدر جهاراً واول من فعل ذلك عبد الملك [١] وجرى عمالهم على هذه الخطة وافرطوا فيها فاشتهر بها منهم زياد بن ابيه وابنه عبيد الله بن زياد والحجاج بن يوسف وغيرهم

### تقييد الافكار في ايام بني امية

اما الاستقلال وحرية القول فجاهد الامويون في مقاومتهما وقيدوا الالسنة بارادتهم تقييداً شديداً فكان ذلك عظيماً على الذين عاصروا الراشدين وتعودوا الحق والحرية فعاقبهم الامويون جزاء حريتهم واستقلال افكارهم بالعذاب الشديد • ومن لم يستطيعوا مقاومته جهاراً قتلوه سرًّا — بدأوا بذلك من ايام عثمان قبل قبضهم على مقاليد الدولة في الشام وقد جرأهم عليه ضعف هذا الخليفة ورغبته في ارضاء اهله ونصرتهم ولولا ذلك ما استطاع معاوية اضطهاد ابي ذر الغفاري ونفيه لانه جاهر باستبداد اهل الدولة باموال المسلمين [٢]

فلما افضت الخلافة الى معاوية لم ير بدًّا من الضغط على افكار اهل الاستقلال والحرية واستعمل الشدة في ذلك فقتل حجر بن عدي وعمرو بن الحمق واصحابهما لانهم

(١) الجزء الرابع ٨٣ (٢) الجزء الثاني ١٦

قالوا بحرية ضمير ان علياً لا يجوز لعنه على المنابر [١] فاصبح الناس يخافون على ارواحهم وأخذوا يتعودون السكوت عن الحق ثم لجأوا الى التمويه والرياء حتى في المشهور الثابت كما فعل ذلك الرجل لما نصب معاوية ابنه يزيد لولاية العهد فاطرى عمل معاوية حتى قال له « انك لو لم تولّ هذا امور المسلمين لاضعتها » ولكن الحرية كانت لا تزال حية في نفوس اهل الرئاسة ممن لم يكن يهمهم التزلف الى اهل الدولة وربما كانت الدولة احوج الى نصرتهم كالاحنف بن قيس التميمي فانه كان يقول الحق ولا يبالي وكان ممن شهد الاحتفال بتولية يزيد وسمع ما قاله ذلك المنافق فاكتفى بالسكوت عن المدح . وادرك معاوية فكره فاستفهمهُ عن سبب سكوته فلم يبال ان قال « اخاف الله اذا كذبت واخافكم اذا صدقت » [٢]

واقتدى بمعاوية من عاصره من الامراء او جاء بعده من الخلفاء فنشأ جيل من العرب يهون عليهم السكوت عن الحق وكثر اهل الزلفى والرياء وذهبت حرية القول بتوالي الاعوام

النجدة والاريحية في ايام بني امية

اما النجدة والاريحية فظلتا في العصر الاسلامي العربي متأصلتين في نفوس العرب وان اضطر الامويون الى الاغضاء عنهما في بعض الاحيان . اما على العموم فقد كانتا مرعيتين حتى عند اشد بني أمية استبداداً وظلماً وفي اخبارهم كثير من امثلة ذلك : منها انه جيء الى معاوية في يوم صفين باسير من اهل العراق فقال معاوية « الحمد لله الذي امكنني منك »

فقال الرجل « لا تقل ذلك يا معاوية »

قال « واي نعمة اعظم من ان يمكنني الله من رجل قتل جماعة من اصحابي في ساعة واحدة ؟ اضرب عنه يا غلام »

فقال الاسير « اللهم اشهد ان معاوية لم يقتلني فيك وانك لا ترضى بقتلي وانما يقتلني في الغلبة على حطام الدنيا فان فعل فافعل به ما هو اهله وان لم يفعل فافعل به ما انت اهله »

فقال له « ويحك لقد سببت فابلغت ودعوت فاحسنت ... خليا عنه »

وكان معن بن زائدة قد امر بقتل جماعة من الاسرى فقام اصغر القوم فقال له « يامعن اتقتل الاسرى عطاشاً » فامر لهم بالماء فلما سقوا قال « يامعن اتقتل ضيفانك » فامر معن باطلاقهم

وأُتي الى الحجاج باسرى من الخوارج فامر بضرب اعناقهم فقدم فيهم شاب

(١) ابن الاثير ٢٣٧ ج ٣ (٢) ابن خلكان ٢٣٠ ج ١

فقال « والله يا حجاج لئن كنا اسأنا في الذنب فما احسنت بالعفو » فقال الحجاج « أُفٍّ لهذه الجيف ما كان فيهم من يقول مثل هذا » وامسك عن القتل . وقس على ذلك[1]

وكثيرًا ما كانوا يعرضون انفسهم للقتل رغبة في حسن الاحدوثة ولا سيما عند النساء كما فعل عيسى بن مصعب بن الزبير وهو مع ابيه في مقاتلة محمد بن مروان بالعراق سنة ٧١ هـ اذ تحقق مصعب انه مقتول فاوعز الى ابنه عيسى ان يطلب النجاة فقال « والله لا تتحدث نساء قريش اني خذلتك ورغبت في نفسي عنك » فقال « فاذهب انت ومن معك الى عمك في مكة فاخبره بما صنع اهل العراق ودعني فاني مقتول » قال « لا اخبر عنك قريشًا أبدًا ولكن يا ابتي الحق بالبصرة فانهم على الطاعة او الحق بامير المؤمنين » فقال مصعب « لا تتحدث قريش اني فررت » وحاربوا حتى قتلوا[2]

وظلت الاريحية مرعية في اوائل الدولة العباسية فان الرشيد رفع القتل عن ربيعة بقصيدة رفعها اليه احدهم استنهض بها اريحيته في العفو عنهم[3] ولما عزم المأمون على قتل ابراهيم بن المهدي وكان مصممًا على قتله فشاور فيه احمد بن ابي خالد الوزير فقال « يا امير المؤمنين ان قتلته فلك نظراء وان عفوت عنه فما لك نظير»[4] فعفا عنه

فلما ضعف العنصر العربي في الدولة العباسية بعد تسلط الاجناد الاتراك وتحولت الاغراض في اهل الدولة الى كسب الاموال بأية وسيلة كانت ذهبت الاريحية والنجدة على ان ذهابها بدأ من ايام ابي مسلم الخراساني ... فكم استنجدوه واستحثوه ولم يفعل الاّ ما يوصله الى غرضه ؟

والشيخوخة ظلت مرعية ومحترمة الى عصر العباسيين وما بعده ولا تزال حتى الآن

## المرأة في عصر الامويين

بدأت المرأة بتبديل طباعها من ايام الامويين لان العفة والغيرة اصابهما في ذلك العصر صدمة قوية بتكاثر الجواري والغلمان وانغماس بعض الخلفاء في الترف والقصف وانتشار الغناء والمسكر فتجرأ الشعراء على التشبيب والتغزل وتكاثر المخنثون في المدن وتوسطوا بين الرجال والنساء بالباطل . فاخذ الفساد يفشو بين الناس وضعفت غيرة

(١) العقد الفريد ١٤٠ ج ١ وابن خلكان ١١٠ ج ٢ (٢) الاغاني ١٦٣ ج ١٧ وابن الاثير ١٥٩ ج ٤ (٣) الاغاني ٢٣ ج ١٢ (٤) ابن خلكان ٩ ج ١

الرجال وقلت عفة الناس • فقد رايت ان المراة كانت في الجاهلية واوائل الاسلام تجالس الرجال وتخاطبهم وتذاكرهم والعرب لايرون ذلك منكراً [١] ولا تخامرهم فيه ريبة واذا توسم رجل من رجل نظرة الى امراته او اختـه بريبة طلبه للتبارز او التجالد او المصارعة [٢] (الدويلو) فيتصارعان حتى يصرع احدهما صاحبه •وربما انتشب القتال بين القبائل غيرة على نظرة كما حدث يوم الفجار الثاني [٣] — حتى الشعراء فقد كانوا لا ينظمون النسيب او الغزل الا قليلاً • ويقال ان امرء القيس اول من شبب بالنساء [٤] ومهما يكن من ضعف هذا القول فهو يدل على بعد العرب الجاهلية عن الغزل لفرط غيرتهم على انهم قلما شببوا بعد ذلك الاّ بحبيب او خطيبة • وكانت مغازلة النساء نادرة فيهم فاذا اتفق لاحدهم شيء من ذلك اشتهر امره وذاع خبره كما اشتهر العشاق والمجانين في صدر الاسلام • وربما تعشق بعضهم رغبة في شحذ قرائحهم الشعرية • على ان تشبيبهم في كل حال لم يكن عن ريبة او فاحشة [٥]

وكانوا يتفاخرون بالعفة وامساك هوى النفس وقد يجتمع الحبيبان بعد طول البعد واحتدام الشوق فيجلسان ويتعاتبان ويتحادثان ثم ينصرفان • واشهر الناس في ذلك بنو عذرة واكثر عشاق العرب منهم

التشبيب

فكان العرب الجاهلية قلما يشببون بغير خطيباتهم فاذا شبب احدهم بفتاة قبل ان يخطبها منعوه منها [٦] وكان الخلفاء الراشدون حريصين على آداب القوم فجعلوا التشبيب ذنباً يستوجب القصاص وكان عمر بن الخطاب لا يسمع بشاعر شبب بامرأة الاّ جلده [٧] ونظراً لقلة من يجسر على وصف النساء في شعره كان الشاعر اذا شبب بامرأة اشتهرت فتتزوج ولذلك كان بعض الآباء يطلب من الشاعر أن يشبب ببناته ليتزوجن

فالعرب على فطرتهم وطبيعة اقليمهم وطرق معائشهم اهل عفة والنساء يجتمعن بالرجال في المجالس والاندية على غير ريبة • حتى في الكعبة فكانوا يطوفون معاً لا يرون بذلك بأساً لان العفة كانت غالبة على طباعهم فلما جاءهم الترف واخـذوا باطراف الحضارة وعمدوا الى

---

(١) الاغاني ١٨٣ ج ١ و ١٨٤ ج ٧ (٢) الاغاني ٢٦ ج ١٩ و ٥٤ ج ٦
(٣) الاغاني ٧٤ ج ١٩ (٤) الاغاني ٦٧ ج ٢ (٥) المسعودي ١٢٢ ج ٢
(٦) الاغاني ١٨١ ج ٢٠ (٧) الاغاني ٩٨ ج ٤

التسري والاستكثار من الجواري تغيرت تلك الطباع . فلما كانت امارة خالد القسري على مكة في خلافة سليمان بن عبد الملك الاموي بلغهُ قول بعض الشعراء :

يا حبذا الموسم من موقف    وحبذا الكعبة من مسجد
وحبذا اللاتي يزاحمننا    عند استلام الحجر الاسود

فأمر بالتفريق بين الرجال والنساء في الطواف (١)

وفي ايام بني امية تجرأ الشعراء على التشبيب بالنساء لاسيما في المدينة بعد انتشار الغناء فيها واقبال اهلها على القصف واللهو . ومما زاد غضبهم للتشبب ان الشاعر اذا نظم ابياتاً تغنى بها المغنون في مجالس الشراب . واول من تجرأ على التشبيب من الشعراء القرشيون واسبقهم الى ذلك ابن ابي عتيق ابن حفيد ابي بكر الصديق وكان من اهل الطهارة والعفاف وانما كان يتشبب عن غير ريبة واقتدى به ابن ابي ربيعة وهو قرشيٌ ايضاً وكان كثير النسيب والغزل ومن سمع كلامه ظنه من اجرإ الناس على فاحشة وهو لم يحل ازاره على حرام (٢) واقتدى به العرجي وهو من قريش ايضاً (٣) ونبغ شعراء آخرون من غير قريش واخذوا يشببون بالنساء رويداً رويداً

ولم يكن الخلفاء في اول الامر راضين عن ذلك لتغلب البداوة على اخلاقهم فاخذوا يقاومون تيار الترف بكل قواهم ولكنهم كانوا يدارون الشعراء رغبة في اكتساب الاحزاب على ايديهم فلا يمنعونهم من التشبيب الاَّ اذا مسَّ عرضهم ومع ذلك فالدهاة منهم كانوا يتلطفون في دفعهم . ومن لطيف ما يحكي من هذا القبيل ان عبد الرحمن بن حسان بن ثابت شبب بابنة معاوية وهو خليفة في ابان مجده . وبلغ ذلك ابنه يزيد فغضب ودخل على ابيه وقال « ياامير المؤمنين اقتل عبد الرحمن بن حسان »

قال « ولم »

قال « شبب بأختي »

قال « وما قال »

قال « قال : (٤)

طال ليلي وبت كالمحزون    ومللت الثواء في جيرون

قال معاوية « يابني وما علينا من طول ليله وحزنه ابعده الله » قال « انهُ يقول :

(١) المسعودي ١١٦ ج ٢   (٢) كتاب الحيوان للجاحظ ٢٨ ج ١
(٣) الاغانى ١٥٤ ج ١   (٤) الاغاني ١٤٩ ج ١٣

فلذاك اغتربت بالشام حتى ظن اهلي مرجمات الظنون

قال « يابني وما علينا من ظن اهله » قال « انه يقول :

هي زهراء مثل لؤلؤة الغوا ص ميزت من جوهر مكنون

قال « صدق يا بني » قال « انه يقول :

واذا ما نسبتها لم تجـدها في سناء من المكارم دون

قال « صدق يا بني هي هكذا » قال « انه يقول :

ثم خاصرتها الى القبة الخضـ ـراء تمشي في مرمر مسنون

قال « ولا كل هذا يابني » وما زال يزيد يذكر له ما قاله فيها من التشبيب وهو يدافعه ويظهر انه لا يرى فيه ما يستحق العقاب عليه . ثم كلمه بعض خاصته بشأنه وا كبروا جسارته وقالوا « لو جعلته نكالاً » فقال « لا ولكن اداويه بغير ذلك » واتفق ان عبد الرحمن المذكور وفد على معاوية وكان يدخل في اخريات الناس . فاستقبله احسن استقبال واجلسه على سريره معه واقبل عليه بوجهه وحديثه ثم قال « ان ابنتي الاخرى عاتبة عليك » قال « في اي شيء » قال « في مدحك اختها وتركك اياها » قال « فلها العتبى وكرامة انا ذاكرها وممدحها » فلما فعل وبلغ ذلك الناس قالوا « قد كنا نرى ان تشبيب حسان بابنة معاوية لشيء فاذا هو على رأي معاوية وامره » وعلم من كان يعرف انه ليس له بنت اخرى انه انما خدعه ليشبب بها ولا اصل لها فعلم الناس انه كذب على الاولى لما ذكر الثانية . وشبب ابو دهبل الجمحي ايضاً بابنة معاوية فعامله باللين وقطع لسانه بالعطاء (١)

فقس على ذلك سائر خلفاء بني امية وامرائهم مما يدل على غلبة طبائع البدو في الامويين مع اخذهم باطراف المدنية واختلاطهم بالامم الاخرى وقربهم من اسباب القصف . وكأن تلك الاسباب اخذت بعقول الشعراء فلم يكونوا يقعدون عن التشبيب مع تعرضهم للخطر وقلما كان يجسر على ذلك غير القرشيين واكثرهم جسارة عمر بن ابي ربيعة المتقدم ذكره فانه كان يصطحب ابن سريج المغني فيركبان على نجيبين و يلقيان الحاج فيتعرضان للنساء و ينشدان الاشعار لا يباليان ان يكون فيهن بنت الخليفة او امرأته

والظاهر انهم لم يكونوا يفعلون ذلك الا لما يرون من ارتياح النساء اليه لان المرأة تفتخر بان يثني الشعراء على جمالها وان لم يرض اهلها . فقد كان لعبد الملك بن مروان بنت ارادت الحج فخاف ان يشبب بها ابن ابي ربيعة فاستكتب الحجاج اليه ان هو فعل ذلك

(١) الاغاني ٣٩ و ١٥٩ ج ٦

اصابه بكل مكروه . فلما قضت حجها خرجت فمرّ بها رجل فقالت لهُ « من انت » فقال « من اهل مكة » قالت « عليك وعلى اهل بلدك لعنة الله » قال « ولم ذاك » قالت حججت فدخلت مكة ومعي من الجواري مالم تر الاعين مثلهن فلم يستطع الفاسق ابن ابي ربيعة ان يزودنا من شعره ابياتاً نلهو بها في الطريق من سفرنا » قال « اني لا أراه الاَّ قد فعل » قالت « فأتنا بشيء ان كان قاله ولك بكل بيت عشرة دنانير » فمضى اليهِ فاخبره فقال « لقد فعلت ولكن احب ان تكتم عليَّ » وانشده قصيدة قالها فيها (١)

وممن اشتهر بتعرضه للنساء والتشبيب بهن في ذلك العصر الاخوص كان يشبب بنساء ذوات اخطار من اهل المدينة فشكوه الى سليمان بن عبد الملك فامر بالقبض عليه وجلده ثم نفاه (٢) . ووضاح اليمن كان يشبب بام البنين امرأة الوليد بن عبد الملك وهمَّ الوليد بقتله فمنعه ابنه عبد العزيز وقال « ان قتلته فضحتني وحققت قولهُ وتوهم الناس ان بينه وبين امي ريبة » فامسك عنهُ على غيظ وحنق حتى بلغهُ انه تعدى ام البنين الى اختها فاطمة بنت عبد الملك وكانت زوجة عمر بن عبد العزيز وقال فيها :

بنت الخليفة والخليفة جدُّها اخت الخليفة والخليفة بعلها
فرحت قوابلها بها وتباشرت وكذاك كانوا في المسرة اهلها

فاحتنق واشتد غيظه وقال « اما لهذا الكلب مزدجر عن ذكر نسائنا واخواتنا ولا لهُ عنا مذهب ؟ » ثم دعا بهِ فاحضر وامر ببئر فحفرت ودفنهُ فيها حياً (٣)

فكانت ايام بني امية من حيث العفة والغيرة عصر انتقال من البداوة الى الحضارة . فلما انقضى عصر الامويين ذهب ما بقي من سذاجة البداوة في طبائع العرب واستسلم الناس للترف والرخاء وضعفت الغيرة وابيح التشبيب وشاع على السنة الشعراء حتى صاروا يصدرون بهِ قصائد المدح والفخر . وكان الخلفاء الاولون من بني العباس لا يزالون على مقربة من البداوة فانكروا ذلك ونهوا عنهُ . ومن اشدهم غيرة المهدي بن المنصور فان بشاراً انشده مديحاً فيهِ تشبيب فنهاه عن التشبيب البتة فصار اذا مدحهُ بدأ بالمدح (٤) فظلَّ التشبيب مستقبحاً حتى اباحهُ الرشيد والحَّ في نظمه (٥) فآل ذلك طبعاً الى ضعف الغيرة

---

(١) الاغاني ١٢٨ ج ٢ (٢) الاغاني ٤٨ ج ٤ (٣) الاغاني ٤٠ ج ٦
(٤) الاغاني ٤١ و٥٨ ج ٣ (٥) الاغاني ١٦٠ ج ٣

# الآداب الاجتماعية

## في العصر العباسي

قد رأيت ما اصاب المناقب العربية الفطرية من التغيير بعد الاسلام بما طرأ عليها من عوامل الحضارة والانغماس في الرخاء والقصف والاختلاط باهل المدن فغلبت عليهم الضعة وركنوا الى بسطة العيش والتنعم بمطالب الحياة الحيوانية وزادهم العلم والفلسفة والطب تباعداً عن البداوة وخشونتها وسذاجتها وقضت سياسة العباسيين بمراعاة الفرس وغيرهم ممن نصروهم في قيام دولتهم وتشتيت شمل العرب فذهبت العصبية العربية · واستلزمت رغبتهم في بقاء دولتهم العدول الى الفتك والغدر على ما فصلناه في الجزء الرابع فذهبت مناقب العرب ولم يبق من الوفاء والشجاعة والاستقلال والانفة والعصبية والنجدة الا آثار ضعيفة

## المرأة في العصر العباسي

وآل تكاثر الجواري وشيوع التسري الى ذهاب الغيرة من قلوب الرجال حتى صاروا يتهادون الجواري الروميات والتركيات والفارسيات وهن اجمل صورة واشرق وجهاً من نساء العرب · فبعد ان كان الرجل لا يعرف غير امرأته والمرأة لا تفكر في غير زوجها وهي واثقة بامانته فاذا هو قد تشتتت عواطفه بين عدة نساء فقلت غيرته عليها · ولما رأته مشغولاً عنها قلت ثقتها به الا من عصمها عقلها وشرفها · فلم ينضج التمدن في العصر العباسي حتى تنوسيت المرأة العربية في المدن وذهبت حريتها وغيرتها وصارت هي نفسها تهدي زوجها الجارية وتحبب اليه القرب منها لا يهمها ذلك ولا تغار منه[1] و بعد ان كان العرب في الجاهلية وصدر الاسلام اذا علموا بحب رجل فتاة منعوه من زواجها صاروا يساعدونه في الحصول عليها[2]

فافضى ذلك الى انحطاط المرأة وذهاب عزة نفسها واستقلال فكرها فاحتقرها الرجل وساء الظن بها وصار يعدُّها عدوة له و يوصي بعدم الاركان اليها فيعاشرها على غلّ وسوء رأي يقفل عليها الابواب والنوافذ و يسد في وجهها الطرق والمسالك و يمنعها من الخروج او الكلام وهو صاحب الذنب في انحطاطها · فاصبح الطعن في طباع المرأة وسوء سريرتها شائعاً على السنة الناس حتى الفوا فيه الروايات والاقاصيص ونظموا فيها الشعر وتفننوا في وضع

(١) الفرج بعد الشدة ١٨٣ ج ٢ (٢) تزيين الاسواق ١٢٢

الجمل الحكمية والعبارات البليغة في تحذير الناس من المرأة وعدم الوثوق بها · وهذه قصة الف ليلة وليلة تمثل حال المرأة في الاعصر الاسلامية الوسطى بعد شيوع التسري وانغماس المسلمين في الترف · واما الاشعار فاليك ما قاله ابو العلاء المعري :

اذا بلغ الوليد لديك عشرًا فلا يدخل على الحرم الوليدُ
وان خالفتني واضعت نصحي فانت وان رزقت حجا بليد
الا ان النساء حبال غيٍّ بهنَّ يضيع الشرف التليد (١)

واصبح الكاتب اذا أراد تعزية صديق على فقد بنت له قال ما قالهُ ابو بكر الخوارزمي اذ كتب الى رئيس بهراه يعزيه ببنته وهو قوله :

« ولولا ما ذكرته من سترها · ووقفت عليه من غرائب امرها · لكنت الى التهنئة اقرب من التعزية · فان ستر العورات من الحسنات · ودفن البنات من المكرمات · ونحن في زمان اذا قدم احدنا فيه الحرمة · فقد استكمل النعمة · واذا زف كريمة الى القبر · فقد بلغ امنيته من الصهر قال الشاعر

ولم ار نعمة شملت كريمًا كنعمة عورة سترت بقبر

وقال آخر

تهوى حياتي واهوى موتها شفقًا والموت اكرم نزال على الحرم

وقال آخر

وددت بنيتي وددت اني وضعت بنيتي في لحد قبر

وقال آخر

ومن غاية المجد والمكرمات بقاء البنين وموت البنات

وقال آخر

سميتها اذ ولدت تموت والقبر صهر ضامن وبيت » (٢)

هذا مثال من اراء ادباء المسلمين وشعرائهم في المرأة بين القرنين الرابع والخامس للهجرة فلم يبق من المناقب العربية في العصر العباسي الاّ السخاء لانه كان لازمًا لقوام الدولة وسلامتها وتأييدها بل هو كان من اهم قواعد الارتزاق في ذلك العصر

(١) الف باء ٧٧ ج ٢ (٢) رسائل الخوارزمي ٢٠

# الارتزاق بالسخاء

ان الارتزاق في التمدن الحديث مبني على قواعد اقتصادية عمرانية تحفظ توازن القوى ونتائجها فينال الانسان من رزقه على مقدار كدّه وجدّه مع اعتبار درجة عقله وذكائه سواء كان ذلك بالتجارة او الزراعة او الصناعة او غيرها . وقد وضعوا لكل من ابواب الرزق قواعد في تقدير الارباح لا تتعداها الا في احوال خصوصية ترتفع فيها الاسعار فجأة كما حدث بمصر لهذا العهد . وفي كل حال فالصانع تقدر أجرته بمقدار عمله والتاجر يقدر ربحه بنسبة رأس ماله

اما في التمدن الاسلامي فقد كان الارتزاق يقرب من ذلك في طبقة العامة من المزارعين والباعة واهل الصناعات . واما في الخاصة واتباعهم فكان على اسلوب آخر لامثيل له بين المتمدنين في هذا العصر ومداره « السخاء » المتسلسل من الخلفاء فالوزراء فما بعدهم ممن يعيشون حول البلاط و يرتزقون من رجال الدولة . ومصدر هذه الارزاق بيت المال وهو في قبضة الخليفة او من يقوم مقامه من الوزراء او القواد او الامراء على حسب اطوار النفوذ . والاموال تأتي بيت المال من جباية الخراج والجزية . وقد رأيت في الجزء الثاني من هذا الكتاب (صفحة ٦٤و٧٠) ان متوسط جباية الدولة في العصر العباسي الاول بلغ نحو ٣٦٠ مليون درهم في العام لا ينفق منها على مصالح الدولة اكثر من ٥٠ مليوناً فالباقي نحو ٣٠٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم تبقى في بيت المال تحت تصرُّف الخليفة واكثرها من جباية الخراج وكان الخراج في العصر المذكور ثقيلاً لانهم كانوا يقاسمون الناس غلاتهم بالنصف او الثلث وذلك في نظر اهل هذا الزمان ظلمٌ ولكن اهل ذلك العصر لم يشعروا بثقله بل كانوا يعدونه رفقاً لان العباسيين نقلوا الخراج من المساحة الى المقاسمة فبعد ان كان الحكام قبلهم يقتضون خراج الارض زرعت ام لم تزرع حصروا الخراج في الارض المزروعة وجعلوه شطراً من غلتها [1]

سنة العرب في الارتزاق

والاموال التي تبقى في خزانة الدولة يعطى بعضها رواتب لموظفيها و يفرق سائرها في من بقي من الخاصة بين جوائز ورواتب فتتسع احوالهم بالجاه اكثر مما بالمال فيضطرون الى الانفاق لحفظ مقامهم . فينفقون على من يتعلق بهم فينتقل المال على هذه الصورة من الخليفة

(١) الجزء الثاني ٨٦

ووزرائه وعماله الى حواشيهم واتباعهم ومن هؤلاء الى الباعة واهل الاسواق فيعود الى العامة كانه لم يؤخذ منهم . وهي سنة في الارتزاق تظهر لاول وهلة انها من خصائص التمدن الاسلامي ولكنها كانت على نحو ذلك في التمدن القديم . فاهل اثينا وهم خاصة اليونانيين كانوا لا يعملون عملاً ولا يحترفون حرفة في سبيل الرزق وانما كانت ارزاقهم من خزينة الدولة يتناولونها رواتب في اوقات معينة او هبات في اوقاتٍ غير معينة على مقتضيات الاحوال او على ما يلحقهم من الغنائم ونحوها . ولم يكن لهم شغل غير سماع الخطب السياسية او العلمية والتمشي في حدائق المدينة وحضور الاحتفالات الرسمية ونحوها[1] ولكن ذلك كان محصوراً في اثينا او غيرها من العواصم الكبرى اما المسلمون فتوسعوا فيه حتى شمل كل مدينة وكل طبقة لتمكن السخاء في نفس العربي ولان هذه السنة كانت شائعة عند العرب من ايام الجاهلية . فامير القبيلة كان يغزو بقبيلته فما وقع له من مال وماشية فرقه في كبار رجاله وهؤلاء يفرقونه في اهلهم واتباعهم ولذلك ذكروا من سنن العرب في الارتزاق انهم « نهابون وهابون »[2] وكان العرب يكرهون اختزان الاموال و يعدونه قبيحاً[3]

والسبب في بقاء هذه السنَّة مع ذهاب غيرها من المناقب انها لازمة لبقاء الدول في تلك العصور وخصوصاً في الاسلام منذ طمع بنو امية بالخلافة واستخدموا الاموال في ابتياع الاحزاب واسترضاء كبار الرجال فعوّدوا الناس العطاء فلما قام العباسيون لم يستطيعوا الرجوع عنه بل تجاوزوه من بعض الوجوه فصار السخاء ضرورياً لقيام الدولة والاّ فسد عليها حماتها وتمرّد اهلها

وكان الصحابة في عصر الراشدين لا يرون اختزان المال جريًا على سنة العرب أو عملاً بحديث رواه قيس بن عاصم بهذا المعنى وهو قول النبي « نعم المال الاربعون والاكثر الستون وو يل لاصحاب المئين »[4] ولذلك كان الخلفاء الراشدون لا يبقون في بيت المال شيئًا . على ان المسلمين في ايامهم كانوا مشتغلين بما بين ايديهم من الغنائم وكانوا لا يزالون في دهشة النبوة والاخلاص في الجهاد والخراج في ايامهم معتدل فلم يكن يفيض منه شيء كثير فلما طمع الامويون بالملك اتخذوا كل وسيلة في جمع المال والاستكثار منه وزادوا اعطيات الجند ووهبوا واجازوا وضاعفوا رواتب ابناء الصحابة وغيرهم من القرشيين اصحاب النفوذ فكان

---

(١) Library of Univ. Hist, II 750

(٢) ابن خلكان ١١٧ ج ٢ (٣) الاغاني ١٥٦ ج ١٢

(٤) الاغانى ١٥٢ ج ١٢

هؤلاء يتوسعون في الانفاق ببناء القصور واقتناء الخدم والجواري و يهبون الشعراء والندماء والحاشية والاتباع فيذهب ذلك المال كما أتى

كذلك كان يفعل عبيد الله بن عباس وعبدالله بن جعفر وسعيد بن العاص [١] فيفد احدهم على معاوية أو يزيد فيؤدي له عطاءه وربما اهداه هدية سنية فيعود الى بلده ويفرق المال جميعه في اهله واعوانه [٢] وكان الخلفاء يعرفون ذلك و يعدُّون عطاءهم لهؤلاء عطاء لاهل المدينة [٣] وليس ذلك خاصاً بفئة منهم بل كان شاملاً الاكثرين حتى النساء من بنات الصحابة كسكينة بنت الحسين وعائشة بنت طلحة وغيرهما فكانت عائشة هذه تفد على الخليفة وربما كانت في ضيق فتشكو اليه فراغ يدها فيأمر لها بمائة الف درهم مثلاً فلما تعود الى الحجاز يأتيها الشاعر أو الفارس فتعطيهم الالف بعد الالف حتى تستنفد ما جاءت به [٤] — حتى الشعراء كانوا يبذلون بعض جوائزهم في من حولهم ولذلك كانوا مع كثرة ما يصل الى ايديهم من المال لا يزالون مديونين و يموت اكثرهم فقراء [٥]

ولما افضى الامر الى العباسيين ساروا على هذه السنة في الاعطيات والجوائز وزادوا مقاديرها لتوفر الثروة في ايامهم . وكان اصحابها يفرقونها في الناس . فموسى الكاظم كان يقيم في المدينة و يفد على بغداد فيرده المهدي مثقلاً بالاموال فلما يصل الى المدينة يجعلها صرراً يفرقها في اهلها [٦] وكانوا يفعلون ذلك مع العمال والكتاب والشعراء والمغنين وهؤلاء ينفقون المال بالسخاء على تفاوت في درجاته وسائر احواله . وربما انفقوا بعضه في حاشية الخليفة او غلمانه [٧] ليسهلوا لهم الدخول عليه

استرضاء العامة بالطعام

فكان الخلفاء او الامراء يعدون السخاء على العامة والخاصة فرضاً يؤيدون به سلطتهم . اما العامة فكانوا يسترضونهم بابسط اساليب السخاء وهو الضيافة فكانوا ينصبون لهم الموائد يدعونهم الى الطعام فيجتمع على مائدة الامير الوف من العامة يأكلون معاً صباحاً ومساءً — ذلك كان دأبهم من عصر الراشدين جروا به على سنة العرب ثم احتاجوا اليه بعد الاسلام في استرضاء القبائل المختلفة فبالغوا فيه حتى نصبوا الموائد

(١) العقد الفريد ٨٥ ج ١ (٢) المسعودي ١١١ ج ٢
(٣) العقد الفريد ١١٠ ج ١ (٤) الاغاني ٦١ ج ١٠
(٥) الاغاني ١٧٠ ج ٥ و ١٥٦ ج ١٧ (٦) ابن خلكان ١٣١ ج ٢
(٧) الاغاني ٨٤ ج ٥ و ٤٦ ج ٣ و ١١ ج ١٢

على الطرق واول من فعل ذلك عبيد الله بن عباس [١] واشتهر في صدر الاسلام غير واحد من الاجواد ممن كان يقبضون الاعطية الكبيرة من خلفاء بني امية فينفقونها في البذل والسخاء وقد تقدم ذكرهم

وجرى الدهاة من عمال الامويين على هذه السنة فنصبوا الموائد على الطرق فكان الحجاج يضع في كل يوم من ايام رمضان الف خوان وفي سائر الايام خمسمائة خوان على كل خوان عشرة انفس وعشرة الوان وسمكة مشوية طرية وارزة بسكر وكان يدور هو بنفسه على الموائد يتفقدها يحملونه اليها في محفة و ينتقلون به من خوان الى خوان فاذا رأى ارزة ليس عليها سكر امر الخباز ان يجيء بسكرها فاذا ابطأ حتى أكلت الارزة بلا سكر امر به فضرب ٢٠٠ سوط وكذلك كان يفعل عمال الحجاج في سائر المدن فكان بعضهم ينصب الموائد مرتين في اليوم للغداء والعشاء [٢] وكان يوسف بن عمر عامل هشام بن عبد الملك ينصب خمسمائة خوان [٣] وكان يزيد بن هبيرة يضع الف خوان يطعم الناس [٤] وقس على ذلك سائر العمال وغيرهم كابن طولون بمصر فقد كانت له موائد يحضرها الخاص والعام [٥] وربما فرقوا الطعام بلا موائد كما كان يفعل لؤلؤ الحاجب في ايام الفاطميين بمصر فانه كان يفرق ١٢,٠٠٠ رغيف مع قدر الطعام كل يوم واذا دخل رمضان اضعف ذلك ويقف هو بنفسه ليفرقه [٦]

غير ما كانوا يبذلونه في استرضاء العامة من الاموال على سبيل الصدقة فكان لكل من الخلفاء والامراء والوزراء مال ينفقه صدقة كل يوم على ما قدمناه في الجزء الثاني من هذا الكتاب وربما فعل بعضهم ذلك لمجرد الرغبة في الأجر او عملاً بمقتضى الاريحية

واطعام العامة على هذه الصورة لم يكن خاصاً بالمسلمين وانما هو ايضاً من سنن الاعصر الغابرة . فقد كان العامة في رومية يعيشون من اطعمة يفرقها فيهم اهل الدولة من الدقيق واللحم وكان بعض ملوك الفرس ينصب ٥٠٠ مائدة يجعل على كل واحدة نصف شاة وجام حلوى او عسل وعشرة ارغفة وآنية شراب او لبن وسمكة مصنوعة [٧] والمسلمون جروا على هذا الترتيب اقتداء بالفرس مثل اقتدائهم بهم في كثير من ادابهم الاجتماعية

---

(١) العقد الفريد ٨٣ ج ١ (٢) العقد الفريد ٦ ج ٣ وابن خلكان ٨٢ ج ١
(٣) العقد الفريد ٦ ج ٣ (٤) ابن خلكان ٢٧١ ج ٢
(٥) ابن خلكان ٥٥ ج ١ (٦) المقريزي ٨٥ ج ٢
(٧) ترتيب الدول ١٢٠

واما الخاصة او من جري مجراهم من المقربين غير الموظفين فكان الخلفاء يهبونهم الهبات او يعينون لهم الرواتب لتقييد ارادتهم[1] كما تقدم ولذلك كان اهل الانفة يكرهون صلات الخلفاء ويبعدون عن جوائزهم رغبة في الاستقلال واكثر ما يقع ذلك لاهل البادية الذين لم تذلهم الحضارة ولا سيما بعد نكبة البرامكة فقد طال حديث الناس يومئذ بامرهم وغلب على اعتقادهم ان من يثري من هبات الخلفاء تكون حياته في خطر — ذكروا ان بدويًا عيرته امرأته بفقره لبعده عن جوائز الخلفاء الى ان قالت « هذا فلان قد أخذ الاموال فحلى نساءه وبنى داره واشترى ضياعًا وانت ههنا كما ترى » وكانت امرأته باهلية فانشأ يقول :

تلوم على ترك الغنى باهليـة ... ذوى الفقر عنها كل طرف وتالد
رأت حولها النسوان يرفلن في الثرى ... مقلدة اعنـاقها بالقلائد
أسرّكِ اني نلت ما نال جعفر ... من العيش او ما نال يحيى بن خالد
وان امـير المؤمنين اغصـني ... بغصهما بالمشرفات النوارد
رأيت رفيعات الامور مشوبة ... بمستودعات في بطون الاساود
دعيني تجيني منيتي مطمئنـة ... ولم اتجشّم هول تلك المـوارد[2]

الهبات والدين

على ان الفقهاء واهل التقوى كانوا في صدر الاسلام واوائل دولة بني امية يعدون صلات الخلفاء رشوة ويترددون في قبولها فما لبثوا ان ذاقوا حلاوتها حتى صاروا يتفاخرون بنيلها قال ذو الرمة :

وما كان مالي من تراث ورثته ... ولا دية كانت ولا كسب مأثم
ولكن عطاء الله من كل رحلة ... الى كل محجوب السرادق خضرم[3]

ثم صاروا يتزلفون الى اصحاب الاموال ويستجدونهم رغبة في الارتزاق . فبعضهم ينال رزقه صلة او جائزة وآخرون يقبضونه راتبًا معينًا وهؤلاء على الغالب من اهـل البأساء وايتامهم واراملهم[4] او زعماء القبائل ورؤساء الاحزاب على مايوافق مصلحة الخليفة او الامير او يتوسم فيه الاجر والثواب . فكان بعضهم يفرض الفروض لاولاد الانصار والمهاجرين وغيره يعطي العلويين او الطالبيين وغيره يعطي قريشًا او اليمن وقس عليه . فكان علي بن عيسى وزير المقتدر يعطي الطالبيين والعباسيين وابناء الانصار[5] وكان ابن الفرات يعطي

(١) الاغاني ١٥٤ ج ١٧ (٢) الاغاني ٩ ج ١٢ (٣) العقد الفريد ٧٨ ج ١
(٤) ابن الاثير ١٥٤ ج ٦ (٥) تاريخ الوزراء ٣٢٣

الفقهاء والعلماء والفقراء واهل البيوتات اكثرهم مائة دينار في الشهر واقلهم خمسة دراهم ومابين ذلك [١] وكان لكافور الاخشيدي بمصر مالٌ خاص يجري منه الارزاق على من يأتيه ناقماً على الخليفة ببغداد او غيره [٢]

ولهذه الاسباب كان الخلفاء يستحلون اجازة الشعراء وغيرهم من بيت المال لانهم يعدُّون ذلك في سبيل مصلحة الدولة وان لم يصرحوا به دفاعاً عن انفسهم بل كانوا اذا سمعوا الانتقاد عليهم من اهل النفوذ الديني سكتوا واسترضوهم ودافعوا عن انفسهم كما فعل الرشيد والمهدي بسفيان الثوري [٣]

ارتزاق الكبير من الصغير

ذلك ما يقال في ارتزاق الصغير من الكبير في التمدن الاسلامي اما ارتزاق الكبير من الصغير فقد كان بعضهُ بالسخاء ايضاً ولكن على سبيل الهدية فيعدون عطية الامير الى الصغير جائزة او صلة ويسمون مايقدمه الاصاغر الى الامير او الوزير هدية . وكانت الهدايا شائعـة على الخصوص في العصر العباسي فاذا تولى الامير على بلد فاول ما يدخلها يبعث اهلها اليهِ بالهدايا من الاموال والجواري والدواب والثياب [٤] وهو يبعث الى الوزير الذي ولاه او الخليفة بالاموال بسبيل الهدية ايضاً واذا طال مقامه اصبحت تلك الهدايا فرضاً واجباً يبعث بها كل سنة فاذا امسكها سنةً عدوا امساكه تمرداً [٥]

فالسخاء كان سنَّة عامة في عهد ذلك التمدن لا يستثنى منهُ عصر او طائفة وان تفاوتت مقاديره واختلفت صوره واشكاله باختلاف العصور . فكانت العطايا في اول عهد الامويين الابل والخيل والماشية فيأمر الخليفة او الامير لمن يستجديه بلقحة وفحلها وراعيها أو جارية وفرس غير ما فرضوه من الاعطيات فانها كانت تعطى عيناً او ورقاً — ثم صارت في اواسط الدولة تخوت الثياب من الوشي ونحوه والوصائف فضلاً عن النقود وصارت في بني العباس البدر من الدنانير وعقود الجوهر وتخوت الديبقي والقصور والضياع وغيرها

---

(١) ابن خلكان ٣٧٢ ج ١ (٢) الفرج بعد الشدة ١٤٢ ج ٢
(٣) سراج الملوك ٥٦ وراجع الجزء الثاني من هذا الكتاب صفحة ١٤١
(٤) ابن الاثير ٥١ ج ٦ (٥) ابن الاثير ١٢١ ج ٧

# المجاملة في المعاملة

المجاملة من الطباع الراسخة في نفوس المسلمين وغيرهم من مولدي العرب اليوم . وذهب بعض الباحثين انها فطرية في اصل ارومتهم وما هي كذلك وانما تولدت فيهم بتوالي الاجيال وتقلب الاحوال . لان العرب كانوا مفطورين على استقلال الفكر وحرية القول كما رأيت وظلوا على ذلك الى انقضاء عصر الراشدين ثم اخذت افكارهم بالانحباس وعقولهم بالتقيد من عصر الامويين لما اقتضاه طمع بني امية في الملك من الشدة والحيلة فاضطر الناس للمداجاة والتمويه . وكان الخلفاء من الجهة الأخرى يداجون الناس ويجاملونهم رغبة في نصرتهم او قطع السنتهم ويعدُّون ذلك « حلماً »

واشهر الحلماء واقدمهم معاوية بن ابي سفيان فقد ذكرنا في الجزء الرابع صفحة ٦٦ انهُ كان يسمع طعن اهل البيت وغيرهم من رؤساء الاحزاب فيه وفي دولته ويغضي وربما احسن الى الطاعنين . اوتظاهر بالاستخفاف كما فعل بشعبة بن غريض وكان في الكعبة ومعاوية هناك فبعث اليه يدعوه فاتاه رسولهُ فقال « أجب امير المؤمنين »

قال « اوليس قد مات امير المؤمنين » ( يعني علياً ) فقال له « اجب معاوية » فأتاه ولم يسلم عليهِ بالخلافة فقال لهُ معاوية « ما فعلت ارضك التي بتيماء » قال « يكسى منها العاري ويردُّ فضلها على الجار » قال « اتبيعها » قال « نعم » قال « بكم » قال « بستين الف دينار ولولا خلة اصابت الحي لم ابعها » قال « لقد اغليت » قال « اما لو كانت لبعض اصحابك لاخذتها بستمائة الف دينار ثم لم تبال » قال « أجل واذ بخلت بارضك فانشدني شعر ابيك يرثي نفسهُ »

فانشده تلك الابيات فاعجب بها معاوية وقال « انا كنت بهذا الشعر اولى من ابيك » قال « كذبت ولؤمت » قال « اما كذبت فنعم واما لؤمت فلم » قال « لانك كنت ميت الحق في الجاهلية وميته في الاسلام اما في الجاهلية فقاتلت النبي صلى الله عليه وسلم والوحي حتى جعل الله كيدك المردود واما في الاسلام فمنعت ولد رسول الله الخلافة وما انت وهي وأنت طليق ابن طليق » فقال معاوية « قد خرف الشيخ فاقيموه » فاخذ بيده فاقيم

وكان معاوية اذا اعجزهُ اصطناع الاحزاب بالعطاء او بالحلم او بالسيف جهاراً

عمد الى قتلهم غيلة وكان انصاره يعرفون ذلك فيه وانه يصانعهم ليغلب بهم فكانوا يصانعونه طمعاً بمالٍ او منصبٍ فكانت المصانعة والمداجاة اساس سياسة معاوية . وقد قواها واستثمرها بدهائه وحزمه ففاز وتحدث المسلمون بحلمه وسعة صدره وجعلوه قدوتهم والناس على دين ملوكهم . فكثر الميل الى المصانعة في ذلك العصر وهي على الغالب بين الدولة ورجالها — على ان الاريحية كانت تحول دون تمكنها

فلما قام الفرس لمناهضة الامويين ونصرة العباسيين اغضى ابو مسلم عن الوفاء والاريحية وقتل على التهمة فاصبح الناس يخافون على حياتهم وان لم يقترفوا ذنباً . فزادت حاجتهم الى المصانعة . ولما فاز ابو مسلم بحربه وسلّم مقاليد الدولة الى العباسيين كانت فوضى بينهم وبين العلويين فلما تقلدها المنصور وطمع باستخلاصها للعباسيين فتك بابي مسلم ثم قتل من قتله من العلويين وغيرهم فتضاغنت القلوب بين العباسيين والفرس وبينهم وبين العلويين وهم لا يستغنون عن الفرس لنظام حكومتهم وحماية دولتهم فاستخدموهم على غلٍ ولجأوا في الاحتراس منهم واتقاء اذاهم الى الجاسوسية فبثوا الارصاد على وزرائهم وعمالهم يستطلعون اخبارهم ويبعثون بها اليهم سرًّا والارصاد نوعان الاول اصحاب البريد في الاطراف والعمال يعلمون انهم رقباء على اعمالهم . والثاني العيون الخفية يتخذونهم من الجواري والغلمان مما يقدمه الخليفة هدية الى وزيره او عامله فيوليهم الوزير بعض شؤون منزله فيدخلون في جملة الندماء او المغنين او القيان او اصحاب الشراب ويكونون رقباء عليه ينقلون اخباره سرًّا الى الخليفة . وكان الوزراء يفعلون نحو ذلك بالخلفاء

فشيوع الجاسوسية على هذه الصورة مع المضاغنة والتحاسد بعث على المصانعة والمجاملة وازداد ذلك على الخصوص بعد ذهاب الاريحية وزوال الانفة وعزة النفس من العرب على اثر تضعضع العنصر العربي وتغلب العناصر الاعجمية مع تنافس اصحاب المطامع من هؤلاء في اواسط الدولة العباسية بابتزاز الاموال . واعتبر ما عقب ذلك من الاستبداد والظلم بعد ان فسدت الاحكام في الدول الاسلامية واستبد السلاطين والامراء غير العرب بمن اقام في ممالكهم من اهل اللسان العربي ويسمونهم عرباً وهم اخلاط من مولدي الامم الأُخرى . فلجأ هؤلاء بطبيعة العمران الى المجاملة والمصانعة على نحو ما هو حالهم اليوم — الاَّ الذين أُوتوا السيادة وتوفرت لهم السطوة ونفوذ الكلمة اجيالاً متوالية

# العائلة في التمدن الاسلامي

كانت العائلة في اواسط التمدن الاسلامي نحو ما هي عليه اليوم وقوامها المرأة وقد تقدم الكلام عليها فلانطيل القول في ذلك الآن وانما نقول كلمة في بعض خصائص العائلة الاسلامية كالحجاب وتعدد الزوجات والطلاق

## ١ — الحجاب

اذا كان المراد بالحجاب ستر العورة كالخمار ونحوه فهو ليس من محدثات الاسلام بل هو قديم كان شائعاً قبل النصرانية ولم تغير النصرانية شيئاً منه وظلّ معروفاً في اوربا الى الاجيال الوسطى وما بعدها ولا تزال آثاره باقية في اوربا الى الآن

واذا اريد به حبس المرأة في بيتها ومنعها من مخالطة الناس فهو من ثمار التمدن الاسلامي لانه لم يكن شائعاً قبله. على انه لم يبلغ الحد الذي بلغ اليه من الشدة والدقة الاّ بعد نضج المدنية وتمكن الحضارة من نفوس المسلمين وارتكانهم الى الترف والرخاء وقد رأيت في كلامنا عن المرأة البدوية انها كانت مساوية للرجل حتى نبغ من مضارب البادية نساء اشتهرن بالشجاعة والاقدام والحزم والرأي والتجارة والادب والشعر وغيرها. فلما انتشر الاسلام وكثرت الجواري وشاع التسرّي في المسلمين اختلفت الظنون بين الرجل والمرأة فقلّت غيرته عليها وساء كل منهما الظن في صاحبه والرجل صاحب العصمة ورب العائلة فضيق على المرأة الدروب واقام عليها الارصاد والعيون من اوائل الدولة الاموية اذ اتخذوا الخصيان من العبيد ثم استقدموا الصقالبة البيض

فالحجاب الضيق على نحو ماشائع في العائلات الاسلامية بالشرق سببه سوء ظن الرجل واستبداده باهل بيته واستئثاره بالملذات لنفسه وليس هو من مقتضيات الاسلام كما يتبادر الى الاذهان. ولو راجعت ما جاء في القرآن من هذا القبيل لرأيت تفسيره اقرب الى ما يراد من رفع الحجاب. ولكن الناس تعودوا ان يفسروا الآيات الدينية بما يوافق عاداتهم او اغراضهم او اميالهم. اعتبر ذلك في كل دين تمدن اهله وعمدوا الى تفسير كتبه — فكتب النصارى مثلاً ليس فيها نصٌّ صريحٌ يمنع عامتهم من التزوج بامرأتين فاكثر ولكن الكنيسة رأت الاقتصار على امرأة اقرب الى سعادة العائلة ونظام الاجتماع فاستخرج رؤساء الدين ذلك من بعض القرائن بالتفسير والتأويل. والمسلمون لما استكثروا من الجواري

وساءت الظنون بينهم و بين نسائهم ارادوا الحجر عليهن ولم يعدموا تفسيرًا يساعدهم على ما ارادوا فحبسوها وضيقوا عليها · واعتقدت هي بتوالي الاجيال انه يحلّ للرجل ما لا يحلّ لها فصبرت عليه وخافته ولكنها لم تحبه · فخافها وحبسها وجعل بينه وبينها حاجزًا وغادرها تجالس الخدم والعبيد والجواري واصبح لا يؤاكلها ولا يجالسها ولا يحادثها الا نادرًا واعلن ارتيابه من امانتها واصبح يفتخر بانها لا تخرج من منزلها الاّ الى القبر

على ان ظلم المرأة على هذه الصورة واحتقارها تخالف لتعاليم القرآن لانه يأمر بالمودّة والرحمة بين الزوجين وهـذا نصّ الآية « ومن آياته ان خلق لكم من انفسكم ازواجًا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودّةً ورحمةً » وقوله « ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف » وقوله « وعاشروهن بالمعروف » ولكن الرجل ابى الى الاستبداد والاستئثار ولا سيما بعد انقضاء عصر العلم اذ اقتصر الفقهاء على النظر في الابحاث الدينية الجدلية وخيم الجهل على العقول كما اصاب النصرانية في الاجيال المظلمة فأخذوا يفسرون الآيات والاحاديث على ما يوافق اميالهم واهواءهم · وكانت الاحكام قد فسدت واستبد الحكام في الناس فعادت عاقبة ذلك على المرأة المسكينة

لان الرجل في طور الظلم يتحمل بطش الحاكم وعسفه ويكظم ما في نفسه حتى اذا جاء منزلهُ عامل اهله مثل معاملة الحاكم له انتقامًا لنفسه — تلك سنة من سنن العمران على اختلاف اطوار التمدن · فالبلاد التي يتولاها حاكم ظالم يقتدي به ارباب العائلات بظلم نسائهم واولادهم واما في الحكم العادل فالمرأة تنال حقوقها والرجل يعدل في حكومته · فالبيت دولة صغيرة تمثل دولة الامة

وما زالت المرأة المسلمة في نحو ما تقدم الى اوائل هذه النهضة والمسلمون سكوت حتى تصدّى بعض ارباب الاقلام من المسلمين في اواسط القرن الماضي ونددوا بالحجاب وعواقبه وحرضوا اخوانهم على تركه · واقدم من فعل ذلك على ما نعلم المرحوم الشيخ احمد فارس الشدياق فكتب الفصول الضافية في الجوائب بالاستانة ثم كتب غيره فصولاً لا تشفي غليلاً · حتى ظهر كتاب تحرير المرأة في آخر القرن المذكور لصاحبه قاسم بك امين فوفى الموضوع حقه ولم يترك مجالاً لسائل

٢ — تعدد الزوجات

ومن آفات العائلة الاسلامية تعدد الزوجات وهي ان يتخذ الرجل زوجتين الى اربع والشرع الاسلامي يجيزهُ ذلك بشرطٍ اذا روعي حقّ رعايتــه لم يتخذ الرجل الاّ زوجة

واحدة . لان الآية التي تجيز تعدد الزوجات تشترط ان يعدل الرجل بينهن فاذا خاف ان لا يعدل فيقتصر على واحدة وهذا نص الآية « فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فان خفتم ان لا تعدلوا فواحدةً » وفي محل آخر « ولن تستطيعوا ان تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلّقة » فاذا جمعتَ بين الآيتين رأيت نحواها اقرب الى النهي عن تعدد الزوجات مما الى الامر به . ولذلك رأيت الغالب في العقلاء واهل المروأة ان يكتفوا بزوجة واحدة وكان ذلك سهلاً في عصر التسري اذ قد يأتي النسل من بعض الجواري فلا يجد الرجل ضرورة للاضرار رغبة في النسل . على ان تعدد الزوجات ظل متبعاً حتى في اهل الفضيلة والتعقل الى اليوم ولكن على قلّة . واذا احصي المتزوجون بغير امرأة لا اظنهم يزيدون على خمسة في المئة او عشرة من مجموع المتزوجين وهم في الغالب من العامة واذا كانوا من الخاصة فانما فعلوا ذلك لاسباب قهرية

ومن اجاز تعدد الزوجات ذهب الى تفسير « العدل » بالعدل في النفقة لا في المحبة على ان كثيرين من اهل الوجاهة والشرف في الاجيال الاسلامية الوسطى كانوا يجمعون بين التسري وتعدد الازواج والغالب ان تكون السيادة للمرأة الأولى وان اختلف ذلك باختلاف الاحوال — ولكن المرأة العاقلة التقية كانت تعد اهداء زوجها ما يرضاه من الجواري الحسان فضيلة كما فعلت ام جعفر بالرشيد لتشغله عن الجارية دنانير

وقد تساعد المرأة التقية زوجها في الزواج بامرأة أُخرى تتوقع من مسعاها في ذلك ثواباً — روى الشيخ الجبرتي المؤرخ المصري عن احدى ازواج ابيه قال انها كانت من الصالحات المصونات وكانت بارة بزوجها ومطيعة له . ومن جملة برّها لهُ انها كانت تشتري لهُ من السراري الحسان من مالها وتنظمهن بالحلي والملابس وتقدمهن اليهِ وتعتقد حصول الاجر والثواب لها بذلك وكان يتزوج عليها كثيراً من الحرائر فلا يسوءها فعله ولا يحصل عندها ما يحصل عند النساء من الغيرة (١)

٣ — الطلاق

ويقال عن الطلاق ما يقال عن تعدد الزوجات فالعقلاء يذهبون الى كره الطلاق بناءً على بعض الآيات الواردة في هذا الشان كقوله « وان خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من اهله وحكماً من اهلها ان يريدا اصلاحاً يوفق الله بينهما » وقوله « فان كرهتموهن فعسى ان تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً » وفي الحديث « ابغض الحلال عند الله

(١) الجبرتي ١٨٢ ج ٣

الطلاق » ومع ذلك كان بعض كبار الصحابة يكثرون منه اكثارًا مدهشًا كما فعل الحسن ابن علي بن ابي طالب فانهُ تزوّج ٢٥٠ امرأة وقيل ٣٠٠ وكان ابوه يضجر من ذلك و يكرهه حياءً من اهليهن وكان يقول في خطبه « ان حسنًا مطلاق فلا تزوّجوه » ويليه المغيرة بن شعبة فقد تزوج نحو هذا العدد [1] على ان الطلاق ما زال مكروهًا كما رأيت من كلام الامام علي · واهل الانفة والفضل لا يطلقون الاَّ لعلة كبيرة او عذر شرعي · ولو احصيت حوادث الطلاق لرأيت اكثرها في طبقات العامة

ومما ساعد على تكاثر حوادث الطلاق المبالغة في الحجاب فيتزوج الشاب الفتاة وهو لم يرَ وجهها فاذا لم توافقه هان عليه طلاقها لانهُ لم يرض الزواج على هذا الشرط الاّ لعلمه بسهولة التخلص من زوجته اذا لم تعجبه · وهذا التضييق ليس من الدين في شيءٍ لورود عدة احاديث تجيز للرجل ان يرى خطيبته قبل الزواج واحاديث تأمر برويتها صريحًا [2] فلو عملوا بذلك اقلت البواعث على الطلاق · على ان للطلاق في بعض الاحوال فوائد اجتماعية حرمتها الطوائف التي لا طلاق عندها

## المعيشة العائلية

### ١ — الطعام

كان طعام العرب قبل الاسلام قاصرًا على الالبان وما يستخرج منها كالسمن والزبدة والجبن ومن التمر والحبوب واللحوم يأكلونها على ابسط ما يكون من احوالها كما يفعل اهل البادية اليوم واكثر البانهم ولحومهم من الابل · وقد يصنعون منها اطعمة تتركب على نسب معينة كالثريد فانهُ يصنع من اللحم واللبن والخبز · ومنها ما يصنع من اللبن والدقيق فقط كالرغيدة والرهيدة والعصيدة او يصنع من السمن والدقيق كالبكالة او من الدقيق والعسل والسمن كالوضيعة ولهم من امثال هذه الاطعمة نحو اربعين لونًا

ذلك هو طعام اهل اليسار منهم واصحاب الضيافة واما الفقراء فقلما ياكلون لحم الابل او الضان وانما كانوا يقتاتون بلحم الضب أو بالجراد او الخنافس او العقارب واذا جاعوا اكلوا العلهز وهو وبر الابل يموهونه بالحجارة في الدم فيطبخونه وكان حال القرشيين قريبًا من ذلك[3]

(١) الفباء ٣٤٨ و٢٤٩ ج ٣ (٢) مشكاة المصابيح ٢٦٩

(٣) ابن خلدون ١٧٠ ج ١

وربما اكلوا القرامة ونحاتة القرون والاظلاف والمناسب من برادتها او القرة وهي الدقيق المختلط بالشعر وكانوا اذا عطشوا ولم يجدوا ماء شربوا الفظ وهو عصارة الفرث او المجدوح وهو مصل دم الابل (١)

فلما جاء الاسلام وافتتحوا العراق وفارس ومصر دهشوا لما شاهدوه من حضارة الروم والفرس ووقعوا على الوان من الاطعمة لم يعرفوها فاشكل عليهم امرها وظفر بعضهم بجراب فيهِ كافور فاحضره الى اصحابه فظنوه ملحاً فطبخوا طعاماً ووضعوه فيهِ فلم يجدوا لهُ طعماً ولم يعلموا ما هو فرآه رجل عرف مافيه فاشتراه منهم بقميص خلق يساوي درهمين (٢) ورأى بعضهم الخبز الرقاق فظنه رقاعاً يكتب عليها (٣) وشاهدوا الارز فظنوه طعاماً مسموماً (٤) ثم ما لبثوا ان اقاموا بين اولئك الاقوام حتى تعرفوا مآكلهم ولا سيما الفرس فاخذوها عنهم كما اخذوا اكثر مبادىء الحضارة وكثيراً من العادات والآداب وليس في الشرع الاسلامي ما يمنع تمتعهم بالطيبات من الاطعمة الاَّ ما جاء النص بتحريمه

فاخذوا باطراف الحضارة من ايام بني امية واول من قلد الاعاجم باسباب الترف معاوية فتنعم بمأكله ومشربه (٥) واقتدى بهِ خلفاؤُه وسائر الناس ولا سيما بعد ان كثرت الاموال بين ايديهم فاكلوا السكباج وهو نوع من المرق كانوا يصنعونهُ من مرق اللحم والخل و يضعون فيهِ اللحوم المطبوخة كالدراج ونحوه وكانوا يسمونهُ سيد المرق . والفالوذج وهو نوع من الحلوى وكذلك اللوزينج يحشى باللوز والسكر والجوزاب والخشاف والجلاب وغيرها وتفننوا بمعالجة اللحوم بالالبان والخضار والتوابل على اساليب شتى

## ٢ — اللباس

### لباس العرب الجاهلية

ولباس العرب كان بسيطاً مثل طعامهم وسائر طرق معائشهم ولا يزال حتى الآن في عرب البادية نحو ما كان عليهِ قبل الاسلام وهو عبارة عن القميص والحلة والازار والشملة والعباءة والعمامة ولم يكن العرب في جاهليتهم يعرفون السراويل ولا الاقبية (٦) وانما هي فارسية وكذلك النعال والخفاف ولكن بعض الخاصة كان يلبسها . وكانوا يعلقون سيوفهم على

(١) كتاب البخلاء ١٨٣ (٢) الفخري ٧٤ (٣) ابن خلدون ١٤٤ ج ١
(٤) الهمذاني ١٨٨ (٥) الدميري ٥٥ ج ١ (٦) البيان والتبيين ٥٣ ج ٢

عوائقهم وثيابهم على الاجمال قصيرة الى اسفل الركب [١]

وافضل مثال لالبسة العرب لباس النبي فقد ذكروا ان احب الالبسة اليهِ البرود والبياض والحبرة وهي ضرب من البرود فيهِ حمرة وكان كمه قصيرًا الى الرسغ يلبس احيانًا حلة حمراء وازارًا ورداءً والازار قصير الى اسفل الركبة ولبس الخف والنعل [٢] وقد نهى عن الثوب الطويل الذي يجرُّ على الارض من الخيلاء ومن اقواله « فضل الازار في النار » [٣] ولم يكن العرب يعرفون من الانسجة غير القطن والصوف

على ان الذين كانوا يفدون على الشام او العراق من اغنيائهم لتجارة او زيارة كانوا يقلدون اهلها بملابسهم الفاخرة فمن فعل ذلك اشتهر ذكره بين القبائل ولاسيما في اوائل الاسلام. ومن المأثور عندهم ان اول من لبس الخز الادكن من العرب عبدالله بن عامر واول من لبس الدراريع السود المختار بن ابي عبيد واول من لبس الطيلسان في المدينة جبير بن مطعم [٤] وقس عليه سائر ما اتخذوه من البسة الاعاجم بعد الاسلام. والعادة ان يبدأ الامراء بذلك ثم يقلدهم سائر الناس. واول من اقدم على تقليد الاعاجم باسباب البذخ معاوية وعماله. فزياد بن ابيه امير العراق اول من قلد الفرس بلبس القباء الديباج [٥] وهو اول من لبس الخفاف الساذجة بالبصرة

ولما اترف بنو أمية لبسوا الحرير على انواعه وتفننوا بانواع الانسجة واحبوا الوشي واكثروا من لبسه فقلدهم الناس في ذلك فراجت المنسوجات الموشاة في ايامهم. واتخذوا كثيرًا من البسة الروم ولكنهم لرغبتهم في المحافظة على البداوة ظلوا يلبسون العمائم و يعلقون السيوف على العوائق وكان الاحنف يقول « لا تزال العرب عربًا ما لبست العمائم وتقلدت السيوف » [٦]

اللباس في عصر الحضارة

فلما افضت الخلافة الى العباسيين واستسلموا للفرس وأخذوا نظامهم وادابهم قلدوهم بالالبسة وجعلوا ذلك بامر رسميّ من اوائل دولتهم. فامر المنصور رجاله سنة ١٥٣ ﻫ ان يلبسوا القلانس الفارسية الطويلة تدعم بعيدان من داخلها بدل العمائم او يعتموا فوقها بعمامة صغيرة. وان يعلقوا السيوف في اوساطهم وان يكون اللباس الاسود عاماً فيهم وهو شعار العباسيين كما كان البياض شعار الامويين. فلا بدّ للداخل على الخليفة العباسي من لبس جبة سوداء يسمونها « السواد » تغطي سائر الثياب. والبسهم المنصور دراريع كتب

(١) سراج الملوك ٧١ (٢) تهذيب الاسماء ٦٠ (٣) الكامل المبرد ٣٦
(٤) المعارف لابن قتيبة ١٨٧ (٥) الاغاني ١٠٤ ج ١٤ (٦) الكامل للمبرد ١٠٠

على ظهورها « فسيكفيكم الله وهو السميع العليم »(١) و بعث الى عماله في سائر الاقطار ان يأمروا رجالهم بمثل ذلك(٢)

فاقبل العرب من ذلك الحين على تقليد الفرس بالملابس ولا سيما اهل الدولة ورجال الحكومة فلبسوا الاقبية والسراويلات والطيالسة والخفاف والجوارب وغيرها مع بقاء البسة العرب عند عامتهم . ثم اختصت كل طائفة او طبقة بلبس خاص يميزها عن سواها . فالفقهاء والعلماء كانوا يلبسون عمامة سوداء بشكل خاص ومبطنة وطيلسان اسود(٣) واول من غير لباس العلماء على هذه الصورة ابو يوسف قاضي الرشيد(٤) واما لبس القضاة فهو القلانس الطوال والطيالسة الرقاق ويختلف ذلك باختلاف الدول والاعصر مما لا محل لاستيفائه

اما عامة الناس فتختلف اشكال البستهم باختلاف صنائعهم واحوالهم وطبقاتهم وباختلاف الاصقاع والاطوار مما لا يمكن حصره . وانما يقال بالاجمال ان لباس الرجال العمامة والدراعة والسراويل والقميص والقباء والجبة والجوارب والنعال على نحو لباس المصريين والسوريين في اوائل القرن الماضي وهو ما يلبسه جماعة المشائخ الآن

ثياب المنادمة والتطيب والخضاب

على ان رجال الدولة ومن جرى مجراهم من الخاصة كانت لهم البسة لمجالس الانس والشراب يسمونها « ثياب المنادمة » وهي اثواب مصبغة بالالوان الزاهية الاحمر او الاصفر او الاخضر يصقلونها حتى تلمع وتشرق ويتضمخون بالخلوق ويتطيبون ولهم البسة يتخففون بها في منازلهم وأخرى يلبسونها في الاسفار وغير ذلك

اما التطيب فقد كان من دلائل الغنى والنبل عندهم ومن امثالهم « ثلاثة يحكم لهم بالنبل حتى يدرى من هم . رجل رأيته راكبًا او سمعته يعرب كلامه او شممت منه طيبًا »

والخضاب كان مستحسنًا عندهم واصله هندي اخذه الفرس عن الهنود(٥) ومنه انتقل الى بلاد العرب قبل الاسلام . ويقال ان اول من خضب بالسواد من اهل مكة عبد المطلب(٦) وقالوا بل المغيرة بن شعبة . ولما ظهر الاسلام وانتشر العرب في الارض تعلموا فنون الخضاب فصاروا يخضبون بالحناء للحمرة و بالزعفران للصفرة فضلاً عن الخضاب الاسود وكانوا

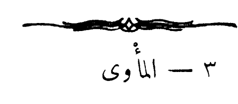
---

(١) الاغاني ١٢١ ج ٩ وابن الاثير ٢٨٩ ج ٥ والعقدالفريد ٧٤ ج ١

(٢) طغر بردي ٤٣٧ والمقريزي ٣٠٧ ج ١ (٣) الاغاني ١٠٩ ج ٥ و ٦٩ ج ٦ وطبقات الاطباء ٤ ج ٢ (٤) ابن خلكان ٣٠٣ ج ٢

(٥) المسعودي ١١٥ ج ١ (٦) لطائف المعارف ٨

يبيضون شعورهم بالكبريت [1] واول من خضب لحيته بالزعفران جرير الشاعر [2] وكان حسان بن ثابت يخضب لحيته على أسلوب خاص فيلون شاربيه وعنفقته بالحناء دون سائر لحيته فيبدو لأول وهلة كأنه اسد والغ في الدم [3] وقس على ذلك تفننهم بالخضاب للرجال والنساء ولا يزال ذلك شائعاً في الشرق الى الآن والاكثر يخضبون بالسواد وبعضهم بالحناء ويندر الخضاب بالزعفران ولا نعرف احداً يبيض شعره بالكبريت



## ٣ — المأوى

### مساكن العرب

كان العرب قبل الاسلام اهل خيام وانعام يحملون منازلهم على ظهورهم الا من اقام منهم في مكة او المدينة او الطائف او غيرها من مدن الجاهلية ولما نهضوا للفتح كانت البداوة من جملة اسباب تغلبهم . فلما فتحوا الامصار تحاشوا سكنى المدن ونصبوا مضاربهم في ضواحيها او بنوا بيوتاً من القصب معسكراً لهم لا يفصل بينها وبين مقر الخلافة (المدينة) ماء كأنهم محتلون الى اجل . وكانوا اذا فسد ما بنوه من القصب او احترق استأذنوا الخليفة عمر في بنائها بالحجارة مثل المدن التي فتحوها بمصر والشام والعراق ولكنه لم يكن يرى تحضرهم خوفاً عليهم من الترف والرخاء ولهذا السبب ايضاً منعهم من الزرع . ثم اذن لهم بالبناء ولكنه اشترط الاقتصاد به فلما استشاروه في بناء الكوفة بالحجارة قال لهم « افعلوا ولا يزيدن احد على ثلاثة ابيات ولا تطاولوا في البنيان والزموا السنة تلزمكم الدولة» [4]

على ان ناموس العمران غلب على ما اراده عمر من بقاء المسلمين يقيمون في المعسكرات فما لبثوا ان تحضروا حتى تحولت تلك المعسكرات الى مدن عامرة ونزلوا المدن القديمة التي فتحوها وبنوا المنازل والقصور يقلدون بها ابنية الدول السالفة

### اساليب البناء في الاسلام

وكانت اساليب البناء يومئذ تختلف باختلاف الامم ولكل منها نمط تولد عندها بتوالي الاجيال اما رأساً او اقتباساً . واهمها النمط البيزانطي في الشام ومصر والفارسي في فارس وخراسان والقوطي في الاندلس وما يليها . فلما تحضر العرب وعمدوا الى تشييد المباني

---

(١) الف باء ٣٤٤ ج ٢ (٢) المعارف لابن قتيبة ٩٩
(٣) الاغاني ٣ ج ٤ (٤) ابن خلدون ٢٩٩ ج ١

استخدموا في بنائها مهندسين من الروم والفرس فكانوا يخططونها على ما عرفوه من الاساليب التي ذكرناها . ثم اخذ العرب تلك الصناعة وادخلوا فيها تغييرًا يوافق الذوق الشرقي ويلائم الاسلام . فتولد نمط اسلامي خاص يعرف بالنمط العربي او الشرقي يختلف باختلاف الاصقاع واختلاف العصور والدول وترجع تنوعاته الى ثلاثة اعصر كبرى :

اولاً ✻ العصر العربي الرومي ✻ هو اقدم اعصر البناء في الاسلام واساسه النمط البيزانطي وتنوع في اثناء التمدن الاسلامي وتفرع الى خمسة اشكال (١) النمط السوري ومثاله الجامع الاقصى في القدس والجامع الاموي في الشام (٢) النمط المصري ومثاله جامع عمرو بالفسطاط (٣) النمط الافريقي ومنه جامع القيروان (٤) النمط الصقلي في سيسيليا بايطاليا ومن امثلته قلاع زيزا وكوبا وغيرهما (٥) النمط الاندلسي ومنه جامع قرطبة وبعض الآثار العربية في طليطلة مما بني قبل انقضاء القرن العاشر للميلاد

ثانيًا ✻ العصر العربي البحت ✻ وهو يشمل الاشكال التي تكيفت بين يدي العرب حتى بعدت عن الاصول التي نقلت عنها وهي قسمان (١) النمط المصري ومنه الابنية التي اقيمت في مصر بين القرن العاشر والخامس عشر وفي جملتها الجوامع التي بناها السلاطين المماليك كجامع الظاهر وجامع السلطان حسن (٢) النمط الاندلسي وهو ما بني في الاندلس بعد القرن العاشر ومن امثلته ابنية اشبيلية وغرناطة ولا تزال آثارها باقية الى الآن

ثالثًا ✻ العصر المختلط ✻ ويدخل فيه (١) النمط الاسباني العربي ويراد به ما بناه المسيحيون بعد استيلائهم على الاندلس وخروج المسلمين منها (٢) النمط الاسرائيلي العربي ومن امثلته الآثار الباقية لليهود في طليطلة من انقاض الكنائس (٣) النمط الفارسي العربي كالجوامع التي بناها الفرس بعد الاسلام ولاسيما في اصبهان (٤) النمط الهندي العربي وهو خليط من النمطين الهندي والعربي كبرج كتاب وهيكل بندرابند وباب علاء الدين (٥) النمط المغولي العربي كالابنية التي اقيمت في الهند باثناء سلطة المغول واشهرها تاج محل وقصر الشاه وكثير من المساجد ونحوها [1]

فمساكن الناس في عهد التمدن الاسلامي كانت تختلف شكلاً باختلاف البلاد والعصور وتتفاوت سعة وقدرًا بتفاوت طبقات الناس من الاكواخ الحقيرة الى القصور الفخيمة وسنأتي بامثلة من القصور وسائر الابنية الاسلامية الفخيمة عند الكلام على الحضارة

(1) La Civilisation des Arabes 597

# حضارة المملكة الاسلامية

نريد بالحضارة ما تبلغ اليه الدولة من الثروة وبسطة العيش والتوسع باسباب الترف والرغد في ارقى درجات عمرانها . والدولة الاسلامية ادركت تلك الدرجات اولاً في العصر العباسي ببغداد من اواسط القرن الثاني للهجرة الى اواسط الرابع وفي العصر الاموي بالاندلس في القرن الرابع . وفي العصر الفاطمي بمصر من اواسط القرن الرابع الى اواسط السادس

واسباب الحضارة في ما نحن فيه تقسم الى قسمين كبيرين : الاول العمارة اي انشاء المدن وبناء المصانع والقصور . والثاني الثروة وبها يتم مايقتضيه الترف من الانغماس في النعيم والرخاء وبسطة العيش . فنتكلم اولاً عن المدن فالمباني ثم نبين ما بلغت اليه الامة من الثروة واسباب الترف والرفاه

## عمارة المدن

ان المدن التي سكنها المسلمون وحواها التمدن الاسلامي تعدّ بالمئات وهي منتشرة في آسيا وافريقيا وأوربا ومنها ما كان عامرًا قبل الاسلام ومنها ما بناه المسلمون لانفسهم . وقد نشرنا في الجزء الثاني من هذا الكتاب صفحة ١٨٤ فصلاً في المدن الاسلامية وما بلغت اليه من الحضارة والثروة في عهد التمدن الاسلامي واقتصرنا على اعظم تلك المدن البصرة والكوفة والفسطاط وبغداد . واجلنا الكلام في ما بقي الى هذا الجزء فنقول :

## القطر المصري

### مساحة الارض الزراعية فيه

القطر المصري اليوم في نهضة مالية تضاعفت فيها الثروة الى حدٍّ استغربه الناس وخافوا رد الفعل (١) لانهم رأوا غلاءً في الاسعار بغتياً لم يعهدوا مثله وزادت مساحة الارض الزراعية ستة اضعافها في قرن واحد . فبعد ان كانت مساحتها في ايام المماليك نحو مليون فدان وبعض المليون صارت ثمانية ملايين فدان . وبعد ان كان الفدان يباع ببضعة عشر جنيهاً بيع بمئة جنيه او مئة وخمسين جنيهاً او اكثر . فكيف لو علموا ان مساحة الارض

(١) فصلنا ذلك بمقالات في « النهضة المالية المصرية » في السنتين ١٣ و١٤ من الهلال

الزراعية في ابان التمدن الاسلامي زادت على ٢٥,٠٠٠,٠٠٠ فدان ؟ وقد ذكرنا ذلك في الجزء الاول من هذا الكتاب صفحة ٨٢ نقلاً عن ثقات مؤرخي العرب فاستغربه بعض الفضلاء وعدُّوه من قبيل الخرافة او الاكذوبة على عادتهم في الاستخفاف باقوال مؤرخي المسلمين . ولا نرى باعثاً على هذا الاستخفاف والمسلمون او العرب من اكثر الامم تحقيقاً في حوادث التاريخ لما تعوّدوه من التحقيق في المسائل الدينية بالاسناد ونحوه

على اننا لا نلومهم اذا استغربوا تلك الرواية لان الناس يقيسون الاشياء بما علموه من اشباهها . فثروة القطر المصري، اذا قيست بما ألفناه من احوال عمرانها في القرنين الماضيين لا نرى ما يسهل علينا تصديق قول العرب بمساحتها الزراعية الى ثلاثة اضعاف ما بلغت اليه اليوم . ولكن لو قيل لاهل هذا الجيل ان مساحة الارض الزراعية بمصر ستبلغ بعد عشر سنين عشرة ملايين او ١٢ مليون فدان لهان عليهم التصديق لانهم شاهدوا تزايد هذه المساحة من مليون فدان الى ثمانية ملايين . اما لو قيل ذلك لاهل اواسط القرن الماضي لعدوه مستحيلاً . لان مساحة ارض مصر التي تقبل الزراعة لم تكن تقدّر يومئذ با كثر من ٧,٠٠٠,٠٠٠ فدان وهاك تقدير الدكتور كلوت بك لسنة ١٨٤٠ [1] باعتبار الفدان

| | ارض مزروعة | غير مزروعة | الجملة |
|---|---|---|---|
| مصر السفلى | ٢,٢٤٩,٠٠٠ | ١,٥٥١,٠٠٠ | ٣,٨٠٠,٠٠٠ |
| « الوسطى | ٨٥٦,٨٢٦ | ٧٦٣,١٧٤ | ١,٦٢٠,٠٠٠ |
| « العليا | ٧٥٠,٤٠٠ | ٨٤٣,٦٠٠ | ١,٥٩٤,٠٠٠ |
| | ٣,٨٥٦,٢٢٦ | ٣,١٥٧,٧٧٤ | ٧,٠١٤,٠٠٠ |

فتكون مساحة الارض التي يمكن زرعها بمصر ٧,٠١٤,٠٠٠ فدان . فمن كان هذا اعتقاده في اطيان مصر لا يصدّق اذا قيل له ان مساحة هذه الاطيان ستزيد على عشرة ملايين فدان أو ١٢ مليوناً بعد بضع عشرة سنة

عدد السكان

و يقال نحو ذلك في عدد السكان فلو قيل في اواسط القرن الماضي ان القطر المصري سيبلغ عدد سكانه الى عشرة ملايين أو ١٢ مليونًا لعدوا قولنا من الخرافات أو كما قال الدكتور كلوت بك « من عادات الشرقيين في المبالغة » لان عددهم في أيامه لم يكن يزيد

(1) Aperçu Sur l'Egypte I. 265

على ٣,٠٠٠,٠٠٠ نفس فكيف يصدق زيادته الى اربعة اضعافه — لا نقول ذلك تحكماً او افتراضاً ولكننا ننقل للقارئ قول الدكتور كلوت بك مؤرخ ذلك العصر في هذا الشأن — فقد بحث في كتابه عن سكان القطر المصري سنة ١٨٤٠ فبلغ عددهم ثلاثة ملايين نفس فصدّر بحثه بمقدمة عن احصائهم في الزمن القديم قال فيها ما معناه « يؤخذ من احصاء مؤرخي اليونان ان سكان هذا القطر بلغ عددهم في زمن سيزوستريس والبطالسة نحو سبعة ملايين نفس الى ثمانية واما مؤرخو العرب فزعموا ان عددهم في زمن عمرو بن العاص بلغ عشرين مليوناً وهو قول يدلُّ على عادة الشرقيين في المبالغة بكتاباتهم ... لاننا لو قسنا مصر بما نعلمه في سواها من نسبة عدد الناس الى مساحة ما يتوطنونه من الارض لوصلنا الى نتيجة تنفي كل شك . فمصر مساحتها سدس مساحة فرنسا ومهما قلنا في خصب وادي النيل وما يمكن الوصول اليه من امتداد الزراعة وزيادة العمارة ولو سلمنا بامكان استثمار البقاع الرملية — فمع كل هذه الوسائل لا يرجى زيادة عدد السكان على ثلث الاحصاء الذي ذكره العرب » ( اي نحو ٦,٣٣٣,٠٠٠ نفس ) — هذا هو رأيه وانت ترى ان سكان مصر زاد عددهم اليوم على عشرة ملايين ولا يمضي بضع سنين حتى يناهز ١٥ مليوناً او ضعفي ما ظنه الدكتور كلوت بك غاية ما يمكن الوصول اليه

وقياساً على ما تقدم لا نرى مانعاً من بلوغ سكان القطر المصري الى ٢٠,٠٠٠,٠٠٠ نفس . فلا غرابة اذا بلغوا هذا العدد في ابان التمدن الاسلامي — وانما انكر ابناء هذا الجيل ذلك استخفافاً برواية العرب مع انها مبنية على احصاآت رسمية واقعية في ازمنة معينة لاجل تعديل الجزية او الخراج وليست من قبيل الحدس او الرجم بالغيب — الاحصاء الأول وقع في زمن الفتح على ايام عمر . ذكر المقريزي انهم احصوا الرجال الذين تؤخذ عليهم الجزية فبلغ عددهم ٨,٠٠٠,٠٠٠ نفس فاذا اعتبرناهم ثلث الامة كان مجموعها ٢٤,٠٠٠,٠٠٠ نفس . والاحصاء الثاني في ولاية الوليد بن رفاعة سنة ١١٠ هـ ذكروا انه خرج ليحصي اهلها وينظر في تعديل الخراج فاقام في ذلك ستة اشهر بالصعيد حتى بلغ اسوان ومعه جماعة من الكتاب والاعوان يكفونه ذلك بجدّ وتشمير . وثلاثة اشهر في الوجه البحري فاحصوا من القرى عشرة آلاف قرية في اصغر قرية منها ٥٠٠ جمجمة من الرجال الذين تفرض عليهم الجزية فتكون جملة ذلك على الاقل ٥,٠٠٠,٠٠٠ رجل وعلى متوسط ما يلحق ذلك من النساء والاطفال والشيوخ يكون المجموع نحو ٢٠,٠٠٠,٠٠٠ نفس

## مساحة الارض الزراعية

ويقال نحو ذلك في الارض الزراعية فانهم استخرجوا مساحتها بالاحصاآت الرسمية لاجل تعديل الخراج . منها احصاء لعبيد الله بن الحبحاب سنة ١٠٧ هـ فبلغت مساحة الارض الزراعية مما يركبه النيل ٣٠,٠٠٠,٠٠٠ فدان اي نحو اربعة اضعاف ما بلغت اليه مساحتها اليوم مع اجتهاد حكومتنا في تعميم وسائل الري ببناء الجسور والخزانات وما لدينا من آلات الحرث والزرع . فاذا سبق الى اذهاننا الاستخفاف برواية العرب حكمنا لأول وهلة وبلا تردد انها مكذوبة اما اذا نظرنا فيها نظر الناقد المحقق فلا نعدم الوصول الى الحقيقة

فالمقريزي وغيره من رواة هذا الاحصاء لم يقولوه عرضاً ولا تركوا في قولهم التباساً . وذكروا في امكنة اخرى ان الارض الزراعية نقصت في ايام ابن المدبر اي بعد قرن ونصف القرن الى ٢٤,٠٠٠,٠٠٠ فدان ولم يكتفوا بذكر المساحة ولكنهم ذكروا عدد العمال الذين كانوا يشتغلون بالحرث والزرع واشترطوا عدداً معلوماً منهم فاذا نقص نقصت غلة الارض [1]

ولا يجلي لنا وجه الصواب الاّ بعد معرفة البقاع التي كانت عامرة في ذلك العصر . فلو كانت حدود مصر الزراعية يومئذ مثل حدودها الآن اي يحدها من الشرق والغرب الجبلان والصحراء الشرقية والبحيرة لحكمنا باستحالة زعمهم . لان مساحة مصر الجغرافية اليوم وفيها الواحات والبادية الواقعة بين النيل والبحر الاحمر والعريش نحو ٤٠٠,٠٠٠ ميل مربع معظمها صحراء قاحلة . اما الارض الزراعية فمساحتها ١٧,٧٢٦ ميلاً مربعاً يخرج منها ٤,٧٥٠ ميلاً مسطحات النيل والترع والمستنقعات والبحيرات ونحوها فالباقي ١٢,٩٧٦ ميلاً مربعاً اي نحو ٨,٠٠٠,٠٠٠ فدان وهي الارض المزروعة الآن فلا سبيل الى المزيد

ولكن يؤخذ مما نقله العرب عن احوال مصر في ابان تمدنهم ومما جاء من اخبارها القديمة ان حدودها الزراعية كانت أوسع من ذلك كثيراً — ذكروا انها كانت تمتد من الغرب وراء صحراء الاسكندرية الى برقة [2] وتتصل من الشرق بحدود السويس الى العريش . ومعظم المسافة هناك اليوم رمال قاحلة ولكنها كانت تزرع قديماً الزعفران والعصفر وقصب السكر وكان ماؤها غزيراً . ولا تزال آثار العمارة باقية في تلك البقاع فان تحت الرمال تربة سوداء زراعية يعرفها من اختبر الارض بالمسبار

وكان الصعيد عامراً ويمتد من جهة الشرقية الى البحر الاحمر واراضي البجة [3] وكانت طيان الفيوم ممتدة الى ما وراء العمارة المعروفة مسافة بعيدة . فاذا اعتبرنا ما ذكروه من

(١) المقريزي ١٠٠ ج ١ (٢) المقريزي ١٨٢ ج ١ (٣) المقريزي ١٨٩ ج ١

هذا القبيل وان النيل كان اكثر فروعًا واغزر ماءً واوسع فيضانًا مما هو عليه اليوم هان علينا قبول اقوالهم وان كنا لانزال نستغربها لبعدها عن مألوفنا . ولعلنا متى رأينا الشركات تعمل على احياء الصحاري المحيطة بوادي النيل شرقًا وغربًا بنزع ما يغطيها من الرمال وارواثها بالترع المتصلة اليها من النيل او بالآبار الارتوازية نرى اقوالهم معقولة . ولا نظن ذلك بعيدًا ورجال الاعمال يدرسون امثال هذه المشروعات

مدينة القاهرة

واشهر مدن القطر المصري في الاسلام الفسطاط والقاهرة وقد ذكرنا عمارة الفسطاط في الجزء الثاني . واما القاهرة فقد بناها القائد جوهر في اواسط القرن الرابع للهجرة معقلاً لمولاه المعز لدين الله الفاطمي وجنده . فظلت في اثناء دولة الفاطميين لم تتسع عمارتها وانما كانت العمارة للفسطاط والقطائع . وذكر المقريزي انهُ كان في هاتين المدينتين غير القاهرة ١٠٠,٠٠٠ بيت في بعضها مئة انسان ومئتان اذ يكون البيت مؤلفًا من خمس طبقات او ست او سبع [١] ومع ذلك فهي في تقديره لا تزيد على ثلث بغداد فكم تكون عمارة هذه . ولما افضت الدولة الى السلطان صلاح الدين اذن للناس بسكنى القاهرة فاتصلت بمدينة الفسطاط وكانت الفسطاط تسمى « مصر » فلما صارتا مدينة واحدة اطلقوا عليهما اسم « مصر والقاهرة » ثم قالوا « مصر القاهرة » ولما خربت الفسطاط ظل هذا الاسم للقاهرة وحدها كما هو مشهور

## الاندلس

لما فتح المسلمون الاندلس كانت عامرة آهلة فاقاموا في مدنها وزادوها عمرانًا واشهر تلك المدن قرطبة وقد زادها المسلمون عظمة بما بنوه في ضواحيها من القصور الكبيرة اشباه المدن الضخمة مما سنذكره

### قرطبة

هي من اعمال اندلوسيا واقعة على الوادي الكبير تستقي ماءها منه وكانت عامرة قبل الاسلام ويظن انها من بناء القرطجنيين ودخلت في حوزة الرومانيين سنة ١٥٢ قبل الميلاد وتوالت عليها احوال شتى حتى فتح المسلمون الاندلس فنزلوا طليطلة ثم جعلوا مقر الامارة في قرطبة وزاد الامويون عمارتها بما انشأوه فيها من القصور والمساجد والجسور وغيرها

(١) المقريزي ٣٤١ ج ١

فاتسعت مساحتها وكان محيط المدينة الاصلية ٣٣,٠٠٠ ذراع عليها سبعة ابواب فنشأ حولها ٢١ ربضاً في كل ربض من المساجد والاسواق والحمامات ما يقوم باهله . فصار طولها ٢٤ ميلاً وعرضها ستة اميال او ١٤٤ ميلاً مربعاً (ومساحة لندن ١١٧ ميلاً) وكل ذلك دبار وقصور ومساجد وبساتين على طول ضفة الوادي المذكور

وقد احصوا مباني هذه المدينة وارباضها في ابان عمرانها احصاآت مختلفة خلاصتها ان عدد الابنية فيها كما يأتي :

| عدد | |
|---|---|
| ١١٣,٠٠٠ | دور الرعايا |
| ٤٣٠ | « القصر الكبير |
| ٦,٣٠٠ | « اهل الدولة |
| ٣,٨٧٣ | المساجد |
| ٩٠٠ | الحمامات |
| ١٢٤,٥٠٣ | |

وذكروا ان عدد الابنية بلغ في ايام ابن ابي عامر ٢٠٠,٠٠٠ دار للرعية و٦٠,٣٠٠ دار لاهل الدولة و ٨٠,٤٥٥ حانوتاً غير الحمامات والخانات [1] ولا يخلو هذا التقدر من مبالغة والاول اقرب الى الصواب . واذا اعتبرنا ما يلحقه من الحوانيت والخانات زاد المجموع على ضعفي عدد ابنية القاهرة اليوم

على انك ترى في هذا التقسيم تمييزًا بين الخاصة والعامة في المساكن . وان دور الخاصة نحو ٦ في المئة من دور العامة — على حين ان دور الاشراف في رومية لم يزد عددها في ابان عمرانها على ٢,٠٠٠ دار [2] فعمارة قرطبة بهذا الاعتبار فائقة الحد واما سكانها فكانوا يناهزون المليونين وسيأتي الكلام على قصورها

﴿ غرناطة ﴾ واما غرناطة فكانوا يسمونها دمشق الاندلس لكثرة اثمارها واعنابها وفاكهتها وتمتاز عن سائر مدائن الاندلس بنهر يتوزع على دورها واسواقها وحماماتها وارجائها الداخلة والخارجة وبساتينها كما يتوزع نهر بردى في دمشق . وبلغت غرناطة قمة مجدها في الدولة النصرية واشهر ملوكها ابن الاحمر في اواسط القرن الثامن للهجرة وهو الذي بنى قصر الحمراء فيها كما بنى عبد الرحمن الناصر قصر الزهراء في قرطبة ونتقدم الى ذكر القصور والمباني

(١) نفح الطيب ٢٥٦ ج ١ (٢) Gibbon I. 829

# القصور والمباني

قال ابن خلدون « ان المباني والمصانع في الملة الاسلاميـة قليلة بالنسبة الى قدرتها و بالقياس على من كان من الدول قبلها » ولكننا اذا اعتبرنا ما انتاب المدائن الاسلامية من اسباب الخراب بما توالى عليها من الاحن والفتن ونظرنا الى ما بقي من ابنيتها في مصر والشام والعراق وفارس والهند والاندلس رأيناها اكثر مما خيل لمؤرخنا الفيلسوف . ولعل الذي بعثهُ على هذا القول ان كثيراً من هذه المباني شيد بعد عصره على عهد السلاطين المماليك في مصر وبعضها لم يتصل علمه بها مما في بلاد فارس والهند وغيرها . فقد كان للخلفاء والامراء على اختلاف الدول والممالك عناية في بناء المساجد والمصانع والقصور يتأنقون في هندامها واتقانها فضلاً عن المتنزهات والحدائق مما ينفقون فيه الاموال الطائلة فيجلبون اليه الاغراس من اطراف المعمور ويتفننون في تزيين مجالسهم بالاشعار والتصاوير المموهة بالذهب وبينها رسوم الحيوانات والآدميين والازهار وغيرها مما ستراه

## ١ — مباني الامويين في الشام

لم يصلنا من اخبار مباني الامويين في الشام مايستحق الذكر الا الجامع الاموي الذي جدد بناءه الوليد بن عبد الملك بدمشق وكان قبل الاسلام كنيسة على اسم القديس يوحنا فلما فتح المسلمون دمشق صالحوا اهلها على ان تقسم الكنيسة مناصفة المسيحيون يصلون في نصفها الغربي والمسلمون في النصف الشرقي . فلما افضت الخلافة الى الوليد بن عبد الملك اخذ النصفين جميعاً وجدد بناء الجامع فاستقدم نحو ١٢,٠٠٠ صانع من بلاد الروم تأنقوا في بنائه فانزلوا جدرانه كلها بفصوص من الفسيفساء خلطت بانواع الاصبغة الغريبة فمثلت اشجارًا وفرعت اغصانًا منظومة بالفصوص ببدائع الصنعة الانيقة . فانفق في ذلك نحو ١١,٢٠٠,٠٠٠ دينار . وكان طول الجامع من الشرق الى الغرب ٣٠٠ ذراع وعرضه ٢٠٠ ذراع قائم على ٦٨ عموداً . واعظم مافيه قبة مصنوعة من الرصاص متصلة بالمحراب عظيمة الاستدارة والارتفاع . وقد زاره ابن جبير الرحالة الاندلسي في القرن السادس للهجرة ووصفه وصفاً مطولاً وذكر تاريخه الى ايامه مما يضيق عنه المقام(١) ولا يزال هـذا الجامع قائمًا الى الآن ويعدُّ من الخر ابنية المسلمين

---

(١) رحلة ابن جبير ٢٦٣

وبنى الحجاج بن يوسف قبة الاسلام في واسط وكانت من افخم الابنية وفيها يقول الشاعر

بـني قبـة الاســلام حـتى كانما    اتى الناس من بعد الضلال رسول [1]

## ٢ — مباني العباسيين

اول من شاد الابنية منهم المنصور فبنى القبة الخضراء ليحوّل اذهان الناس عن الكعبة اليها و بنى الجامع والحصون والقصور في بغداد كقصر الخلد وقصر باب الذهب وغيرهما واخذ الخلفاء بعده في تشييد المصانع واقتدى بهم وزراؤهم وامراؤهم فاقاموا قصوراً فخيمة تعرف غالباً باسماء بانيها كقصور البرامكة في الشماسية وقصر ابن الخصيب وقصر ام حبيب بالجانب الشرقي من بغداد وقصر بني خلف بالبصرة وقصر عيسى بن علي وهو اول قصر بناه الهاشميون في ايام المنصور وقصر وضّاح بناه رجل اسمه وضّاح للمهدي العباسي وقصر الرشيد وقصر الامين وقصر ابن الفرات وقصر ابن مقلة غير ما اطلقوا عليهِ لفظ الدار كدار الشجرة الآتي ذكرها ودار القرار وهي قصر زبيدة زوج الرشيد وغير ذلك . واخذت رغبتهم في بناء القصور تتزايد كلما تقدموا في المدنية واغرقوا بالترف والرخاء . على ان بعض خلفائهم كانوا يحبون العمارة وينشطونها واولهم المعتصم بالله فقد كان كلفاً بالبناء فبنى سامرّا لاتراكه واقطعهم فيها القطائع . والمتوكل على الله كان مغرماً بالعمارة يبذل فيها الاموال الطائلة فأحدث اساليب من الابنية لم تكن معروفة قبله منها النمط الحيري والكمين ذات الاروقة . وبنى ثلاثة ابنية تعرف بالهاروني والجوسق والجعفري بذل في بنائها جميعاً اكثر من ١٠٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم [2] انفق منها على القصر الجعفري اكثر من ٢,٠٠٠,٠٠٠ دينار [3] اونحو ٤٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم ثم صار تشييد المباني عادة جرى عليها الخلفاء فضلاً عن المتنزهات فبنى اسماعيل بن علي متنزهاً انفق فيه ٥٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم [4]

### قصر التاج وقصر الثريا

وكان المعتضد بالله محباً للعمارة ايضاً فبنى قصراً في الجانب الشرقي من بغداد سماه « قصر التاج » لم يتم في ايامه فاتمه ابنه المكتفي . وكان في مكانه قصر بناه جعفر البرمكي ثم سكنه الحسن بن سهل فسمي القصر الحسني . فلما تولى المعتضد سنة ٢٧٩ هـ اضاف اليهِ ما جاوره

(١) الكامل للمبرد ٢٨٧ (٢) المسعودي ٢٧٩ ج ٢

(٣) ابن الاثير ٣٣ ج ٧ (٤) ابن الاثير ٢٨ ج ٦

فوسعه وكبره وادار عليه سوراً واتخذ حوله منازل كثيرة ودوراً واقتطع من البرية قطعة عملها ميداناً · واخذ في بناء قصر التاج فاتفق خروجه الى آمد فلما عاد رأى الدخان يرتفع الى الدار فكرهه وابتنى على ميلين منه قصراً سماه « قصر الثريا » طوله ثلاثة فراسخ انفق فيه ٤٠٠٠٠٠ دينار[1] وصله بالقصر الحسني وابتنى بين القصرين على مسافة ميلين سرداباً تمشي فيه جواريه وحرمه وسراريه وما زال باقياً الى الغرق الاول الذي صار ببغداد · وفي قصر الثريا يقول ابن المعتز :

سلمت امير المؤمنين على الدهر فلا زلت فينا باقياً واسع العمر
حللت الثريا خير دار ومنزل فلا زال معموراً وبورك من قصر
جنانٌ واشجارٌ تلاقت غصونها وأورقن بالاثمار والورق الخضر
ترى الطير في اغصانهن هواتفاً تنقل من وكر لهنَّ الى وكر
وبنيان قصر قد علت شرفاته كمثل نساء قد تربعن في ازر
وانهار ماءٍ كالسلاسل فجرت لترضع أولاد الرياحين والزهر
عطايا الهٍ منعم كان عالماً بأنك أوفى الناس فيهنَّ بالشكر

ولما توفي المعتضد قام ابنه المكتفي سنة ٢٨٩ هـ فاتم بناء قصر التاج وكان وجهه مبنياً على خمسة عقود كل عقد على عشرة اساطين في خمسة اذرع[2]

دار الشجرة

وبنى المقتدر بالله في اول القرن الرابع داراً فسيحة ذات بساتين مونقة عرفت بدار الشجرة لشجرة كانت فيها مصنوعة من الذهب والفضة في وسط بركة كبيرة امام ايوانها وبين شجر بساتينها لها ثمانية عشر غصناً من الذهب والفضة لكل غصن منها فروع كثيرة مكللة بانواع الجوهر على شكل الثمار · وعلى اغصانها انواع الطيور من الذهب والفضة اذا مرّ الهواء عليها ابانت عن عجائب من ضروب الصفير والهدير · وفي جانب الدار من يمين البركة تماثيل خمسة عشر فارساً على خمسة عشر فرساً · ومثله عن يسار البركة قد البسوا انواع الحرير المدبج مقلدين بالسيوف وفي ايديهم المطارد يتحركون على خط واحد فيظن الناظر اليهم ان كل واحد منهم يقصد صاحبه[3]

وفي دولة آل بويه بنى معز الدولة قصره المعروف بالدار المعزية انفق في بنائه

(١) المسعودي ٣٢٨ ج ٢ (٢) معجم ياقوت ٨٠٦ و٩٢٤ ج ١
(٣) معجم ياقوت ٥٢٠ ج ٣

۰۰۰و۰۰۰و۱ دينار وموّه سقفه بالذهب — ذكروا انهم لما أرادوا هدمه بذلوا في حك الذهب من سقفه ۰۰۰و۸ دينار[1] ولم يبق لهذه القصور او الدور أثر الآن

## ٣ — مباني الامويين بالاندلس

اما الاندلس فقد بنى بها آل مروان قصوراً سارت بذكرها الركبان ولا يزال بعض آثارها باقياً الى اليوم واكثرها في قرطبة وغرناطة — فمنها في قرطبة :

### القصر الكبير

وهو آية من آيات الزمان شرع ببنائه عبد الرحمن الداخل في اواسط القرن الثاني للهجرة واتمه من جاء بعده وبنوا القصور في داخله ٠ وقد رأيت عند ذكر ابنية قرطبة ان القصر المذكور مؤلف من ٤٣٠ داراً بينها قصور فخيمة لكل منها اسم خاص كالكامل والمجدد والحائر والروضة والمعشوق والمبارك والرستق وقصر السرور والبديع ٠ وقد غالوا في زخرفها واتقانها وانشأوا فيها البرك والبحيرات والصهاريج والاحواض وجلبوا اليها الماء في قنوات الرصاص على المسافات البعيدة من الجبال حتى أوصلوه اليها ووزعوه فيها وفي ساحاتها ونواحيها في تلك القنوات تؤديها الى المصانع صوراً مختلفة الاشكال من الذهب الابريز والفضة الخالصة والنحاس المموه الى البحيرات الهائلة والبرك البديعة والصهاريج الغريبة في أحواض الرخام الرومية المنقوشة ينصبُّ فيها الماء من انابيب من الذهب او الفضة بصور الحيوانات الكاسرة او الطيور الجميلة على اشكال بديعة[2]

### مسجد قرطبة

ومن عجائب قرطبة مسجدها الشهير ذكروا انهُ لم يكن في بلاد الاسلام اعظم منهُ ولا اعجب بناءً وكان في مكانه كنيسة للنصارى شاطرهم عليها المسلمون عند الفتح كما فعلوا بالجامع الاموي في دمشق ثم اخذوا في توسيعه والزيادة فيه بانقاض الكنائس على توالي الاجيال ٠ واعجب ما فيه صومعتهُ او المأذنة قالوا لم يكن في مساجد المسلمين صومعة تعدلها بنيت بضخام الحجارة فبلغ طولها الى مكان موقف المؤذن ٥٤ ذراعاً والى اعلى الرمانة الاخيرة ٧٣ ذراعاً وعرضها في كل تربيع ١٨ ذراعاً

وتدرج الجامع بالاتساع بتوالي التجديد فيه حتى بلغت مساحتهُ في ايام الخليفة الناصر

(١) ابن الاثير ١٥١ ج ٩ (٢) نفح الطيب ٢١٩ ج ١

٢٢٥ ذراعاً في ٢٠٥ اذرع وزاد الحكم في طوله مئة ذراع وخمسة اذرع فصار طوله ٣٣٠ ذراعاً وزاد ابن ابي عامر في عرضه ثمانين ذراعاً فصار ٢٨٥ وارضهُ مرصفة باحدى عشرة بلاطة الوسطى عرضها ١٦ ذراعاً وعرض كل واحدة من اللتين تليانها غرباً واللتين تليانها شرقاً ١٤ ذراعاً وعرض كل واحدة من الست الباقية ١١ ذراعاً وزاد بن ابي عامر ثماني بلاطات عرض كل واحدة عشرة اذرع • وكان سقفه قائماً على ١,٢٩٣ سارية من الرخام وعدد ثرياته ٢٨٠ ثريا • منها ثريات المقصورة من الفضة الخالصة • وكان في وسط الجامع تنور نحاس يحمل الف مصباح

وكان للجامع تسعة ابواب مصفحة بالنحاس الاصفر الا باب المقصورة فانه من الذهب وكذلك جدار المحراب وما يليه وقد أجري فيه الذهب على الفسيفساء • وفي رأس الصومعة ثلاثة تفافيح دور كل تفاحة ثلاثة اشبار ونصف اثنتان من الذهب الابريز وواحدة من الفضة • وتحت كل تفاحة وفوقها سوسنة قد هندست بابدع صنعة ورمانة ذهب صغيرة على رأس الزج • وكان في بيت المنبر مصحف الخليفة عثمان وعليه حلية الذهب مكللة بالدر والياقوت فوقه اغشية الديباج • وهو موضوع على كرسي من العود الرطب بمسامير الذهب • وقد افاض صاحب نفح الطيب في وصف هذا الجامع وما كان ينفق فيه من الزيت والشمع فليراجع هناك(١) وتحوّل الجامع المذكور بعد دخول قرطبة في حوزة الافرنج الى كنيسة ولا يزال على بنائه الاسلامي وعليه النقوش الشرقية والكتابة العربية

قصر الزهراء

ومن قصورهم في قرطبة « الزهراء » بدأ بانشائها الخليفة الناصر سنة ٣٢٥ هـ على اربعة اميال من المدينة واتمها ابنه الحكم فاستغرق البناء اربعين سنة • وهي عبارة عن بلد كبير طوله من الشرق الى الغرب ٢,٧٠٠ ذراع وعرضه ١,٥٠٠ وعدد اعمدته او سواريه ٤,٣٠٠ سارية بعضها حمل الى قرطبة من رومية وافريقية وتونس وبعضها اهداه صاحب القسطنطينية وفيها الرخام الابيض والاخضر والوردي والمجزع • وكان في الزهراء مسجد فخيم وعدة قصور وحدائق على نحو ما تقدم في وصف القصر الكبير • وفيها البحيرات تسبح فيها الاسماك بالوانها وانواعها واحواض الرخام المنقوش على اشكال شتى بين مذهب وغير مذهب في جملتها حوض منقوش بتماثيل الانسان جيء به من القسطنطينية ونصبه الناصر في بيت المنام بالمجلس الشرقي المعروف بالمؤنس وجعل عليه ١٢ تمثالاً من الذهب

(١) نفح الطيب ٢٦٠ ج ١

الاحمر مرصعة بالدر النفيس الغالي مما صنع بدار الصناعة في قرطبة بصورة اسد بجانبه غزال الى جانبهِ تمساح يقابله ثعبان وعقاب وفيل ٠ وفي المجنبتين حمامة وشاهين وطاووس ودجاجة وديك وحداة ونسر وكلها من ذهب ، رصع بالجوهر يجري الماء من افواهها[1]

ووكل الناصر النظر في بناء هذه القصور الى ابنهِ الحكم بعده ٠ وذكروا ان الناصر كان ينفق عليها ثلث جباية الدولة وكانت ٦,٠٠٠,٠٠٠ دينار فينفق منها ٢,٠٠٠,٠٠٠ دينار كل سنة على ذلك البناء ٠ وقد تقدم انهم واصلوا العمل فيه ٤٠ سنة فلو فرضنا انهم كانوا ينفقون هذا القدر في نصف هذه المدة فقط لبلغ مجموع ما انفق على الزهراء اكثر من ٥٠,٠٠٠,٠٠٠ دينار ولكن يظهر ان الانفاق السنوي لم يكن يبلغ ثلث جباية المملكة الاّ في بضع سنين واما في سائر مدة البناء فكانت النفقة اقل من ذلك كثيراً

وقد ورد في مكان آخر ان الناصر كان ينفق على بنائها في ايامهِ ٣٠٠,٠٠٠ دينار في السنة فاذا حسبنا ما انفقهُ ابنهُ الحكم في مابقي من الاربعين سنة على هذه النسبة مع ما انفقهُ هو غير المقدار السنوي المذكور — كان مجموع مادخل في بناء هذا القصر الفخيم نحو ٢٠,٠٠٠,٠٠٠ دينار على الاقل ٠ ولا غرابة في ذلك لاننا اذا اعدنا النظر في تفاصيلهِ رأينا فيه ما يفوق الحصر من المرصعات والمذهبات وقد ادخلوا فيه شيئاً كثيراً من الذهب حتى جعلوا بعض قرميده منه ٠ وقد كان يتصرف في بنائه من الخدم والفعلة عشرة آلاف رجل و ١,٥٠٠ دابة ٠ واغرب من كل ذلك ان الناصر انما عمد الى بناء الزهراء مرضاة لحظية له كان اسمها « زهراء » طلبت اليه ان يبني مدينة باسمها وتكون خاصة بها[2]

## الزاهرة

واقتدى بالخليفة الناصر المنصور بن ابي عامر فابتنى سنة ٣٦٨ هـ قصراً لاقامتهِ سماه « الزاهرة » ليكون معقلاً له يحميه من اعدائه فاقامه في طرف البلد على نهر قرطبة الاعظم وحشد له الصناع والفعلة وبالغ في رفع اسواره وجعل فيه ابنية كثيرة من جملتها أهراء ودواوين واقطع ما حولها لوزرائه وكتابه وقواده فابتنوا الدور والقصور وغرسوا الحدائق فقامت الاسواق وتنافس الناس بالنزول في اكنافها تقرباً من صاحب الدولة حتى اتصلت ارباضها بارباض قرطبة واتصلت بهما الزهراء من الجهة الآخرى فاصبح الناس يمشون بين هذه المدن عشرة اميال على ضوء السرج

(١) نفح الطيب ٢٤٨ و٢٦٧ ج ١ وابن خلكان ٢٩ ج ٢ (٢) نفح الطيب ٢٤٨ ج ١

قنطرة قرطبة

ويجدر بنا في هذا المقام الاشارة الى القنطرة الفخيمة التي اقامها المسلمون على نهر قرطبة وكانت مبنية قبل الاسلام ثم سقطت فاعاد المسلمون بناءها على يد عبد الرحمن الغافقي وطولها ٨٠٠ ذراع وعرضها عشرون ذراعاً وارتفاعها ٦٠ ذراعاً وعدد حناياها ١٨ حنية وابراجها ١٩ برجاً (١)

قصر الحمرا وامثاله

الحمراء قصر شهير في غرناطة لا يزال شكله محفوظاً الى الآن يقصده السياح من كل مكان بناه ابن الاحمر في اواسط القرن الثامن للهجرة كما تقدم في ارض مساحتها ٣٥ فدانًا على مرتفع فسيح . ويقال انها سميت « الحمراء » نسبة الى لون قرميدها . وفي هذا القصر كانت بركة السباع وفي وسطها تماثيل أسود تقذف المياه من افواهها على شكل جميل

وبنى المنصور بن الاعلى قصرًا فخماً في بجاية انشأ فيه بركة على حافاتها اسود يجري الماء من افواهها وعلى البركة اشجار من ذهب وفضة ترمي فروعها في الماء وعلى اغصانها اطيار من اشكال شتى بالوان بديعة وصنع عجيب على مثال الشجرة التي ذكرنا انها نصبت في قصر المقتدر العباسي عند كلامنا عن ابنية العباسيين . وقد نظم ابن حمديس الشاعر الاندلسي قصيدة يصف بها بركة هذا القصر وخروج الماء من افواه الاسود قال منها :

وضراغم سكنت عرين رياسة ... تركت خرير الماء فيه زئيرا
فكأنما غشى النضار جسومها ... واذاب في افواهها البلورا
أُسد كأن سكونها متحرك ... في النفس لو وجدت هناك مثيرا
وتذكرت فتكاتها فكأنما ... اقعت على ادبارها لتثورا
وتخالها والشمس تجلو لونها ... نارًا وألسنها اللواحس نورا
فكأنما سلت سيوف جداول ... ذابت بلا نار فعدن غديرا
وكأنما نسج النسيم لمائه ... درعا فقدّر سردها تقديرا (٢)

وقس على ذلك قصر المأمون بن ذي النون الاندلسي فانه انفق في بنائه بيوت الاموال وكان من عجائبه انه صنع فيه بركة ماء كأنها بحيرة وبنى في وسطها قبة وساق الماء تحت الارض حتى علا فوق رأس القبة بتدبير احكمه المهندسون فكان الماء ينزل من اعلى القبة وحواليها محيطًا بها متصلاً بعضه ببعض فكانت القبة في غلالة من ماء سكباً لا يفتر والمأمون قاعد فيها (٢)

---

(١) نفح الطيب ٢٢٦ ج ١ (٢) نفح الطيب ٢٣٣ ج ١ (٣) سراج الملوك ٥٠

## ٤ — مباني مصر

### مباني آل طولون

أنشأ بنو طولون في مصر ابنية فخيمة اشهرها الجامع الذي بناه احمد بن طولون لا تزال آثاره الى الآن بالقاهرة · والقصر الذي بناه في القطائع وجعل لهُ ميدانًا كبيرًا ولما توفي احمد زاد فيه ابنه خمارويه وجعل الميدان كله بستانًا زرع فيه انواع الرياحين واصناف الشجر ونقل اليه الودى اللطيف الذي ينال ثمره القائم ومنه ما يتناوله الجالس من اصناف خيار النخل · وحمل اليه كل صنف من الشجر المطعم العجيب وانواع الورد وزرع فيه الزعفران وكسا اجسام النخل نحاسًا مذهبًا حسن الصنعة وجعل بين النحاس وأجساد النخل مزاريب الرصاص وأجرى فيها الماء المدبر فكان يخرج من تضاعيف قائم النخل عيون الماء فتنحدر الى فساق معمولة ويفيض منها الماء الى مجارٍ تسقي سائر البستان · وغرس فيه من الريحان المزروع على نقوش معمولة وكتابات مكتوبة يتعهدها البستانيّ بالمقراض حتى لا تزيد ورقة على ورقة · وزرع فيه النيلوفر الاحمر والازرق والاصفر والجنوي العجيب · وأهدي اليه من خراسان وغيرها كل اصل عجيب وطعموا له شجر المشمش باللوز واشباه ذلك من كل ما يستظرف ويستحسن · وبنى فيه برجًا من خشب الساج المنقوش بالنقر النافذ ليقوم مقام الاقفاص وزوّقه باصناف الاصباغ وبلط ارضه وجعل في تضاعيفه انهارًا لطافًا جداولها يجري فيها الماء مدبرًا من السواقي التي تدور على الآبار العذبة ويسقى منها الاشجار وغيرها · وسرّح في هذا البرج من اصناف القماري والدباسي والنونيات وكل طائر جميل الشكل حسن الصوت فكانت الطير تشرب وتغسل من تلك الانهار الجارية في البرج وجعل فيه اوكارًا في قواديس لطيفة ممكنة في جوف الحيطان لتفرخ الطيور فيها وعارض لها فيه عيدانا ممكنة في جوانبه لتقف عليها اذا تطايرت حتى يجاوب بعضها بعضًا بالصياح · وسرّح في البستان من الطير العجيب كالطواويس ودجاج الحبش ونحوها شيئًا كثيرًا

وعمل في داره مجلسًا برواقهِ سماه بيت الذهب طلى حيطانه كلها بالذهب المجاول باللازورد المعمول في احسن نقش واظرف تفصيل وجعل فيه على مقدار قامة ونصف صورًا في حيطانه بارزة من خشب معمول على صورته وصور حظاياه والمغنيات اللاتي تغنينه باحسن تصوير وابهج تزويق وجعل على رؤوسهن الاكاليل من الذهب الخالص الابريز الرزين · والكوادن المرصعة باصناف الجواهر وفي آذانها الاجراس الثقال الوزن المحكمة الصنعة وهي مسمرة في الحيطان ولونت اجسامها اشباه الثياب من الاصباغ العجيبة فكان

هذا البيت من اعجب مباني الدنيا

وجعل بين يدي هذا البناء فسقية ملأها زئبقاً . وذلك انه شكا الى طبيبه كثرة السهر فأشار عليه بالتغميز فأنف من ذلك وقال « لا اقدر على وضع يد احد عليّ » فقال له « تأمر بعمل بركة من زئبق » فعمل بركة يقال انها خمسون ذراعاً طولاً في خمسين ذراعاً عرضا وملأها من الزئبق فانفق في ذلك اموالاً عظيمة . وجعل في اركان البركة سككاً من الفضة الخالصة وجعل في السكك زنانير من حرير محكمة الصنعة في حلق من الفضة وعمل فرشاً من ادم يحشى بالريح حتى ينتفخ فيحكم حينئذ شده ويلقى على تلك البركة وتشد زنانير الحرير التي في حلقة الفضة بسكك الفضة وينام على هذا الفرش فلا يزال الفرش يرتج ويتحرك بحركة الزئبق ما دام عليه . وكانت هذه البركة من اعظم ما سمع به من الهمم الملوكية يرى لها في الليالي المقمرة منظر بهيج اذا تألف نور القمر بنور الزئبق (١)

مباني الفاطميين

ولما افضى الامر الى الفاطميين بنوا في القاهرة الجامع الازهر وهو عامر الى اليوم وقصوراً اشهرها القصران الشرقي والغربي وانفقوا على الاخير منها ٢,٠٠٠,٠٠٠ دينار (٢) فقس على ذلك عليه ما انفقوه في سائر القصور والدور كدار الفطرة ودار الديباج وغيرهما . ولما استبحر عمرانهم تفننوا في بناء المقاصير والمناظر على ضفة الخليج وشاطىء النيل كمنظرة الجامع الازهر ومنظرة اللؤلؤة على الخليج ومنظرة الغزالة بجانبها ومنظرة السكرة ومنظرة الدكة ومنظرة المقس ومنظرة التاج ومنظرة باب الفتوح ومنظرة البعل ومنظرة دار الملك غير المتنزهات العظيمة والقصور الفخيمة في الجزيرة والروضة كالقصر الذي بناه الآمر باحكام الله لمحبوبته البدوية وسماه الهودج

وكانوا يتأنقون في زخرفة تلك المناظر والقصور تأنقاً عظيماً يدلّ على مبلغ حضارتهم وتفننهم . فمنظرة بركة الحبش كانت مصنوعة من خشب مدهون صوّر فيها الشعراء كل شاعر وبلده وعند رأس الشاعر ابيات نظمها في ذكر المنظرة وبجانب كل صورة رفٌ لطيف مذهب فاذا دخل الخليفة وقرأ الاشعار امر ان يحط على كل رف صرة مختومة فيها خمسون ديناراً فيدخل الشاعر ويأخذ صرته (٣)

مباني الايوبيين والمماليك

ولما انتقلت الدولة الى الاكراد كان اعظم آثارهم البنائية قلعة القاهرة بناها السلطان

(١) المقريزي ٣١٦ ج ١ (٢) المقريزي ٤٥٧ ج ١ (٣) المقريزي ٤٨٦ ج ١

صلاح الدين ليعتصم بها من الشيعة ولا تزال قائمة الى اليوم

ومعظم ما في مصر الآن من الآثار البنائية انما هو من اعمال السلاطين المماليك ولا سيما المساجد كجامع السلطان حسن وجامع المؤيد وقايتباي وقلاوون وغيرهم · ومن آثارهم قبور الخلفاء خارج القاهرة فانها لهم وان نسبت الى الخلفاء بالاسم · غير ما اندثر من قصورهم وكانوا يقلدون الفاطميين في زخرفها كالرفرف الذي بناه الاشرف خليل بن قلاوون عالياً يشرف على الجيزة كلها وصوّر فيهِ امراء الدولة وخواصها وعقد عليه قبة على عمد وزخرفها وكان السلطان يجلس فيه · وقصر يلبغا بناه الملك الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٣٨هـ لسكنى الامير يلبغا حيث مدرسة السلطان حسن تجاه القلعة وغيرها

## الثروة والرخاء

واشتغال الخلفاء والامراء بانشاء المدن وبناء القصور والمتنزهات انما هو من ثمار الثروة وتكاثر النقود في بيوت الاموال فتنتقل الى رجال الدولة وغيرهم على ما بيناه في نظام الاجتماع ولذلك كان الخليفة اكثر الناس مالاً لانه قابض على بيت المال يليه الوزراء والكتاب والعمال فبنو هاشم فالاتباع والتجار وغيرهم واليك امثلة من ذلك

### ثروة الخلفاء واهلهم

لما كان الخلفاء يتولون شؤون الدولة بايديهم كانوا اكثر الناس ثروة فلما عهدوا بها الى الوزراء تحولت الثروة اليهم واصبح الخلفاء احياناً مثل سائر الفقراء[1] والاصل في ثروة بيت المال ان تكون للدولة تنفق في مصالحها وللخليفة بيت مال خاص بهِ ولكن الخلفاء تصرفوا باموال الدولة اولاً لاعتبارهم انفاقها مساعداً على تأييدها ثم انفقوها في الجوائز والهدايا لمثل هذه الغاية وتدرجوا الى بذلها في ملذاتهم وسائر اسباب تنعمهم · وكان يبقى مع ذلك في بيوت الاموال شيءٌ كثير · وقد بينّا في الجزء الثاني من هذا الكتاب مقدار ما بقي منها في خزائن الخلفاء الاولين من بني العباس المنصور والمهدي والمعتصم والمستعين والمكتفي وغيرهم (صفحة ١٢١ ) وما صار اليهم من الضياع الكثيرة ( صفحة ١٣٢ ) وذكرنا ما بلغت اليه ثروة امهات الخلفاء ولاسيما الخيزران ام الرشيد وقبيحة ام المعتز وغيرها ( صفحة ١٣٤ ) فلا حاجة الى التكرار · وانما نأتي ببعض التفصيل على سبيل المثال ـ ذكروا ان المكتفي خلف

(١) الجزء الثاني من هذا الكتاب ١٦٣

١٠٠,٠٠٠,٠٠٠ دينار هذا تفصيلها [١]

| دينار | |
|---|---|
| ٢٠,٠٠٠,٠٠٠ | من العين والورق والأواني المعمولة |
| ٢٠,٠٠٠,٠٠٠ | « الفرش |
| ٢٠,٠٠٠,٠٠٠ | « الكراع والسلاح والغلمان |
| ٢٠,٠٠٠,٠٠٠ | « الضياع والعقار والأملاك |
| ٢٠,٠٠٠,٠٠٠ | « الجوهر والطيب وما يجري معها |

ثروة رجال الدولة وغيرهم

وذكرنا في الجزء الثاني ايضاً صفحة ١٦٧ سبب ثروة الوزراء ومقادير الاموال التي حصلها الحسن بن الفرات والماردانى وابن كاس والافضل وابن شهيد واليك امثلة أخرى :

اول من اثرى من الوزراء البرامكة في عهد الرشيد فكثرت ضياعهم «الابعديات والجفالك» حتى بلغت غلة يحيي وابنه جعفر فقط ٢٠,٠٠٠,٠٠٠ دينار في السنة · ولما نكبوا وقبضت اموالهم بلغ مقدار ما قبض منها ٣٠,٦٧٦,٠٠٠ دينار غير الضياع والدور والرياش [٢] ويشبه الوزراء ببغداد الكتاب بمصر وقد اثرى منهم جماعة كبيرة كآل الماردانى في اواسط القرن الثالث للهجرة فملك احدهم محمد بن علي الماردانى ما قيمته ٣,٠٠٠,٠٠٠ دينار من الضياع بالشام ومصر والامتعة مع كثرة ما كانوا ينفقونه على الناس من الرواتب · وكانت غلته ٤٠٠,٠٠٠ دينار في السنة [٣] وهو مع ذلك لا يعدُّ شيئاً بالنظر الى البرامكة · ومثلهم آل المغربي وآل الكتامي بمصر ايضاً

اما العمال والامراء فقد كانوا يحشدون الاموال الكثيرة ولاسيما المفوضين منهم ويسهل ذلك عليهم لاطلاق ايديهم في مصادر الجباية فيجمعون ما شاؤا وكيف شاؤا · وقد أثروا وكثرت اموالهم من ايام بني امية قبل زمن الوزراء فخلف عمرو بن العاص سبعين بهاراً من الدنانير والبهار اردبان بالمصري ذهباً [٤] وبلغت غلة خالد القسري ١٣,٠٠٠,٠٠٠ درهم [٥] وصاروا في عهد بني العباس اوفر ثروة ولا سيما بعد ان طمعوا بالاستقلال فخلف يعقوب

(١) لطائف المعارف ٧٢ (٢) العقد الفريد ٢٢ ج ٣
(٣) المقريزي ١٥٥ ج ٢ (٤) المقريزي ٣٠١ ج ١
(٥) ابن الاثير ١٠٣ ج ٥

ابن الليث الصفار في بيت ماله ٥٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم و ٤,٠٠٠,٠٠٠ دينار[1] وقس على ذلك اموال السلاطين المماليك بمصر ورجالهم · وكانت مخلفاتهم من الجواهر والحلي تقدر بالارطال والقناطير والصناديق — مثال ذلك ماخلفه الامير سيف الدين تنكز التستري منها ١٩ رطلاً من الزمرد والياقوت وستة صناديق جواهر وفصوص الماس و١,٢٥٠ حبة لؤلؤ كبار مدورة مما زنته درهم الى مثقال و٢٤٠,٠٠٠ مثقال ذهب و ١,٠٠٠,٠٠٠ درهم فضة واربعة قناطير مصرية من المصاغ والعقود ونحوها كالحلق والاساور وستة قناطير فضيات و ١,٢٠٠,٠٠٠ دينار · فقس عليه ثروة الخلفاء الفاطميين والسلاطين المماليك وغيرهم من سلاطين المسلمين وملوكهم

غير ثروة الحواشي والاتباع ممن أثرى بالصناعة والادب او التجارة فقد ذكرنا ثروة بعض التجار في ما تقدم فاعتبر ذلك في سواهم من الاطباء والمغنين والشعراء فان ابراهيم الموصلي مغني الرشيد توفي عن ٢٤,٠٠٠,٠٠٠ درهم[2] وذكرنا في باب الرواتب من الجزء الثاني صفحة ١٥١ ما كان يقبضه جبرائيل بن بختيشوع طبيبه

## نتائج الثروة

من قواعد العمران اذا تكاثرت الاموال في ايدي الناس ان يتوسعوا بالانفاق ويتنعموا بمعيشتهم فيتأنقون بالطعام والشراب والسماع وغيرها من الملذات الجسدية و يتنعمون بالالبسة الثمينة والرياش الفاخر · ثم يطلبون الملذات المعنوية من التفاخر باقتناء المجوهرات والعقارات و يلتمسون سعة الشهرة فيقربون من يضمن لهم ذلك كالشعراء ورواة الاخبار في ذلك العهد كما يفعل بعض اغنياء زماننا بالتقرب من ارباب الصحافة · ونقسم الكلام في هذا الباب الى فصول :

### ١ — التأنق في الطعام

قد رأيت في كلامنا عن اطعمة العرب انها كانت ساذجة قليلة ثم تعددت بعد الاختلاط بالاعاجم ولا سيما الفرس · والعرب قلدوا الفرس في اكثر اسباب الحضارة فضلاً عن نظام الحكومة · فكانوا اذا احوجهم الاحتفال بعيد او عرس او ختان سألوا عما يفعله

(١) المسعودي ٣١٤ ج ٢ وابن خلكان ٣١٩ ج ٢ (٢) سير الملوك ١١٣

الفرس في مثله وقلدوهم فيه — سموا بذلك من عهد الامويين وكان الصحابة قبلهم يتحاشون التنعم اقتداء بخلفائهم الراشدين مع غلبة البداوة على طباعهم . فابو موسى الاشعري كان يتجافى عن اكل الدجاج لانه لم يعهدها للعرب . وكانوا يتجنبون الاكثار من اكل اللحوم و يعتقدون اضرارها نحو ما يعتقده النباتيون اليوم تمثلاً بما قاله عمر بن الخطاب « مدمن اللحم كمدمن الخمر » . فلما حكم الامويون ومالوا الى التنعم كان الفرس احسن مثال لهم . وأراد غير واحد من امراء العراق تقليدهم في ذلك ولكن البداوة كانت تتغلب عليهم فيرجعون . ذكروا ان الحجاج بن يوسف اولم لختان احد اولاده فاستحضر بعض الدهاقين ليسأله عن ولائم الفرس وقال « اخبرني باعظم صنيع شهدته » فقال « شهدت ايها الامير بعض مرازبة كسرى وقد صنع لاهل فارس صنيعاً احضر فيه صحاف الذهب على اخونة الفضة اربعا على كل واحد وتحمله اربع وصائف و يجلس عليه اربعة من الناس فاذا أُطعموا اتبعوا اربعتهم المائدة بصحافها ووصائفها » فلما سمع الحجاج ذلك اكبره وغلبت عليه البداوة فقال « يا غلام انحر الجزر واطعم الناس» [1]

على انهم ما لبثوا ان رضخوا لتيار الترف حتى تكيفوا لموافقة البيئة التي تحفُّ بهم فبعد ان كانوا يحسبون الكافور ملحاً والرز طعاماً مسموماً والخبز المرقق كاغداً و بعد ان اكلوا العلهز والخنافس والعقارب وعجنوا الحنطة بنخالتها [2] فاقوا الفرس والروم في التأنق والتنعم فتفننوا في معالجة اللحوم واصطناع التوابل المنبهة لشهوة الطعام التماساً للمزيد من اللذة . فكان الخلفاء والملوك من بني هاشم اذا جلسوا الى الطعام يقف الاطباء بين ايديهم ومعهم البراني بالجوارشنات الهاضمة المسخنة الطابخة المقوية للحرارة الغريزية في الشتاء على اصطلاحهم في ذلك العصر . و يقفون في الصيف ومعهم الاشربة الباردة والجوارشنات الموافقة لذلك الفصل [3] واقتدى بهم سائر الامراء واهل الدولة فكانوا يستشيرون الاطباء و يستعينون بهم في حفظ صحتهم حتى في اثناء الطعام وهم على المائدة وكان سيف الدولة اذا حضر الطعام جلس معه على المائدة ٢٤ طبيباً ارزاقهم جارية

وغالى الخلفاء في استحضار ما اشتهر بطيبه من الوان اللحوم والطيور والفاكهة ولو بعد مكانه فيحملونه على البريد ينفقون في ذلك الاموال الكثيرة [4] وكانوا يربون الطيور الداجنة على اطعمة مغذية يتوهمون انها تزيد في لذة طعمها او نفعها او تسهل هضمها . فكانوا

(١) ابن خلدون ١٤٥ ج ١ (٢) ابن خلدون ١٧٠ ج ١
(٣) طبقات الاطباء ١٧٥ ج ١ (٤) لطائف المعارف ٩٥ وابن بطوطه ٣ ج ٢

يعلفون الفراريج الجوز المقشر و يسقونها اللبن الحليب[١] وتفنن الطهاة في اصطناع الاطعمة التي يظنون فيها الغذاء الكثير او النفع الصحي وربما فعل بعضهم ذلك مغالاة بالاحتفاء كما فعل ابراهيم بن المهدي في زيارة زاره فيها الرشيد فاصطنع له اطعمة بينها جام سمك مقطع فاستصغر قطعه فسأله الرشيد عن ذلك فقال «يا امير المؤمنين هذه ألسنة السمك» وقدرت نفقة ما في ذلك الجام بالف درهم[٢] وقس عليه تفننهم في اصطناع الفالوذج بدهن الفستق والمخ المعقود بالسكر والطبرزد والعسل

فاتسعت مطابخ الخلفاء والامراء لتعدد الوان الاطعمة والتوسع في النفقة عليها حتى صار لكل صنف منها خدم عليهم رئيس . فكان عندهم لتربية الطيور ادارة قائمة بذاتها عليها رئيس و بلغت علوفة البط وحدها على ايام المقتدر العباسي ٣٠ قفيزاً من الشعير كل شهر[٣] فاعتبر كم يحتاج اليه احدهم اذا اراد نقل مطبخه من الدواب لحمله . ذكروا ان عمرو بن الليث الصفار كان مطبخه يحمل على ٦٠٠ جمل[٤] وكان للخليفة المقتفي العباسي ثمانون جملاً تحمل الماء من دجله لشرب عياله[٥] واما مقدار المطبوخ من كل طعام فلا قياس له على انهم كانوا يجعلونه اضعاف ما يحتاجون اليه مخافة ان يطرقهم اضياف فكانت الاطعمة تفيض بمقادير كبيرة يحملها الخدم و يبيعونها و يرتفقون باثمانها[٦]

فنتج من الانغماس في الاكل والتفنن في التشويق اليه كثير من علل القناة الهضمية توالت على اهل الترف في ذلك العهد كالقولنج وتلبك المعدة والدوزنطاريا وغيرها من عواقب النهم في اللحوم كالنقرس والروماتزم ونحوهما . وتسلطت السوداء على امزجتهم وتولتهم حدة المزاج فجرّهم الغضب الى سرعة الفتك والقتل من تغلب السوداء كما يتضح من مراجعة اخبارهم . وعلة ذلك في الغالب فساد الهضم . واشتهر من الخلفاء والامراء غير واحد من الاكلة منهم في ايام بني أمية معاوية بن ابي سفيان وعبيد الله بن زياد والحجاج ابن يوسف وسليمان بن عبد الملك واشتهر من بني العباس محمد الامين[٧]

(١) طبقات الاطباء ١٤٠ ج ١ (٢) المسعودي ١٩٩ ج ٢
(٣) تاريخ الوزراء ٣٥١ (٤) الفخري ٢٣٢ (٥) الفخري ٢٧٦
(٦) المقريزي ٣١٨ ج ١
(٧) المسعودي ٢٦٧ ج ٢ والفرج بعد الشدة ١٠٢ ج ٢

## ٢ — البذخ في الالبسة

كان المسلمون في صدر الاسلام يتوخون الخشونة في العيش والتعفف بالمطعم والملبس فكان الخليفة من الراشدين يمشي في الاسواق وعليه القميص الخلق المرقوع الى نصف ساقه او ثوب من كرباس غليظ وفي رجله نعلان من ليف وحمائل سيفه من ليف وفي يده درة يستوفي الحد بها [١] . وكان عمالهم في مثل حالهم اذا وفد احدهم على الخليفة لبس جبة صوف وتعمم بعمامة دكناء واحتذى خفين مطارقين ودخل عليه [٢] واول من اتخذ زي الملوك من أمراء المسلمين معاوية منذ كان اميرًا في الشام . وقدم عليه عمر بن الخطاب في اثناء ذلك فلما رآه في ابهة الملك انكرها عليه وقال له « أكسروية يا معاوية ؟ »[٣]

ثم تحضروا وكثرت الاموال بين ايديهم وخالطوا اهل الترف من الاعاجم فاضطروا بطبيعة المدنية الى التبسط في العيش والتنعم باللباس . واحب الامويون الوشي كما تقدم واكثرهم رغبة في لبسه هشام بن عبد الملك فاجتمع عنده ١٢،٠٠٠ قميص وشي و١٠،٠٠٠ تكة حرير . وكانت كسوته اذا حج تحمل على ٧٠٠ جمل[٤] وفي ايامهم تسابق الصناع الى اجادة الوشي . وزاد المسلمون بذخًا في ايام بني العباس ورغب اهل التجارة في حمل اصناف المنسوجات الحريرية والصوفية بين موشى ومطرز ومحوك بالذهب او الفضة والمرصع بالحجارة الكريمة على اختلاف البلاد التي يصنع فيها على نحو ما بيَّناه في كلامنا عما يحمل من اصناف التجارة الى بغداد

ومن اهم المنسوجات الثمينة الخز وهو نسيج ناعم يصنع من الحرير ومن وبر الخرز وهو ذكر الارانب [٥] . والابريسم حرير خالص والديباج نسيج حريري موشى بالقصب باشكال الحيوانات ونحوها . والبز نسيج قطني ثمين وغير ذلك من اصناف الحرير والكتان والاوداري والملحم والمعلم والمنير ومنسوجات الشعر او الوبر او الصوف وما يلحق ذلك من انواع السمور والقاقم وغيره — يصنعون منها الاقبية والدراريع والطيالسة والجبب والعمائم والابراد والغلائل والملاحف والازر والسراويلات والشاشيات والتكك وغيرها

وكان الصناع يتبارون في اتقان هذه الصنائع ويغالون في ترفيعها لما يلاقونه من البذل

(١) الفخري ٢٥ و ٦٦ (٢) العقد الفريد ٦ ج ١ (٣) ابن خلدون ١٦٩ ج ١
(٤) المستطرف ٤٠ ج ٢ والعقد الفريد ٢٦٦ ج ٢ (٥) الف باء ١٨٧ ج ٢

في ابتياعها لتوفر الثروة بين ايدي الناس ولا سيما الخليفة واهل دولته . فكان هؤلاء يتهافتون على اقتناء الالبسة لا يبالون كم يكون ثمنها حتى بلغت قيمة العمامة من الدبيقي خمسمائة دينار وهم مع ذلك يكثرون من اقتنائها . وربما لبس الواحد ٩ اقبية كل قباء بلون خاص للمفاخرة في البذخ . وقد تزيد على اضعاف حاجتهم اليها فيجتمع عند احدهم عشرات او مئات او ألوف من القطعة الواحدة ولا سيما الخلفاء — مثاله ما خلفه المكتفي بالله من الالبسة وهو :

| عدد | |
|---|---|
| ٤,٠٠٠,٠٠٠ | من الثياب المقصورة سوى الخامات |
| ٦٣,٠٠٠ | « الاثواب الخراسانية المروية |
| ٨,٠٠٠ | « الملاءات |
| ١٣,٠٠٠ | « العمائم المروية |
| ١,٨٠٠ | « الحلل الموشاة اليمانية وغيرها منسوجة بالذهب |
| ١٨,٠٠٠ | « البطائن التي تحمل من كرمان في انابيب القصب |
| ١٨,٠٠٠ | « الابسطة الارمنية |

وتوفي ذو اليمينين وفي خزانته ١,٣٠٠ سراويل لم يستعملها ووجدوا في كسوة بختيشوع الطبيب ٤٠٠ سراويل ديبقي ولما قتل برجوان خادم الوزير بمصر وجدوا في تركته الف سراويل دبيقي بالف تكة حرير

وغالوا في البذخ حتى كسوا دوابهم المنسوجات الحريرية الموشاة وكان الفاطميون يلبسون الفيلة اجلة من الخسرواني الاحمر المذهب . وكان في القاهرة دار يصنع فيها الديباج ونحوه . وكان عند الفاطميين خزانة للثياب يسمونها دار الكسوة يصطنعون فيها جميع انواع الثياب والبز ويكسون بها الناس على اختلاف اصنافهم كسوة الشتاء وكسوة الصيف . وقد فصَّل المقريزي ما تحويه تلك الدار من الالوان والاشكال (١) ولما جهز خمارويه ابنته قطر الندى الى الخليفة المعتضد العباسي كان من جملة الجهاز الف تكة ثمن الواحدة عشرة دنانير (٢) وقس عليه سائر الملابس

(١) المقريزي ٤٠٩ ج ١ (٢) المقريزي ٣١٩ ج ١

## ٣ — الاثاث والرياش والمجوهرات

كان الخلفاء الراشدون يجلسون على الارض مثل سائر الناس وكذلك عمالهم فكان عمرو بن العاص بمصر يجلس في قصره على الارض مع العرب ويأتيه المقوقس ومعه سرير الذهب محمول على الايدي لجلوسه شأن الملوك يومئذ فيجلس عليهِ وهو على ما تقدم وفاءً لهُ بما اعتقد معهم من الذمة اطراحًا لابهة الملك . فما لبث المسلمون ان تحضروا واثروا حتى اتخذوا الاسرة الذهب والعاج وفاقوا الاكاسرة والقياصرة قبلهم . واول من اتخذ السرير في الاسلام معاوية بن ابي سفيان ويريدون بالسرير المقعد او الكرسي الكبير . ولم يقدم معاوية على ذلك الآ بعد استئذان المسلمين واعتذر بثقل جسمه فزعم انهُ بدن فأذنوا له فاتخذه واقتدى بهِ من جاءَ بعده من الخلفاء (١)

الاثاث والرياش عند الفرس

لما خرج المسلمون للفتح في زمن الراشدين كان اكثر ما لقوه من الفرش الفاخر والمجوهرات الثمينة في فارس عند فتح المدائن فدهشوا منهُ ولم يعرفوا قيمته . ذكروا بدويًّا ظفر يوم المدائن بحجر من الياقوت كبير يساوي مبلغًا عظيماً فلم يدر قيمته فاشتراه منه بعضهم بألف درهم ثم علم انهُ كان يساوي اضعاف ذلك المبلغ فلامهُ اصحابه على تفريطه بهِ فقال « لو عرفت عددًا اكثر من الالف لطلبتهُ » ( )

وكان في جملة ما عثروا عليه في المدائن كثيرٌ من الآنية والحلية الذهب المرصعة بالجوهر وفيها تاج كسرى نفسه والبسة من الديباج المنسوج بالذهب المنظوم بالجوهر . وظفر آخرون بسفطين في احدهما فرس من ذهب بسرج من فضة وعلى ثغره ولباتهِ الياقوت والزمرد المنظوم على الفضة وفارس من فضة مكلل بالجوهر . وفي الآخر ناقة من فضة عليها شليل من ذهب مكلل بالجوهر . ووقع لهم بساط يسمونه القطيف طوله ٦٠ ذراعًا في ٦٠ مطرز بالصور وعليه فصوص كالانهار ارضها مذهبة وخلال ذلك فصوصٌ كالدر وفي حافاتهِ كالارض المزروعة والارض المبقلة بالنبات في الربيع والورق من الحرير على قضبان الذهب وزهره الذهب والفضة وثمره الجوهر . وحمل هذا البساط الى عمر في المدينة فقطعه وفرقه في اصحابه مثل سائر الغنائم (٢)

---

(١) ابن خلدون ٢١٧ ج ١ (٢) الفخري ٧٤ (٤) ابن الاثير ٢٥٥ ج ٢

وكان عمر اذا جاءته الغنائم من العراق وفيها الجوهر بكي لما كان يخافه من مصير المسلمين الى الترف الآيل للسقوط · وكذلك ابو بكر وله السبق في نصرة الاسلام والفضل في تأييده فلما حضرته الوفاة وبّخ المهاجرين وخوفهم وقال « والله لتتخذن نضائد الديباج وستور الحرير » والنبي قبلهما نهى عن لبس الحرير واتخاذ آنية الذهب (١) فلم ينفعهم ذلك كله فما كادوا ياخذون باطراف الحضارة حتى انغمسوا باسباب التنعم بالفرش الوثير والرياش الفاخر

بدأ بذلك الامويون لما تقدم من رغبتهم في الدنيا وتحويلهم الخلافة الى الملك فاكثر خلفاؤهم المسرفون ولا سيما الوليد بن يزيد من العقود الجوهر يغيرها في كل يوم كما تغير الثياب وكان يجمعه من كل وجه ويغالي فيه حتى اغلاه (٢) على انهم اقتصروا من اسباب الحضارة على مثل ذلك لرغبتهم في البقاء على البداوة · الاّ ما اتخذوه من الستائر المطرزة التي كانت تصنع لهم في مصر كما تصنع للروم من قبل عليها طرازٌ باليونانية مفاده البسملة عند النصارى (٣) فابدلها عبد الملك بالطراز العربي بصورة التوحيد · غير ما استعملوه من الوسائد المزركشة

الاثاث والرياش عند العباسيين

لما انتقلت الخلافة الى العباسيين اشتغل السفاح والمنصور بتأسيس الدولة وتأييدها فلما تأيد سلطانهم مالوا الى الترفه فاخذوا بتقليد الدول السابقة لهم عملاً بناموس العمران فاقتنوا الاسرة الذهب المرصعة بالجوهر او الابنوس المنزل بالعاج واتخذوا المقاعد والنمارق والكراسي ونصبوا منائر الذهب اوقدوا فيها الشموع من العنبر وعلقوا الستور المطرزة والموشاة وافترشوا البسط والطنافس المزركشة والحصر المنسوجة بالذهب المكللة بالدر والياقوت (٤) وغالوا في اقتناء آنية الذهب والفضة يأتون من كل بلد باحسن مصنوعاته واثمنها · فحملوا الستور المعلمة من فسا والبسط والمصليات من تستر وبخارا والحصر من عبادان والمقاعد من دشت — على ان احسن اصناف الفرش المذهبة بطراز الذهب كانت تأتيهم من ارمينية · والطاقم الارمني وهو عشرة مصليات بمخادها ومساندها ومطارحها وبساطها يساوي خمسة الآف دينار (٥) وكانت أطباق الخشب لآنية الطعام تأتيهم من طبرستان والزجاج والخزف من البصرة واكثره وارد في الاصل من بلاد الصين على ما فصلناه في كلامنا عن التجارة من هذا الجزء · ولكن الزجاج الرقيق كان يحمل اليهم من الشام وكان يضرب به المثل بالرقة والصفاء فيقال ارق

(١) الف باء ١٨٧ ج ٣ (٢) الاغاني ١٢٩ ج ٦ (٣) الدميري ٥٨ ج ١
(٤) ابن خلدون ١٤٥ ج ١ (٥) الفرج بعد الشدة ١٠٣ ج ١

من زجاج الشام واصفى من زجاج الشام [١] — اتخذوا ما تقدم من الآنية والمفروشات تقليداً للفرس والروم على ما كانت عليه عندهم ثم عربوها فجعلوا ما ينقش عليها من الكتابة باللغة العربية بين امثال واشعار وحكم ينقشونها على الستور ويعلقونها بمسامير الذهب والفضة [٢] ويزركشون البسط والطنافس نيرسمون في اواسطها اشكالاً وصوراً مما في البر والبحر ويطرزون حواشيها بالذهب او القصب ابياتاً من الشعر وربما طرزوا دور البساط بقصيدة [٣] وغالوا في الزخرفة حتى نقشوا الاشعار على آنية البلور واطباق الطعام وعلى جدران القاعات وفوق ابوابها — يتفاوت ذلك شكلاً ومقداراً بتفاوت طبقات الناس من المطرز بالحرير الى المزركش بالقصب فالمحلى بالذهب فالمرصع بالجوهر — كالبساط الذي كان لام المستعين وعليه صورة كل حيوان من جميع الاجناس وصورة كل طائر من ذهب واعينها يواقيت وجواهر انفقت في صنعه ١٣٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم [٤]

واحدث العباسيون في عهد الرشيد اشكالاً من الفرش وفنونه لم يسبقهم اليها احد منها ما ينسبون اختراعه الى زوجته زبيدة فقد ذكروا انها اول من اتخذ القباب من الفضة والابنوس والصندل وكلاليبها من الذهب والفضة ملبسة بالوشي والسمور والديباج وانواع الحرير الاحمر والاصفر والاخضر والازرق [٥] .

واخترع العباسيون المذاب وهي نوع من المراوح لم تكن معروفة قبلهم [٦] وتفننوا في تزيينها وكتابة الاشعار عليها مما يناسب المراد بها او يشار به الى غرض . كما فعل ابو العتاهية في طلب الجارية عتبة من الرشيد وكان يخاف ان يرده فاهدى اليه ثلاث مراوح كتب على كل منها بيتاً هذا مجموعها :

ولقد تنسمت الرياح لحاجتي ... فاذا لها من راحتيه شميمُ
اعلقت نفسي من رجائك ماله ... عنق يخب اليك بي ورسيمُ
ولربما استأسيت ثم اقول لا ... ان الذي ضمن النجاح كريمُ [٧]

على ان كتابة الاشعار على المراوح كانت معروفة في ايام بني أمية [٨]

---

(١) لطائف المعارف ٩٥ (٢) الابشيهي ٩١ (٣) الاغانى ٤١ ج ١٥
(٤) المستطرف ١٣٤ ج ١ (٥) المسعودي ٣٦٦ ج ١
(٦) الاغانى ٨١ ج ١٢ (٧) المسعودي ١٩٦ ج ٢
(٨) العقد الفريد ١٠٨٤ ج ٣

## الجوهرات عند العباسيين

تغالى الخلفاء العباسيون في اقتناء الجوهرات ولا سيما الدر وهو اللؤلؤ الكبير . والياقوت الاحمر القاني ويسمى البهرماني . ويتلوه الاحمر المشرق الرماني ثم الازرق الغميق وتشوب زرقته حمرة ويسمى الاسمانجوني . وبعده الاصفر وهو الفاقع اللون وبعده الذهبي . ولكل من هذه الاشكال قيمة تختلف باختلاف الصفاء والحجم . ومنها الزمرد واحسنه يعرف بالذبابي لقرب لونه من لون الذباب الكبير المائل الى الخضرة . والماس كانوا يفضلون منه ما يشوب لونه حمرة يسيرة — هذا اهم ما كانوا يتفاخرون باقتنائه من الحجارة الكريمة واما الفيروز والمرجان والعقيق والجزع فقلما كان الملوك يقتنونه لكثرته

واكثر ماتناقله المسلمون من الحجارة الكريمة في اوائل دولتهم مأخوذ من غنائم الفرس لانهم غنموا ما يفوق الحصر من الجواهر التي قضى الفرس اجيالاً وهم يجمعونها ويتوارثونها فقبضها العرب صفقة واحدة ولم يعرفوا قيمتها كما بيناه آنفاً . واصابوا نحو ذلك لما حاربوا الاكراد فانهم غنموا سفطاً فيه جوهر حملوه الى عمر في جملة الغنائم فامر ببيعه وقسمة ثمنه في المسلمين فباعه وقسمه وكان الفص يباع بخمسة دراهم وقيمته عشرون الفاً [1]

ولما تحضروا صاروا يشترون الجواهر بالاثمان الغالية فاشترى الرشيد فص ياقوت احمر باربعين الف دينار وكان قديماً ويعرف بالجبل والملوك تصونه فنقش عليه الرشيد اسمه [2] واشترى فصاً آخر بمائة وعشرين الف درهم [3] وعرض احد تجار المصوغات ببغداد على يحيى ابن خالد سفط جوهر فساومه على ثمنه بسبعة ملايين درهم [4]

وكثيراً ما كانوا يستخدمون الجواهر بدلاً من المبالغ الكبيرة فاذا عزم احدهم على سفر طويل يستغرق نفقة عشرة آلاف دينار مثلاً فبدلاً من ان يحمل ذلك المال ذهباً او فضة استبدله بجوهرة او عدة جواهر يسهل حملها في الجيب . فاذا وصل الى البلد المقصود باع الجواهر وانفق من ثمنها كما يفعل الناس اليوم بتحاويل المصارف المالية او البنك نوط

وكان الامويون يرغبون في الجوهرات ايضاً وقد رصَّعوا بها الحلي وبعض الآنية واصطنعوا منها العقود للبسهم ولبس نسائهم وجواريهم . اما العباسيون فبالغوا في ذلك حتى نظموها في عصائب نسائهم كما فعلت اخت الرشيد [5] ورصعوا بها خفافهنَّ كما فعلت ام جعفر

(۱) ابن الاثير ٢٤ ج ٣ (٢) المسعودي ٣٠٠ ج ٢
(٣) الاتليدي ١٤١ (٤) الطبري ١٨٩ ج ٢ (٥) الاغاني ٨٣ ج ٩

زوجته[١]

فكان الخلفاء العباسيون يقتنون من الآنية والفرش والجوهرات والثياب مالا يعلم مقداره الا الله يدلك على ذلك ما قدمناه مما خلفه المكتفي وغيره وما اخرجوه من خزائنهم في فتنة البساسيري في اواسط القرن الخامس من جملته ٧٥,٠٠٠ قطعة ديباج و ١١,٠٠٠ كزاغند و ٣٠,٠٠٠ سيف وهو بعض ما كان في دار الخليفة ومع ذلك فهو لا يقاس بما كان عند الفاطميين كما سترى

وقد انكر ابن خلدون ترف بني العباس في ملابسهم وزينتهم وسائر متناولاتهم لما كانوا عليه من خشونة البداوة[٢] واستشهد بالمسعودي والطبري · ولا ينطبق رأيه في ذلك على ما ذكره هذان ولا على ما قاله هو نفسه · لان المسعودي هو الذي اخبرنا بنظم الجوهر في خفاف ام جعفر وهي من اقرب الناس للتقوى · والطبري اورد اخباراً كثيرة تدل على ترف العباسيين في عصر الرشيد · غير ما ذكره غيرهما من ثقات التاريخ والادب المتقدمين كأصحاب الاغاني والعقد الفريد والمبرد والمعارف ولطائف المعارف وغيرهم · ونقل المؤرخون عنهم ذلك ولم يكبروه ولا اعترضوا عليه — حتى ابن خلدون نفسه فقد ذكر في مقدمة تاريخه «ان المأمون اعطى بوران في مهرها ليلة زفافها الف حصاة من الياقوت وقد اوقد الشموع العنبر في كل واحدة مائة منّ وثلثان وبسط لها فرشاً كان الحصير منها منسوجاً بالذهب مكللاً بالدر والياقوت»[٣] ويلوح لنا ان ما كانوا يتجافون عنه في صدر الدولة العباسية انما هو الركوب بحلية الذهب واول من ركب فيها منهم المعتز بالله[٤] فمؤرخنا الفيلسوف شديد الرغبة في تنزيه العباسيين عن الترف وهم من اعرق الخلفاء فيه

### بذخ الفاطميين

كان العباسيون قدوة لمن قام بعدهم من الدول الاسلامية في مصر والشام والمغرب والاندلس · فالفاطميون بمصر كانوا يناظرون العباسيين في كل شيءٍ حتى في اسباب الحضارة وكان التمدن الاسلامي قد نضج والدولة العباسية اخذت بالتقهقر ففاقوهم في كثير من اسباب البذخ والترف ولا سيما من حيث الاثاث والرياش والثياب فقد رأيت ان العباسيين رصعوا عصائب نسائهم وخفافهنّ بالجواهر ولكن الفاطميين رصعوا بها آنية المطبخ واتخذوا كوز الزير من البلور مرصعاً بالجوهر وكللوا المزيرة بحب اللؤلؤ النفيس وتأنقوا في المصوغات

(١) المسعودي ٣٦٦ ج ٢ (٢) ابن خلدون ١٥ ج ١

(٣) ابن خلدون ١٤٥ ج ١ (٤) المسعودي ٣٠٥ ج ٢

حتى اتخذوا منها التماثيل المرصعة للزينة في مجالسهم . فاذا جلس الخليفة في احدى المناظر للراحة او تبديل الثياب وضعوا بين يديه الصواني الذهب عليها اشكال الصور الآدمية والوحشية من الفيلة والزرافات ونحوها معمولة من الذهب والفضة والعنبر والمرسين المشدود والمظفور عليها المكلل باللؤلؤ والياقوت والزبرجد ومن الصور الوحشية ما يشبه الفيلة بينها عنبر معجون كخلقة الفيل وناباه فضة وعيناه جوهرتان كبيرتان في كل منهما مسمار ذهب مجرى سواده وعلى الفيل سرير منجور من عود بتكآت فضة وذهب وعليه عدة من الرجال ركبان عليهم اللبوس تشبه الزرديات وعلى رؤوسهم الخود وبايديهم السيوف المجردة والدرق وجميع ذلك فضة . ثم صور السباع منجورة من عود وعينا السبع ياقوتتان حمراوان وهو على فريسته واشكال من سائر الوحوش . واصناف تشد من المرسين المكلل باللؤلؤ شبه الفاكهة (١)

وكان للفاطميين في القاهرة دور يختزنون بها أدوات الترف والبذخ يسمونها خزائن بعضها للفرش والبعض الآخر للجوهر وآخر للطيب وآخر للبنود وآخر للسلاح وآخر للسروج او الدرق او الكسوات او الادم او الشراب او التوابل او الخيم . وكان الخليفة يذهب الى مجالس خاصة له في تلك الخزائن . والمجلس عبارة عن دكة عليها طراحة ولها فراش يخدمها وينظفها ليجلس الخليفة عليها اذا زار تلك الخزانة . وقد توسع المقريزي في وصف هذه الدور وما حوته من الآلة والرياش والثياب والجواهر والاطياب مما يضيق عنه هذا المقام فليراجع في مكانه (٢) ونأتي بشيء من ذلك على سبيل المثال :

الحلى والجواهر عند الفاطميين

فمما أخرجوه من خزانة الجوهر في ايام الشدة على عهد المستنصر بالله ( توفي سنة ٤٨٧ هـ ) صندوق فيه سبعة امداد زمرد سألوا الصياغ عن قيمتها فقالوا انما نعرف قيمة الشيء اذا كان مثله موجوداً . واستخرجوا خريطة فيها ويبة جوهر قال الصياغ ان لا قيمة له واصل ثمنه ٧٠٠،٠٠٠ دينار بيع يومئذ بعشرين الف دينار . ووجدوا ما لا يحصى من اقداح البلور المنقوش والمجرود وصحوناً من الميناء منها ما يساوي مئات من الدنانير وفي مكان آخر ١٨،٠٠٠ قطعة من بلور تتراوح اثمانها بين عشرة دنانير والف دينار كل قطعة . وصوانٍ من الذهب المجراة بالميناء وغير المجراة المنقوشة بانواع النقوش و ١٧،٠٠٠ غلاف خيار مبطن بالحرير محلاة بالذهب . ونحو مئة كأس بادزهر واشباهها

(١) المقريزي ٤٧٢ ج ١ (٢) المقريزي ٤٠٩ — ٤٢٥ ج ١

على اكثرها اسم هرون الرشيد

غير ما وجدوه هناك من الصناديق المملوءة بالسكاكين المذهبة والمفضضة وانصابها من الجواهر المختلفة وصناديق مملوءة دوى (جمع دواة) على اختلاف الاشكال من الذهب والفضة والصندل والعود والابنوس والعاج محلاة بالجواهر مما يساوي الف دينار الى بضعة آلاف كل دواة • وعدة ازيار مملوءة كافوراً وعدة جماجم عنبر ونوافج المسك التيبتي وشجر العود وغيره

ومما خلفته رشيدة بنت المعز وحفظ هناك ما قيمته ١،٧٠٠،٠٠٠ دينار من جملتها ١٢،٠٠٠ من الثياب المصمت الواناً و ١٠٠ قاطر ميز مملوءة كافوراً قيصورياً ومعممات بجواهر من ايام المعز • وبيت هرون الرشيد الخز الاسود الذي مات فيه بطوس • ومثل ذلك مما تركته عبدة بنت المعز ايضاً ويطول شرحه • وخزائن مملوءة بانواع الصيني تساوي القطعة منها الف دينار وحصير من الذهب وزنه عشرة ارطال يظن انه الحصير الذي حملت عليه بوران بنت الحسن بن سهل لما زفت الى المأمون كما تقدم وصوانٍ من الذهب كان ملك الروم اهداها الى العزيز بالله

ووجدوا انواعاً من الشطرنج والنرد مصنوعة من الجوهر والذهب والفضة او العاج او الابنوس وعدد كبير من الزهريات ونحوها • ومن تماثيل العنبر ٢٢،٠٠٠ قطعة اقل تمثال منها وزنه ١٢ مناً ومن تماثيل الخليفة ما لا يحدُّ • والكلوتة المرصعة بالجوهر قيمتها ١٣٠،٠٠٠ دينار فيها من الجوهر ١٧ رطلاً • وطاووس من ذهب مرصع بنفيس الجوهر عيناه من ياقوت احمر وريشه من الزجاج المينا المجري بالذهب على الوان ريش الطاووس • وغزال مرصع بنفيس الدر والجوهر بطنه ابيض قد نظم من در رائق • ومائدة من الجزع يقعد عليها جماعة قوائمها مخروطة • ونخلة ذهب مكللة بالجوهر وبديع الدر في اجانة من ذهب تجمع الطلع والبلح والرطب بشكله ولونه وعلى صفته وهيأته من الجواهر لا قيمة لها • وكوز زير بلور مرصع يحمل عشرة ارطال ومزيرة مكللة بحب لولؤ نفيس وقس على ذلك عشرات من امثاله

الفرش والاثاث عند الفاطميين

ووجدوا في خزائن الفرش من اصناف الاثاث والرياش مايعدُّ بالالوف • من ذلك ١٠٠،٠٠٠ قطعة خسرواني اكثرها مذهب ومراتب خسرواني وقلموني ثمن الواحدة ٣،٥٠٠ دينار واجلة معمولة للفيلة من الخسرواني الاحمر المذهب و ٣،٠٠٠ قطعة خسرواني احمر

مطرز بابيض من هدبها لم يفصل من كساء البيوت كاملة بجميع آلاتها ومقاطعها وكل بيت يشتمل على مسانده ومخاده ومساوره ومراتبه و بسطه ومقاطعه وستوره وكل ما يحتاج اليه . ومثل ذلك من المخمل والديباج والخز وسائر انواع الحرير وعليها اشكال الصور من كل شيء . ونحو الف من الستور الحرير المنسوجة بالذهب على اختلاف ألوانها واطوالها فيها صور الدول وملوكها ومشاهيرها وعلى صورة كل واحد اسمهُ ومدة ايامه وشرح حاله . و٤٠٠٠ رزمة خسرواني مذهب في كل رزمة فرش مجلس ببسطه وتعاليقه وسائر آلاته منسوجة في خيط واحد . ومن جملتها مقطع من الحرير الازرق التستري غريب الصنعة منسوج بالذهب وسائر ألوان الحرير كان المعز لدين الله امر بعمله وفيه صورة اقاليم الارض وجبالها و بحارها ومدنها وانهارها ومساكنها شبه الخارطة الجغرافية . وفيه صورة مكة والمدينة ومكتوب على كل مدينة وجبل و بلد ونهر و بحر وطريق اسمهُ بالذهب والفضة او الحرير وقد كتب في آخره « مما امر بعمله المعز لدين الله شوقاً الى حرم الله واشهاراً لمعالم رسول الله في سنة ٣٥٣ هـ »

فاعتبر ما تدلُّ عليهِ هذه الآثار من رقي المدنية والحضارة وكم تكون قيمتها لو وجدت الآن وكم يدفع المتمولون من المبالغ في الحصول عليها

وقس عليهِ ما كان في سائر الخزائن من التحف ففي خزانة السلاح سيف الحسين بن علي ودرقة حمزة بن عبد المطلب وسيف جعفر الصادق ومئات الألوف من الدروع والسيوف والقسي والرماح وغيرها . وفي خزانة السروج ألوف من السروج الثمينة ومنها ما يساوي الف دينار الى سبعة آلاف دينار . وفي خزانة الخيم انواع الفساطيط والمضارب والمسطحات والحصون والقصور والشراعات والمشارع العمومية من الديبقي والمخمل والخسرواني والديباج المكي والارمني والبهنساوي والكردواني وغير ذلك على اختلاف الالوان والنقوش من المفيل والمسبع والمخيل والمطوس والمطير وغيرها من اشكال السباع والطيور والآدميين مما ينصب على اعمدة ملبسة بالفضة . ومن هذه الفساطيط ما يبلغ طولهُ ٦٥ ذراعاً كبيراً يحملهُ مع ملحقاته مئة جمل . وفي خزانة البنود كثير من الرايات والاعلام السادجة والمطرزة وغيرها

ومن ادلة الترف والاسراف في هذه الدولة ان السيدة الشريفة ست الملك اخت الحاكم بامر الله اهدت اخاها هذا هدايا من جملتها ثلاثون فرساً بمراكبها ذهباً منها مركب واحد مرصع ومركب من حجر البلور وتاج مرصع بنفيس الجوهر وبستان من الفضة مزروع من انواع الشجر

وقد يتبادر الى الذهن ان ما تقدم ذكرهُ لا يخلو من مبالغة او هو من قبيل الاحاديث الخرافية . ولكن مصر اشتهرت في الاعصر الاسلامية الوسطى بالثروة مثل شهرة بغداد في ابان حضارتها واشتهر المصريون بالترف والغنى حين كان الناس يشكون الضيق [1] ولذلك قالوا « من دخل مصر ولم يستغن فلا اغناه الله » وقد تواتر ذكر هذه التحف وامثالها في كتب الثقات وبعضهم شهد الامر بنفسه ورأى هذه التحف رأي العين ومنهم ابن الاثير المؤرخ الشهير فقد ذكر في حوادث سنة ٥٦٧ ﻫ التي اقام فيها السلطان صلاح الدين الخطبة بمصر للدولة العباسية واستولى على ما كان باقياً في قصور الخلافة من التحف والجواهر بعد ما اصابها من النهب في فتنة المستنصر وغيره — قال « وحمل الجميع الى صلاح الدين وكان من كثرتهِ يخرج عن الاحصاء وفيه من الاعلاق النفيسة والاشياء الغريبة ما تخلو الدنيا من مثله ومن الجواهر التي لم توجد عند غيرهم فمنه الحبل الياقوت وزنهُ سبعة عشر درهماً او ١٧ مثقالاً انا لا اشك لاني رأيته ووزنتهُ واللؤلؤ الذي لم يوجد مثلهُ ومنه النصاب الزمرد الذي طولهُ اربع اصابع في عرض عقد كبير » [2]

بذخ الاندلسيين

واقتدى بالعباسيين في الترف والبذخ الاندلسيون ولكنهم لم يبلغوا مبلغ المصريين فيهما . على ان بعضهم تفنن بذلك على شكل لم يسبقهُ احد الى مثلهِ فالمنصور بن ابي عامر في اواخر القرن الرابع قدم عليهِ رسول ملك الروم وهو اعظم ملوك النصارى في ذلك الزمان ليطلع على احوال المسلمين وقوتهم . فاراد المنصور ان يبغتهُ بما يطلعهُ عليه من عز الدولة وثروة المملكة فأمر ان يغرس في بركة عظيمة ذات اميال نيلوفر ثم امر باربعة قناطير من الذهب واربعة قناطير من الفضة فسبكت قطعاً صغاراً قدر ما تسع النيلوفرة وملأ بها جميع النيلوفر وبعث الى الرسول لحضر عندهُ قبل الفجر في مجلسه بالزاهرة فاجلسه بحيث يشرف على موضع البركة . فلما قرب طلوع الشمس جاء الف من الصقالبة عليهم الاقبية والمناطق من الذهب والفضة وبيد ٥٠٠ منهم اطباق من ذهب وبيد ٥٠٠ اطباق من فضة فتعجب الرسول من جمالهم ولم يدر الغرض من مجيئهم . فحين اشرقت الشمس ظهر النيلوفر في البركة وبادروا لاخذ الذهب والفضة منه وكانوا يجعلون الذهب في اطباق الفضة والفضة في اطباق الذهب حتى التقطوا جميع ما فيها وجاؤُا بهِ فعرضوه بين يدي المنصور حتى صار كوماً فتعجب الرسول من ذلك واعظمهُ وطلب المهادنة . واصطنع المنصور هذا قصراً من فضة لصبح ام

(١) ابن خلدون ٣٠٢ ج ١ (٢) ابن الاثير ١٦٥ ج ١١

هشام وحمله اليها على رؤوس الرجال استجلاباً لحبها [١]

واغرب منه ما فعله المعتمد الاندلسي لأم اولاده الرميكية الملقبة اعتماد وقد رأت ذات يوم نساء البادية باشبيلية يبعن اللبن في القرب وهن رافعات عن سوقهن في الطين فقالت « يا سيدي اشتهي ان افعل انا وجواريّ مثل هؤلاء النساء » فأمر المعتمد بالعنبر والمسك والكافور وماء الورد وصير الجميع طيناً في القصر وجعل لها قرباً وحبالاً من الابريسم وخرجت هي وجواريها تخوض في ذلك الطين [٢]

وقس على ذلك سائر ملوك الاسلام في عصر الترف فقد كان عند سنجر بن ملكشاه ١٠٣٠ رطلاً من الجوهر ولم يسمع بمثله عند الملوك • وكانوا يقيسون الاسراف احياناً بما ينفقونه من الشمع في الاضواء فذكروا ان وظيفة كل من ابن بقية وعز الدولة الف منّ شمع في الشهر [٣] واشتهر محمد الامين بكبر شمعه • ولم يكن ذلك الترف قاصراً على الخلفاء والملوك والامراء ولكنه كان يتناول سائر رجال الدولة ومن يرتزق منهم واما العامة فربما كانوا في اشد الضيق — راجع الجزء الثاني من هذا الكتاب ١٨٣

## ٤ — التسري

هو اقتناء الجواري للتمتع بهن او استيلادهن • وقد علمت ما كان من تكاثرهن والاتجار بهنّ وتربيتهن وتهاديهن في ذلك العصر • ونتكلم هنا عما بعث عليه الترف من تسريهنّ • وكثيراً ما يعقب التسري التزوج فاذا ولدت الجارية لاحدهم تزوجها • وكان العرب يكرهون التزوج بالجواري فمع كثرتهن في صدر الاسلام لم يتزوج الراشدون جارية [٤] ولكن المسلمين كانوا يتسرونهن للفراش • فتوفي الامام علي عن ٤ نسوة و ١٧ سرية [٥] وكانت تلد الجارية لاحدهم فيبيعها كما يبيع سائر الجواري فنهى عمر عن بيع أمات الاولاد [٦] وكانت العرب في كل حال تحتقر ابناء الجواري حتى نبغ منهم ثلاثة من كرام الرجال امهاتهم من بنات يزدجرد [٧] فرغب الناس في التسري

---

(١) نفح الطيب ٧٣١و٧٣٢ ج ٢ (٢) نفح الطيب ٢٠٨ ج ١

(٣) ابن خلكان ٨٧ ج١ و ٦٣ ج ٢

(٤) ابن الاثير ٢٦ و٩٢ ج ٣ (٥) الف باء ٣٤٧ ج ٢

(٦) ابن الاثير ٢٩ ج ٣ (٧) ابن خلكان ٣٢٠ ج ١

وليس المسلمون اول من اقتنى السراري فالتسري كان شائعاً عند الرومانيين والسرية عندهم احط منزلة من الزوجة ولكن علاقتها مع الرجل كانت شرعية . وكانوا في اول امرهم كالعرب يكرهون التسري حتى تقدمهم فيه اثنان من كبار أمرائهم فعكفوا عليه [١]

وزادت رغبة المسلمين في التسري في ابان الحضارة حتى اصبح اكثر ابناء الخلفاء من اولاد الجواري [٢] واكثر نساء اهل الدولة منهن واقتدى بهم سائر الوجهاء والاغنياء . فعمدوا الى اقتناء السراري ومن ولدت لهُ تزوجها او اعتقها . فبلغ عددهن عند بعض الخلفاء عدة آلاف ذكروا انه كان للمتوكل العباسي ٤,٠٠٠ جارية وطئهن جميعاً [٣] وعلم الامراء برغبته فيهن فتقربوا اليه بالهدايا منهن فاهداه عبدالله بن طاهر ٤٠٠ وصيفة. [٤] وكان لنصير الدولة صاحب ميافرقين ٣٦٠ سرية على عدد ايام السنة [٥] غير ما كانوا يقتنونه من الجوارى للغناء فقد كان عند الرشيد ٢,٠٠٠ جارية [٦] منهن ٣٠٠ قينة للغناء والضرب على آلات الطرب [٧]

واصبح الاستكثار من الجواري عادة مألوفة حتى صار النساء يقتنينهن للزينة . فكان عند ام جعفر البرمكي ٤٠٠ وصيفة يخدمنها [٨] وقد رايت ما اتخذته زبيدة من الجواري المقدودات وكيف البستهن ملابس الغلمان فقلدتها الوجيهات من اهل اليسار فاتخذن الجواري المطموعات او الغلاميات ثم تبارى الخلفاء وسائر الكبراء في ذلك حتى الف القاهر بالله العباسي جوقاً من الجواري بقدٍّ واحد البسهن القراطق والاقبية والطرر والاقفية والمناطق من الذهب او الفضة كأنهن الغلمان [٩]

وقس على ذلك سائر دول المسلمين في المشرق والمغرب وقد فاق الفاطميون سواهم في الاكثار من الجواري ايضاً فكان في قصر الحاكم بامر الله ١٠,٠٠٠ جارية وخادم [١٠] وكان عند اخته السيدة الشريفة ست الملك ٨,٠٠٠ جارية منها ١,٥٠٠ من البنات الابكار [١١]

---

(١) Gibbon II. 205 (٢) الجزء الرابع ١٥٣

(٣) المسعودي ٢٧٩ ج ٢ (٤) الاغاني ١٣٣ ج ١٩

(٥) ابن خلكان ٥٧ ج ١ (٦) الاغاني ٨٨ ج ٩

(٧) الاتليدي ٦٧ (٨) المسعودي ٢٠٨ ج ٢

(٩) المسعودي ٣٦٦ ج ٢ (١٠) المقريزي ٣٦ ج ١

(١١) المقريزي ٤٨٥ ج ٢

ولما قبض صلاح الدين على قصورهم وجد في القصر الكبير ١٢,٠٠٠ نسمة ليس فيهم فحل الا الخليفة واهله واولاده غير الخدم والغلمان والامتعة والتحف واطلق صلاح الدين البيع فيهم فاستمروا يبيعون عشر سنين [1] ويقال نحو ذلك في السلاطين المماليك بمصر وبني امية في الاندلس مما يطول شرحه ولا يزال مثاله عند بعض امراء الشرق وملوكه الى اليوم

اثمان الجواري

والاستكثار من الجواري في اوائل الاسلام لم يكن يحتاج الى نفقة كبيرة لكثرة السبايا فلما نضج التمدن صاروا يبتاعونهن ويغالون في رفع اثمانهن وكانت اسعارهن تتضاعف اذا جمعن بين الجمال ورخامة الصوت وصناعة الغناء . ويختلف ثمن الجارية من بضع مئات الى بضعة آلاف او مئة الف دينار . واول من بذل في هذا السبيل الى هذا المقدار سعيد اخو سليمان بن عبد الملك فابتاع الزلفاء الجارية الشهيرة بمليون درهم [2] (نحو ٧٠,٠٠٠ دينار)

وابتاع الرشيد جارية بمئة الف دينار [3] وجارية أخرى اشتراها من ابراهيم الموصلي بمبلغ ٣٦,٠٠٠ دينار فباتت عنده ليلة ثم ارسلها الى الفضل . وطلب محمد الامين الى جعفر ابن الهادي ان يبيعه جارية له اسمها بذل فأبى فامر فاوقروا قاربه ذهباً فبلغت قيمة ذلك ٢٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم [4] اي اكثر من مليون دينار — وهذا اذا صحّ كان اعظم ما بلغ اليه بذلهم في اثمان الجواري

واما ما خلا ذلك فقد اشترى يزيد بن عبد الملك الاموي سلامة المغنية بعشرين الف دينار وبيعت الجارية ضياء بخمسين الف دينار واشترى جعفر البرمكي جارية باربعين الف دينار وابتاع الواثق بالله جارية مولدة للغناء اسمها الصالحية بعشرة آلاف دينار . وقس عليه ما دون ذلك وما فوقه واعتبر مقدار ما كانوا ينفقونه من الاموال في اقتنائهن

---

(١) المقريزي ٤٩٧ ج ١ (٢) العقد الفريد ٢٠٣ ج ٣ والمستطرف ١٣٢ ج ٢

(٣) الطبري ١٣٣٢ ج ٢ (٤) العقد الفريد ٤٣ ج ٣ والاغاني ١٤٥ ج ١٥

## ٥ — السخاء

علمت مما تقدم انطباع العرب على السخاء من ايام جاهليتهم وانهم اضطروا للمحافظة عليه بعد الاسلام حتى اصبح من قواعد الارتزاق في من يحومون حول الخليفة واهل الدولة فلما توفرت الاموال في ايدي هؤلاء وتمتعوا بالحاجيات والكماليات من الملاذ الجسدية تطلبوا الملاذ المعنوية بحسن الأُحدوثه وهم اهل اريحية يستفزهم الاطراء والاستنجاد فوجدوا في السخاء باباً واسعاً لنلك الملاذ فبذلوا الاموال على الشعراء والندماء والمغنين والمستجدين من سائر الطبقات لما في ذلك من لذة الفخر او توقع الأجر

مبلغ السخاء على العموم

وقد ذكرنا في كلامنا عن الارتزاق بالسخاء ما الذي بعث على بقاء هذه المنقبة الجاهلية حتى صارت سنة مرعية . وتدرج المسلمون فيها بتدرجهم في الحضارة والمدنية وزادت جوائزهم بزيادة الثروة واتساع الارزاق فكان الامويون يعطون بالالف درهم او بضعة آلاف يلحقونها ببعض الماشية او الكسوة او الخيل واذا توسعوا في العطاء مصلحة جعلوا الصلة عشرة آلاف او عشرات الالوف او مئة الف او مئات الالوف كما فعل معاوية في استرضاء الناس واكتساب بني هاشم الى حزبه فانهُ جعل صلات ابناء الصحابة ملايين يبذلها رواتب كل عام . وهو أول من فعل ذلك من المسلمين غير ما كان يصلهم بهِ من الهدايا لسبب او لغير سبب كما فعل لما ولد لعبد الله بن جعفر غلام فبذل له ١٠٠٠٠٠ درهم على ان يسميه معاوية فرضي ولكنه اعطى تلك الصلة للذي بشره بالغلام (١)

واقتدى بمعاوية من خلفه من الامويين وامرائهم واشتهر من هؤلاء آل المهلب بالسخاء في الدولة الاموية كما اشتهر البرامكة في الدولة العباسية (٢) ومن اسخياء عمالهم خالد القسري والحجاج بن يوسف اذا مست الحاجة الى السخاء . فالحجاج اعطى للذي توسط في زواجه بهند بنت اسماء ثلاثين غلاماً مع كل غلام عشرة آلاف درهم وثلاثين جارية مع كل جارية تخت من ثياب وغير ذلك (٣) وكان سعيد بن العاص لا يرسل الى أحد هدية مع عبد الاَّ كان العبد في جملتها (٤)

اما العباسيون فكانت الثروة في ايامهم اوفر فبلغت اعطياتهم عشرات الملايين من

(١) الاغاني ٧١ ج ١١ (٢) ابن خلكان ٢٦٦ ج ٢

(٣) الاغاني ١٣٠ ج ١ (٤) الفرج بعد الشدة ٣٣ ج ٢

الدراهم واول من اعطى هذا القدر منهم المنصور [1] ثم صاروا يهبون الضياع وخراج البلاد او يوقرون الزوارق ذهباً او فضة او يهدون الغلمان يحملون بدر المال او يرسلون الجائزة على مئات من الدواب او يولون الولايات والاعمال وتزداد جوائزهم اذا استخفهم الطرب اواستفزهم الاطراء فقد ولى السفاح رجلاً الاهواز بقصيدة [2] والغالب ان يكون سخاؤهم لغرض سياسي يعود نفعه على الدولة كما فعل المنصور اذ اعطى في يوم واحد عشرة ملايين درهم فرقها في اعمامه ووجوه قواده ليقطع السنتهم عن مقاومته . ولما تولى ابنه المهدي استكتب اسماء اولاد المهاجرين والانصار وجلس مجلساً عاماً فرق فيه ٣٠٠٠٠٠٠٠ درهم وقرر لكل واحد من اهل بيته ٦٠٠٠ درهم كل سنة [3] واعطى المغيرة بن حبيب الف فريضة يضعها حيث شاء [4] . وفرق الرشيد في يوم واحد ١٣٥٠٠٠٠ دينار [5] وطرب يوماً فنثر على الناس ٦٠٠٠٠٠٠ درهم [6] واعطى الهادي لعبد الملك بن مالك صاحب شرطة ابيه مالاً ارسله اليه على ٤٠٠ بغل موقرة دراهم [7] واعطى الامين الى سليمان بن ابي جعفر مليون درهم [8] واختص الامين من اساليب السخاء بانه كان يأمر بايقار زورق الطالب ذهباً او فضة وكان قصره على شاطئ دجلة فاذا جاءه شاعر او طالب في زورق واخذته الاريحية او استخفه الطرب قال « أوقروا زورق هذا ذهباً او فضة » وقلما كانوا يفعلون ذلك والغالب ان يعوضوا عنه بمبلغ من المال كما فعلوا بابي محمد التيمي فانه مدح الامين بقصيدة اطربته فامر الفضل بن الربيع ان يوقر زورقه مالاً فقال « نعم يا سيدي » فلما طالبه التيمي بذلك قال له الفضل « انت مجنون من اين لنا ما يملأ زورقك ؟ » ثم صالحه على ١٠٠٠٠٠ درهم [9] واجاز المأمون طبيبه بمليون درهم والف كر حفظة [10] وفرق المأمون في ساعة ٢٦٠٠٠٠٠٠ درهم ومدحه اعرابي فاجازه بثلاثين الف دينار [11] وكان المتوكل يهب القطائع جوائز على المدح [12] وقس على ذلك هدايا سائر الخلفاء وانما ذكرنا اعظمها لبيان

---

(١) لطائف المعارف ١٦ (٢) فوات الوفيات ٢٠ ج ١
(٣) سير الملوك ٦٥و ٦٦ (٤) الاغاني ٩٨ ج ١٨
(٥) المستطرف ١٣٥ ج ١ (٦) الاغاني ٨٨ ج ٩و١٢٤ ج ١٧
(٧) ابن الاثير ٤٢ ج ٦ (٨) المستطرف ١٣٣ ج ١
(٩) الاغاني ١١٨ ج ١٨ (١٠) طبقات الاطباء ١٢٨ ج ١
(١١) فوات الوفيات ٢٤٠ ج ١ (١٢) الاغاني ٣ ج ١١

مبلغ ذلك في ابان التمدن

فلما افتقر الخلفاء العباسيون في اواسط الدولة صاروا يهبون الرتب الاسمية والقاب الشرف يسترضون الناس بها . وهذه ابيات يقولون ان ابا بكر الخوارزمي نظمها بهذا المعنى :

مالي رأيت بني العباس قد فتحوا　　من الكنى ومن الالقاب ابوابا
ولقبوا رجلاً لو عاش اولهم　　ما كان يرضى به للحش بوابا
قلَّ الدراهم في كفي خليفتنا　　هذا فانفق في الاقوام القابا

سخاء البرامكة

على ان العصر العباسي الأول انما زها بالبرامكة وهم الذين رغبوا الخلفاء بالسخاء واولهم خالد بن برمك وزير المنصور والثروة لم تنضج في ايامه ومع ذلك فالوافدون على الخلفاء للاستجداء كانوا يسمونهم السؤَّال فقال خالد « هذا والله اسم استقله لطلاب الخير وارفع قدر الكريم عن ان يسمي بهِ امثال هؤلاء المؤملين لان فيهم الاشراف والاحرار وابناء النعيم ومن لعلهُ خير ممن يقصد وافضل ادباً ولكننا نسميهم الزوّار » وكان ممن شهد مجلسه وسمع قوله بشار بن برد فقال :

حذا خالد في فعله حذو برمك　　فمجدٌ لهُ مستطرف واصيلُ
وكان ذوو الآمال يدعون قبلهُ　　بلفظ على الاعدام فيهِ دليلُ
يسمون بالسؤَّال في كل موطن　　وان كان فيهم نابهٌ وجليلُ
فسماهم الزوار ستراً عليهم　　فاستارهُ في المهتدين سدولُ

فاعطاه خالد عن كل بيت الف درهم (١)

وكان ابنه يحيى بن خالد اذا ركب اعطى كل من تعرض لهُ ٢٠٠ درهم (٢) ويروون من اخبار سخائه ما هو اشبه بالخرافات منه بالحقائق نذكر حادثة تواتر ذكرها في كتب التاريخ والادب وهي تمثل سخاء يحيى احسن تمثيل . وذلك ان البرامكة لمَّا نكبوا منع الرشيد الناس من ذكرهم او رثائهم فمن ذكرهم انما يذكرهم سرًّا . وظلوا على ذلك في ايام الامين والمامون . فسمع المأمون بشيخ يأتي خرابات البرامكة ويبكي وينتحب طويلاً ثم ينشد شعراً يرثيهم بهِ وينصرف فبعث في طلبه فلما حضر انتهره الخليفة وسأله من هو وبما استحق البرامكة منه ما يصنع فقال الرجل وهو غير هائب « للبرامكة عندي اياد خضرة فان امر امير المؤمنين حدثته ببعضها » فقال « هات » فقال « انا المنذر بن المغيرة الدمشقي نشأت في

(١) الاغاني ٣٦ ج ٣　(٢) ابن خلكان ٢٤٤ ج ٢

نعمة فزالت حتى وصلت الى بيع داري واملقت الى غاية فاشير عليّ بقصد البرامكة فخرجت الى بغداد ومعي نيف وعشرون امرأة وصبيًّا فدخلتُ بهم الى مسجدٍ ببغداد ثم خرجتُ وتركتهم جياعًا لا نفقة لهم فمررت بمسجدٍ فيه جماعة عليهم احسن زيٍّ فجلست معهم اردد في صدري ما اخاطبهم بهِ فتحيد نفسي عن ذل المسألة واذا خادم قد ازعج القوم فقاموا فقمت معهم ودخلوا دارًا كبيرة فدخلت فاذا يحيي بن خالد على دكة وسط بستان فجلسوا وجلست وكنا مائة رجل ورجل فخرج مائة خادم في يد كل خادم منهم مجمرة ذهب فيها قطعة عنبر فتبخروا واقبل يحيى على القاضي وقال: زوج ابن عمي هذا بابنتي عائشة · فخطب وعقد النكاح واخذنا النثار من فتات المسك و بنادق العنبر وتماثيل الند فالتقط الناس والتقطت · ثم جاءَنا الخدم في يد كل واحدٍ منهم صينية فضة فيها الف دينار مخلوطة بالمسك فوضع بين يدي كل واحد واحدة فاقبل كل واحد يأخذ الدنانير في كمه والصينية تحت ابطه ويخرج فبقيت وحدي لا اجسر افعل ذلك فغمزني بعض الخدم وقال خذها وقم · فاخذتها وقمت وجعلت امشي والتفت خوفًا من ان تؤخذ مني ويحيى يلاحظني من حيث لا افطن · فلما قاربت الستر رُددت فيئست من الصينية فجئته فأمرني بالجلوس فجلست فسألني عن حالي فحدثتهُ عن قصتي فبكى ثم قال: عليّ بموسى · فجاءَهُ فقال يا بني هذا رجلٌ من اولاد النعم قد رمتهُ الايام بصرفها فخذهُ اليك فاخلطه بنفسك فأخذني وخلع عليّ وامرني بحفظ الصينية لي فكنت في ألذ عيش يومي وليلتي · ثم استدعى اخاه العباس وقال: ان الوزير قد سلم اليّ هذا واريد الركوب الى دار امير المؤمنين فليكن عندك اليوم فكان يومي مثل امس فأقبلوا يتداولونني وانا قلق بامر عيالي ولا اتجاسر ان اذكرهم · فلما كان في اليوم العاشر أُدخلت على الفضل بن يحيى فأقمت عندهُ يومي وليلتي فلما اصبحت جاءَني خادم فقال: قم الى عيالك وصبيانك · فقلت: انَّا لله ذهبت الصينية وما فيها فليت هذا كان من اول يوم · وقمت والخادم يمشي بين يدي فاخرجني من الدار فازداد ما بي ثم ادخلني الى دارٍ كأن الشمس تطلع في جوانبها وفيها من صنوف الآلات والفرش فلما توسطتها رأيت عيالي يرتعون في الديباج والستور وقد حمل اليهم مائة الف درهم وعشرة آلاف دينار وسلم اليّ الخادم صكًّا باسم ضيعتين جليلتين وقال: هذه الدار وما فيها والضياع لك فاقمت مع البرامكة في اخفض عيش الى الآن · ثم قصدني عمرو بن مسعدة في الضيعتين وألزمني من خراجها مالا بفي بهِ دخلها فكلما لحقني نائبة قصدت دورهم فبكيت »

فاستدعى المأمون عمرو بن مسعدة وامرهُ ان يردَّ على الرجل ما استخرج منهُ و يقرر خراجه

على ما كان في ايام البرامكة · فبكى الشيخ بكاءً شديداً فقال لهُ المأمون « الم استأنف بك جميلاً » فقال « بلى ولكن هذا من بركة البرامكة » فقال « امضِ مصاحباً فان الوفاء مبارك وحسن العهد من الايمان »[1]

وعلى ذلك شبَّ جعفر والفضل ابنا يحيى وسائر البرامكة وتوسعوا في السخاء حتى عينوا الرواتب لاهل الحاجات · فقد ذكرنا في ما تقدم ان غلتهم بلغت ٣٠,٠٠٠,٠٠٠ دينار في السنة فلما قتل جعفر وقبضت اموالهم وجدوا ١٢,٠٠٠,٠٠٠ دينار في بدر مختومة وعليها صكوك للناس على سبيل الرواتب أو الصلات او نحو ذلك[2] · ومن فنون سخائهم ان الفضل ابن يحيى كان يكتب رقاعاً بخطه فحواها « امضِ الى فلان الصيرفي وخذ منهُ كذا وكذا ديناراً » حسبما يجريه الله على يده ويركب في الليل او في القائلة ويخترق شوارع البلد وينثرها فيها · وسئل عن ذلك فقال « اردت ان يصل برّي الى من لا يصل اليّ ولا اعرفهُ ولا يعرفني » فاذا وجد احد رقعة من هذه الرقاع مضى بها الى الصيرفي فيأخذها منه ويعطيه ما فيها وعند الصيرفي امينٌ جالس لئلا يصالحه على بعضها · ولا يعطي لاحد غير رقعة واحدة ولا يسأل عنه ولا يثبت اسمهُ وربما جاءَت بيد الصبي والمرأة والذمي فيأخذ ما فيها[3]

واشتهر من وزراء الدولة العباسية بالسخاء بعد البرامكة آل الفرات في ايام المقتدر فكانوا يفرضون الرواتب للعلماء والادباء والفقهاء واهل الفاقة وقد نكبوا كما نكب البرامكة ولكن شهرة البرامكة غلبت على سواهم فاصبحوا مضرب الامثال في الكرم · ولا يزال الناس يتداولون اخبارهم ويتمثلون بسخائهم ويستحثون اريحية العظماء على السخاء بما يروون من احاديثهم حتى ظنها بعضهم موضوعة لهذه الغاية · ولا يبعد ان تكون رغبة الناس في الاستحثاث بعثت على المبالغة في بعضها ولكنها صحيحة على اجمالها — قال السلطان العادل الايوبي مرة وقد جرى ذكر البرامكة وامثالهم من الكرماء « هذا كذبٌ مختلق من الوراقين ومن المؤرخين يقصدون بذلك ان يحركوا همم الملوك والاكابر للسخاء وتبذير الاموال »

فقال بعض الحضور « يا خوند ولأي شيءٍ ما يكذبون عليك ؟ »[4]

---

(١) الفرج بعد الشدة ٣٢ ج ٢ وسير الملوك ١١١ والاتليدي ١٣٢

(٢) العقد الفريد ٢٢ ج ٣ (٣) ترتيب الدول ٢٢

(٤) نفح الطيب ٤٧٢ ج ١

السخاء على الشعراء والمغنين

واعتبر ذلك في سخائهم على الشعراء فقد كانت اجازة الشعراء قاعدة عامة من اوائل الاسلام لاسباب تقدم ذكرها و يشبه ذلك ما تنفقه بعض الدول اليوم على الصحافة لتنصرها او تأخذ بيدها في نشر مبدإ او رأي . وتعوَّدوا ان يسمُّوا ما يعطى للشاعر جائزة او صلة كما يسمُّون ما يعطى للصحف اعانة أو راتباً . على ان بعض الخلفاء كانوا يفرضون للشعراء رواتب يتناولونها مشاهرة او مسانهة وربما عدوا الجائزة راتباً يناله الشاعر اذا وفد على الخليفة او الامير في يوم من السنة . وقد تكلمنا عن الشعر وسائر احواله في ما تقدم ونحن ذاكرون سخاء الخلفاء على الشعراء في ابان الحضارة

اول من جاد على الشعراء في الاسلام بنو امية واسخاهم الوليد بن يزيد وهو اول من عدَّ ابيات الشعر واعطى على كل بيت الف درهم [1] واقتدى به من جاء بعده منهم . اما العباسيون فزادوا القيمة واعطوا على القصيدة في مدحهم ١٠٠,٠٠٠ درهم واول من نال هذه الصلة منهم مروان بن ابي حفصة وصله بها المهدي على قصيدة مدحه بها مطلعها :

« طرقتك زائرة فحيِّ خيالها » [2] ومدحه سالم الخاسر بقصيدة مطلعها :

« حضر الرحيل وشدت الاحداج »

فاراد ان ينقص له من جائزة مروان فحلف انه لا يأخذ الاَّ ١٠٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم و يقال انه اعطاه اياها [3] والغالب انه اعطاه ١٠٠,٠٠٠ فقط وانما أضيفت الالاف الأُخرى خطأً من النساخ

وكان المنصور قبله بخيلاً على الشعراء اذا احب ان يعطي شاعره ابا دلامة فرض على الهاشميين دينارين دينارين ليعطيها له [4]

اما الرشيد فاعطى مروان كما كان يعطيه المهدي اي مئة الف درهم [5] واعطاه مرة ٥,٠٠٠ درهم وعشرة من الرقيق وكان يعطي ابا العتاهية راتباً سنوياً مقداره ٥٠,٠٠٠ درهم غير الجوائز والمعاون [6] وفاقهم المتوكل في ذلك لانه اعطى حسين بن الضحاك الف دينار عن كل بيت من قصيدة قالها وهو اول من اعطى ذلك [7] وكان المعتصم اذا

(١) ابن الاثير ١٣٧ ج ٥ والاغاني ١٤٨ ج ١٧ و ٣٩ ج ٩

(٢) ابن خلكان ١١٢ ج ٢ (٣) ابن خلكان ١٩٨ ج ١

(٤) الاغاني ١٢٨ و ١٣١ ج ٩ (٥) الاغاني ١٩ ج ١٢

(٦) الاغاني ١٥٧ ج ٣ (٧) الاغاني ١٨٤ ج ٦

اعجبه قول الشاعر ملأ فمه جوهراً وقد سبقه الى ذلك يزيد بن عبد الملك (١)

وتشبه الوزراء والامراء بالخلفاء فكان خالد القسري يجلس للشعراء في يوم معين ويجيزهم . وكذلك آل المهلب فانهم فرضوا لهم الاعطية والجوائز (٢)

اما في الدولة العباسية فالبرامكة لم يذخروا وسعاً في اجازة الشعراء وخصوصاً الفضل بن يحيي وقد قال فيه بعضهم :

ما لقينا من جود فضل بن يحيي ترك الناس كلهم شعراء (٣)

وكان ابوهُ يحيي اذا لقيه شاعر ولم يكن معه مال اعطاه دابته (٤) وقد فاق البرامكة الخلفاء في اجازة الشعراء فنال شاعرهم ابان اللاحقي على قصيدة واحدة مثل ما نالهُ مروان بن ابي حفصة من الرشيد كل عمره (٥) وقس على ذلك سخاء سائر الوزراء والامراء فان يزيد بن مزيد اعطى نصف ماله لشاعر (٦)

ويقال نحو ذلك في سخائهم على المغنين فقد اعطى المهدي دحمان المغني في ليلة واحدة ٥٠,٠٠٠ دينار لانه اطربه . واعطى الامين اسحق الموصلي ١,٠٠٠,٠٠٠ درهم لانه غناه شعراً في مدحه فحملها الى داره مئة فراش (٧) وكان الهادي يجري على ابراهيم الموصلي عشرة آلاف درهم في الشهر سوى صلاته . اما الرشيد فكان اذا طرب وهب وجاد حتى ولى اسماعيل بن صالح مصر لانه اطربه بغنائه (٨) واخبار الشعراء والمغنين كثيرة لا محل لها

واقتدى بسخاء العباسيين ورجال دولتهم سائر رجال الدول الاسلامية وان لم يبلغوا شأوهم

(١) الاغانى ١٧٤ ج ٦ و١٤٧ ج ١ (٢) الاغانى ١٦٤ ج ١١
(٣) ابن خلكان ٤١١ ج ١
(٤) الاغاني ٨ ج ٥ (٥) الاغانى ٧٣ ج ٢٠
(٦) ابن خلكان ٢٨٥ ج ٢
(٧) الاغاني ٩٩ و ١٤٢ ج ٥
(٨) حلبة الكميت ٦٣ و ٦٤

## ٦ – المسكر

كان المسكر شائعاً قبل الاسلام في الشام والعراق وفارس ومصر وجزيرة العرب وغيرها وكان ملوك الفرس يقبلون على اللذات والمسكرات . و يقال ان الرومانيين لم يتعودوا المسكر الا بعد فتحهم اسيا . على ان عقلاء الناس كانوا يحرمون شربه حتى في جاهلية العرب فان جماعة منهم حرموه على انفسهم واهلهم واذا عربد احدهم بالسكر وتكرر ذلك منه خلعه قومه ونفوه . فلما جاء الاسلام ورد النصُّ بتحريمه واقيمت الحدود في منعه بالجلد والحبس وحلق الرأس او اللحية والشوارب او قطع العطاء وعاقبوا بائعيه وكسروا اوانيه ولا سيما في عصر الراشدين واوائل ايام بني امية حتى عنف عمر بن الخطاب خالد بن الوليد على تداكه في الحمام بغسل فيه خمر وقال له « ان الله حرم ظاهر الخمر وباطنها ومسها فلا تمسوها باجسادكم » ومع ذلك فاختلاط المسلمين باهل البلاد المفتوحة عودهم اياها حتى شربها جماعة من الصحابة وابنائهم فوقعوا تحت طائلة العقاب . واول من عوقب على شربها وحشي بن حرب قاتل حمزة [1] ثم عوقب غير واحد منهم ومن ابنائهم وفيهم جماعة من الكبراء كالوليد بن عقبة و يزيد بن معاوية وعبدالله بن عمر بن الخطاب واخويه عبدالرحمن وعاصم والعباس ابن عبدالله بن عباس وقدامة بن مظعون وعبد العزيز بن مروان وعبد الرحمن بن عبد الله الثقفي القاضي وابي محجن الثقفي وغيرهم [2]

ومما ساعد على نشر الخمر بين المسلمين ان بعض الخلفاء الامويين كانوا يشربونها كيزيد بن معاوية وعبد الملك بن مروان و يزيد بن عبد الملك والوليد بن يزيد [3] والوليد هذا اول من وصف الخمر وتغزل بها فسرق الشعراء معانيه وادخلوها في اشعارهم . وتهتك الوليد في المسكر حتى حدثته نفسه ان يسكر فوق الكعبة تخوفه اصحابه من الناس فامسك . وقد افسده وعلمه الخلاعة مؤدبهُ عبد الصمد بن عبد الاعلى [4] على ان رجال الحكومة كانوا يشددون في منع الخمر والحدّ عليها حتى كثيراً ما كانوا يمنعون بيع العسل لئلاّ يصنعوها منه [5] واشهر من شدد في منعها من الخلفاء عمر بن عبد العزيز الاموي والمهتدي العباسي وهي لا تزداد الاّ انتشاراً باتساع اسباب الحضارة وذهاب دهشة الدين واشتغال الناس بالغناء والجواري .

---

(١) المعارف لابن قتيبة ١١٢ (٢) العقد الفريد ٣١٤ ج ٣

(٣) الاغاني ١٥٤ ج ١٩ و ١٥٧ ج ١٣ والعقد الفريد ٣١٤ ج ٣

(٤) ابن الاثير ١٢٤ و ١٣٦ ج ٥ (٥) المقريزي ٢٩٧ ج ٢

حتى صاروا يشربونها جهاراً . واشتهر بشربها غير واحد من الخلفاء واهلهم ورجال الدولة مع التهتك في مجالس الشرب . فعمد بعض المتملقين من الفقهاء ورجال الدين الى انتحال المسوغات لشربها فاخذوا يبحثون في الفرق بين انواعها وميزوا بين المحلل والمحرم منها فاجمعوا على تحريم الخمر واختلفوا في تحريم النبيذ وفي اي انواعه حلال وايها حرام ويقال بالاجمال ان اهل العراق كانوا يستحلون النبيذ واهل الحجاز يحرمونه (١)

والنبيذ يصنع من اكثر انواع الفاكهة ولا سيما العنب والتمر والزبيب والتفاح والمشمش ومن الذرة . ويختلف باختلاف البلاد وباختلاف طرق استحضاره وهو عصير بعض هذه الاثمار او منقوعها كما ينقع الزبيب اليوم (الخشاف) وقد يضيفون اليه العسل او الدبس او يصنعونه من احدها مع الحب على النار (٢) وكانوا اذا اقبلوا على شربه صفوه وتناولوه بالاقداح الكبيرة وربما صنعوا الخمر منه واذا صفي في القناني صعب تمييزه من الخمر او منقوع الزبيب او مذوب العسل (٣) فمن احبّ الشرب استحل تناوله على انه نبيذ فاذا اكثر من شربه فعل فعل الخمر . وبعضهم كان يحلل قليل الخمر ويحرم كثيرها وآخرون يحللون شرب الخمر الاّ اذ ادّت الى السكر (٤) ولكن الاكثرين حكموا بتحريمها ولهم في ذلك اقوال يطول شرحها تراها مبسوطة في كتب الشرع

فالخلفاء العقلاء الذين بلغنا انهم سكروا في بعض مجالسهم كانوا يستحلون شرب النبيذ وهو حلو منعش فيكثرون منهُ حتى يسكروا . ويؤيد ذلك انهم كانوا يشربونهُ بالارطال . واذا طال مكث النبيذ قبل شربه دبّ فيه الاختمار وتولد الكحول ولو قليلاً . وقد يطول مجلس الشراب فيسكر الشاربون ويعربدون . وربما أتوا في سكرهم بما لا يأتيه غير المجانين وافظع مايروى من هذا القبيل ان الملك الناصر بن الملك المعظم الايوبي كان اذا سكر يقول « اشتهي ان أرى غلامي فلاناً طائراً في الهواء » فيرمى ذلك المسكين بالمنجنيق ويراه في الهواء فيضحك ويشرب ويقول « اشتهي ان اشم رائحة فلان وهو يشوى » فيحضر ذلك الرجل ويقطع لحمهُ ويشوى (٥) . وكتب التاريخ والادب مشحونة باخبار مجالس الشراب وهي في الغالب مجالس الغناء ويندر ان يترفع خليفة او وزير عنها ومن اكثر العباسيين رغبة فيها

---

(١) ابن الاثير ٣٦ ج ٦ وابن خلدون ١٥ ج ١ (٢) كتاب البخلاء ٥١

(٣) الاغاني ٤ ج ٥ و١١٢ ج ٤ و٣٥ ج ٣

(٤) العقد الفريد ٣٠٩ و٣١٨ ج ٣ و ٢٧٠ ج ٢ والف باء ٨١ ج ١

(٥) فوات الوفيات ١٥٧ ج ١

الهادي والرشيد والامين والمأمون والمعتصم والواثق والمتوكل واكثرهم نفورًا منها المنصور والمهتدي · واشتهر من الفاطميين بالتهتك بها المستنصر[١] واشتهر بمقاومتها الحاكم بامر الله وكثيرًا ما امر باراقة الخمور واراقة العسل حتى لا تصنع منه

اما العامة فانغمسوا في المسكر وشربوه على انواعه شأنهم في كل زمان وان لم يشربه حكامهم فكيف اذا كانوا يشربون · والغالب في شاربي النبيذ ان ينبذوه في بيوتهم وبعضهم يشربه عند اخوانه وآخرون يتناولونه في الحانات وكانت كثيرة واكثر اصحابها من اليهود وقد يشربون الخمر في الاديار وخمرها مشهورة بجودتها

## ٧ — التهتك

وطبيعي في ما قدمناه من الحضارة والترف ان يعتورها شيء من التهتك والفحشاء وان كان ذلك لا يخلو منه قوم مهما بلغ من بعدهم عن الحضارة ولكنه يكثر غالبًا في المتحضرين لسكون خواطرهم وتوفر اسباب الرغد والتنعم عندهم · كان في جاهلية العرب جماعة من البغايا لهن رايات ينتحيها الفتيان وكان بعض الناس يكرهون اماءهم على البغاء يبتغون عرض الدنيا[٢] ولكن ذلك شأن الحضر منهم لان البدو اقرب الى صحة الآداب · فاعتبر كم تكون اسباب التهتك اوفر في المدن الكبرى حيث تتزاحم الاقدام وتتوفر الثروة وتكثر الجواري ويتفشى الغناء والمسكر كما كان شأن بغداد وقرطبة والقاهرة والفسطاط في ابان ذلك التمدن فلا غرو اذا تفشت الفحشاء فيها ولاسيما في العصور الوسطى حتى صار البغاء صناعة عليها رئيس يحتكم اليه البغاؤون عند الحاجة[٣] وتفننوا في ترويج تلك البضاعة بتصوير النساء على جدران الحمامات[٤] واصبح اهل القصف من الاغنياء يصورون حظاياهم على جدران منازلهم كما فعل ابن طولون · وكان الحكام العقلاء يبذلون جهدهم في منع الفحشاء ويقاومون تيارها بما في امكانهم[٥] ولما عجزوا عن كف اذاها بالقوة ضربوا عليها ضرائب يدفعها اصحابها مثل سائر التجارات[٦]

---

(١) المقريزي ١٦٤ ج ٢ (٢) العقد الفريد ٢ ج ٣

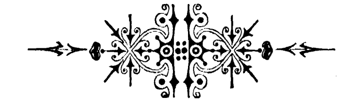
(٣) الفرج بعد الشدة ١٤٣ ج ٢ (٤) ابن خلكان ١٢٧ ج ٢ ونفح الطيب ٨٦٠ ج ٢

(٥) ابن الاثير ٩٥ ج ١٠ و٢١٥ ج ١١ والمقريزي ٣١٦ ج ١

(٦) المقريزي ٨٩ ج ١

واقبح ما ظهر من التهتك في اثناء هـذا التمدن مغازلة الغلمان وتسريهم وظهر ذلك على الخصوص في ايام الامين وتكاثر بتكاثر غلمان الترك والروم من ايام المعتصم وفيهم الارقاء بالاسر او بالشراء . وتسابق الناس الى اقتنائهم كما تسابقوا الى اقتناء الجـواري وغالوا في تزيينهم وتطييبهم . وكانوا يخصونهم ليأمنوا تعديهم على نسائهم وجواريهم . وفشا حب الغلمان في اهل الدولة بمصر وتغزل بهم الشـعراء [١] حتى غارت النساء من ذلك فعمدن الى التشبه بالغلمان في اللباس والقيافة ليستملن قلوب الرجال [٢]

وكثرة الجواري في بعض القصور جرَّهن الى التفنن باساليب الفحشاء وربما اتخذت كل جارية خصياً لنفسها كالزوج كما فعلت جواري خمارويه صاحب مصر [٣] حتى النساء الشريفات فان قعودهن عن الزواج لعدم وجود الاكفاء أو لاسباب أخر كان يجرهن الى مثل ذلك فتكاثر الفساد فيهن لقلة التزويج [٤] ذكروا ان ابنة الاخشيد صاحب مصر اشترت جارية لتتمتع بها وبلغ المعز لدين الله الفاطمي ذلك وكان لا يزال في الغرب يتحفز للوثوب على مصر ويخـاف الفشل فلما بلغه ما فعلته ابنة الاخشيد استبشر وقال « هذا دليل السقوط » وجنَّد على مصر وفتحها — والعفاف سياج العمران



(١) تزيين الاسواق ١٦٣ (٢) المقريزي ١٠٤ ج ٢
(٣) ابن الاثير ١٨٨ ج ٧ (٤) الفرج بعد الشدة ٦١ ج ٢

# ابهة الدولة

الابهة « العظمة والبهجة والكبر والنخوة » ونريد بها مظاهر الدولة في ابهج احوالها وانفخم اطوارها والبحث فيها يتناول النظر في مجالس الخلفاء ومواكبهم وضخامة دولتهم والعابهم وملاهيهم وملابسهم وغير ذلك مما سنفصله . ولما كانت الدولة العباسية اسبق الدول الاسلامية الى تلك المظاهر وقدوتها بها رأينا ان نحصر كلامنا عن الابهة في العصر العباسي مع ما يقتضيه المقام من الاستشهاد بما عند الدول الأخرى فنقول :



## ١ — مجالس الخلفاء

يختلف مجلس الخليفة شكلاً وابهة باختلاف الدول وفي الدولة الواحدة باختلاف اطوارها وفي كل طور باختلاف المراد منها . فكانت مجالس الراشدين في المسجد او المنزل يقعدون على حصير أو جلد يلتفون بعباءة او نحوها فيدخل عليهم الناس في حوائجهم ويخاطبونهم باسمائهم لا يستنكفون من ذلك ولا يرون فيه ضعة . واذا خرج احد قوادهم للفتح مشى الخليفة لوداعه بلا حرس ولا بنود ولا طبول . واوصاه بالتؤدة والصبر مع الرفق والعدل وكان عمالهم في الامصار على نحو ذلك — على ان العمال نظرًا لاقامتهم في مدن عمّرها الفرس او الروم مع ما رأوه من احوال تينك الدولتين كانوا اقرب الى مظاهر الابهة والخلفاء اذا علموا بذلك انبوهم كما فعل عمر لما علم ان سعد بن ابي وقاص امير الكوفة اتخذ قصرًا وجعل عليه بابًا فأرسل اليه رجلاً من خاصته وامره ان يحرق الباب عليه ففعل

ثم ان طبيعة العمران غلبت على تلك السذاجة فتدرّج الخلفاء والامراء في مظاهر الابهة واتخاذ الحجاب — بدأ بذلك معاوية بن ابي سفيان واعانه عليه امراؤه في العراق ومصر وعملوا مثل عمله واشاروا عليه بضروب من الفخامة كان عليها ملوك تلك البلاد قبلهم واقتدى بهم سائر خلفاء بني امية . وزاد العباسيون اسباب الابهة بقربهم من الفرس فادخلوا في الدولة كثيرًا مما كان عليه الاكاسرة في مجالسهم وسائر احوالهم فتعدّدت تلك المجالس واصبحوا يجلسون مجلسًا للحكم وآخر للمنادمة او للمناظرة او للمذاكرة

او غيرها و يختلف المجلس باختلاف ذلك فخامة وترتيباً

على ان مؤسسي الدول قلما كانوا يجلسون لغير العمل والنظر في شؤون الدولة فمعاوية ابن ابي سفيان [1] وابو جعفر المنصور [2] كانا يوزعان ساعات النهار على ما لديهما من الاعمال من ادارة وسياسة ومفاوضة ومطالعة . اما في اواسط الدولة فتعددت المجالس . والمراد هنا بالاكثر المجلس الذي كانوا يجلسونه للنظر في مصالح الدولة

شكل المجلس وفرشه

قلنا ان الراشدين وعمالهم كانوا يجلسون في المساجد لان الاسلام كان لا يزال ديناً فلما جعله الامويون دولة جلسوا في قصور كانت للدول السابقة او بنوا قصوراً لانفسهم نصبوا بها الاسرة والكراسي وافترشوا الطنافس والمصليات والوسائد وعلقوا الستور واقاموا الحجاب . فالاسرَّة اول من اتخذها معاوية قلد بها بطارقة الروم في الشام وكذلك الستور والطنافس واما الكراسي فيظهر انه قلد بها مرازبة الفرس لان اول من استخدمها من أمراء المسلمين زياد بن ابيه عامله على فارس [3] فلعله نقلها الى الشام وقد يكون معاوية اقتبسها من الروم رأساً — وقس على ذلك سائر ما ادخلوه من مظاهر الابهة من الطراز ونقش الاشعار في صدور المجالس وفرش الديباج والخز واصطناع الاسرة من الابنوس او الصندل او العاج او الذهب او غيرها

و بعد ان كانت مصالح الدولة تجتمع في بناء واحد اختصت كل منها بدائرة . واصبح لبعض كبار الرجال دوائر خاصة باعماله تشبه ما للخلفاء من دوائر الكتاب والحساب والاطباء وغيرهم [4] وكان لمجلس الحكم في العصر العباسي داران دار خاصة ودار عامة يجلس الخليفة في الاولى مع رجال الدولة او من يفد عليه من كبار الامراء او الملوك . و ينظر في الثانية في سائر الشؤون و يعقد بها المجالس الاعتيادية

والمجلس في ابان الحضارة كان ينعقد في قاعة او بهو كبير على جدرانه صورٌ ممثلة بالذهب والفضة لما في البر والبحر من شجر او حيوان او جبال و يكسو ارضه بساط واحد او عدة ابسطة من الديباج او نحوه وفي اطراف البهو مناور من الذهب او الفضة توضع عليها الشموع [5] و يسبل على ابواب المجلس ونوافذه ستائر من الحرير او غيره مطرزة بشارة الدولة او باشعار

(١) المسعودي ٥١ ج ٢ (٢) ابن الاثير ١١ ج ٦

(٣) العقد الفريد ٤ ج ٣ (٤) طبقات الاطباء ١٣٠ ج ١

(٥) العقد الفريد ١٠٨ ج ٣

او حكم او آيات او احاديث او رسوم مدن او انهر او جبال · وفي وسط القاعة سدّة او سرير يجلس عليه الخليفة [١] يصنع من العاج او الابنوس او الصندل ينزل بالذهب · وقد غالى الفاطميون في النفقة على الاسرة حتى يدخل في الواحد منها ١١٠,٠٠٠ مثقال من الذهب الابريز الخالص [٢] وقد يجعل الخليفة بين يديه بعض التحف او نحوها للزينة او التشاغل بها · فالمعتمد الاندلسي كانوا يضعون امامهُ في المجلس تماثيل عنبر من جملتها جملٌ مرصع بالذهب واللؤلؤ وجمل من بلور له عينان من ياقوت وقد حلي بنفائس الدر [٣] · ولما كان الخلفاء يحتجبون عن الناس كانوا يعلقون في وسط القاعة ستراً بينهم وبين الجلساء [٤] او يستترون عنهم وراء شباك نخرم · على ان فرشهم يختلف في الشتاء عما في الصيف فيضاف اليه في الشتاء مناقد النار يستجر فيها الند والعود ويلبسون الفراء اللائقة بالوقت على اشكالها [٥] .

## مجالسة الخلفاء

### الاستئذان في الدخول

كان الاستئذان على الخليفة في عصر الراشدين ان يقف الرجل بالباب ويقول « السلام عليكم أأدخل ؟ » يكرر ذلك ثلاثاً فان لم يؤذن له لم يعدها [٦] وربما اقام الراشدون الحجاب لمنع الازدحام او للاستئذان في بعض الاحوال · فلما انقضى ذلك العصر أقيم الآذنون والحجاب يتوسطون للناس بدخولهم على الخليفة بحسب طبقاتهم وفي اوقات معينة لكل طبقة من الجلساء او الادباء او الشعراء او غيرهم [٧] اما في المجالس العامة فيقدمون الناس حسب مراتبهم

واول من رتب المراتب في الدخول على الخليفة زياد بن ابيه في العراق اشار عليه بذلك حاجبه عجلان ولعله اقتبسها من الفرس فجعل الاذن للناس على البيوتات ثم على الاسنان ثم على الآداب [٨] وصار ذلك سنة في الاستئذان على الخلفاء في عصر الامويين فاذا استأذن جماعة في الدخول على الخليفة او الامير يؤذن اولاً لاشرفهم نسباً واذا تساووا

(١) طبقات الاطباء ١٤٢ ج ١ (٢) المقريزي ٣٨٥ ج ١
(٣) نفح الطيب ١١٢٨ ج ٢ (٤) الاغاني ٩٩ ج ٣
(٥) ترتيب الدول ١٢٣ (٦) العقد الفريد ٢١ ج ١
(٧) الاغاني ٦٠ ج ٥ (٨) العقد الفريد ٥ ج ٣ و ٢١ ج ١

في النسب قدموا اكبرهم سنًّا فاذا تساووا في السن قدموا اكثرهم أدبًا وظات هذه القاعدة مرعية في سائر العصور الاسلامية

وكانوا في ايام بني امية وفي اوائل الدولة العباسية اذا وفد الناس على الخليفة او الامير وقفوا ببابه يلتمسون الاذن فاما ان يأذن لهم او يصرفهم فاذا صرفهم عادوا ثانية واذا لم يؤذن لهم هذه المرة عادوا ثالثة حتى يؤذن لهم او يملوا · و يعبرون عن ذلك بقولهم الاذن الأَول والثاني والثالث الخ[١] ثم جعلوا للوافدين على الخليفة منازل بجوار دار العامة يقيمون فيها ريثما يؤذن لهم · واول من فعل ذلك المنصور العباسي لما بنى بغداد فاتخذ في قصره بيوتًا للاذن فجرى الامر على ذلك في الدولة العباسية[٢] فكان الوافد يقيم هناك ريثما يستريح ثم يستأذن وقد يلتمسون اذنًا لدخول القصر وآخر لدخول المجلس

الدخول على الخليفة والسلام عليه

فاذا اذن لاحدهم بالدخول تقدم والقى التحية · وكانوا في اول الاسلام يحيون تحية عامة فيقول الداخل على الخليفة او الامير او الوالي « السلام عليك » و يكرهون قولهم « عليك السلام » لانها تحية الموتى[٣] وقد يضاف الى التحية كنية الامير او الخليفة ولا يزيدون على ذلك فلما خالطوا الاعاجم ورأوا تمييزهم بين الرئيس والمرؤوس هموا بتقليدهم · واول من قلدهم المغيرة بن شعبة فقال « ينبغي ان يكون بين الامير ورعيته فرق » والزم اهل عمله ان يؤمروه اي يحيوه تحية الامراء وهي « السلام عليك ايها الامير ورحمة الله و بركاته »[٤] او « السلام على الامير ورحمة الله » ففعلوا · واقتدى بهم سائر المسلمين وميزوا الخلفاء بتحية الخلافة فصاروا يقولون عند الدخول على الخليفة « السلام عليك يا امير المؤمنين ورحمة الله و بركاته » او « السلام على امير المؤمنين ورحمة الله »[٥] وما زالت هذه تحيتهم حتى فسدت حضارتهم بالتملق ونحوه فقلدوا الدول الأُخرى بالتعظيم وحظروا على الناس السلام على الخليفة لما فيه من تكاليف الرد والجواب واقتصروا في تحيته على الخدمة والدعاء له · والخدمة تختلف بين ان تكون باحناء الرأس والتطامن والبلوغ الى حد الركوع وما زاد عليه فهو سجود ولا يجوز لغير الله

وربما قبلوا يد الخليفة عند التحية وكانوا في اوائل الاسلام يقبلونها عند البيعة او

---

(١) الاغاني ٧٠ ج ٦ (٢) لطائف المعارف ١٤

(٣) العقد الفريد ٢٠٩ ج ١ (٤) الاغاني ٣٥ ج ١٢

(٥) المقريزي ٢٨٨ ج ٢

تجديد العطاء وعند العفو او الوداع . وكان الصحابة يفعلون ذلك مع النبي وظل متبعاً مع اكثر الخلفاء . ثم ترفع هؤلاء عن ان يلمس الناس اكفهم فصار التقبيل للاكمام والعتبات على حسب الاقتدار . واذا اراد الخليفة تشريف احد قواده منعه من تقبيل يده او كمه كما فعل المهدي مع مسلم بن قتيبة فجذب يده منه وقال « نصونك عنها ولانصونها عن غيرك »(١) وقد يختلف ذلك باختلاف الناس واختلاف الدول وتباين الاحوال . فان جوهر القائد لما ودع مولاه المعز لدين الله عند قدومه لفتح مصر انزل المعز اولاده لوداعه فنزلوا عن خيولهم ونزل اهل الدولة لنزولهم فقبل جوهر يد المعز وحافر فرسه(٢) . وعبد الله بن مالك صاحب شرطة المهدي كان خائفاً من الهادي لانه سبّه قبل خلافته فرأى منه رعاية وحلماً فلم يتمالك عن تقبيل يده ورجله وحافر دابته(٣) وكذلك فعل ابراهيم الموصلي فقبل حافر دابة الرشيد لانه تنازل لزيارته(٤) وكان اهل الدين والنسك اذا دخلوا على الخليفة لا يخدمون مثل سواهم بل يدخلون وعليهم السكينة والوقار

والداخلون على الخليفة يجلسون في المواضع اللائقة بمراتبهم ويتولى اجلاسهم الحاجب او الآذن وكانت الرتبة الاولى بعد الخليفة في الدولة الاموية لبني امية يجلسون على الاسرة وبنو هاشم على الكراسي . واما في الدولة والعباسية فصارت الافضلية لبني هاشم وصاروا يسمونهم الملوك او الاشراف فيجلس الخليفة على السرير او السدة ويجلس بنو هاشم على الكراسي ويقعد بنو امية اذا حضروا على الوسائد تثنى لهم(٥) لكن الامويين قلما كانوا يحضرون مجلس بني العباس بعد ان نكبوهم وقتلوا معظمهم وما بقي منهم اسقطت مرتبته في ايام المستعين سنة ٢٥٠ هـ(٦) ويلي هؤلاء سائر طبقات الجلساء من اهل الدولة وغيرهم وتتفاوت مراتبهم هؤلاء وتتباين على مقتضى الاحوال مما لا حدّ له

الآداب في مجالسة الخلفاء

كانت مجالسة الخلفاء في صدر الاسلام مثل مجالسة سائر الناس لما علمته من سذاجة الراشدين وكانوا يخاطبون الخليفة باسمه او كنيته فيقولون يا عمر او يا معاوية او يا علي لا يرون بذلك بأساً . وكان الجلساء يتخاطبون ويتباحثون بلا احتراس ولا تهيب

---

(١) ترتيب الدول ٦٠ و ٩ (٢) ابن خلكان ١١٩ ج ١
(٣) ابن الاثير ٤٢ ج ٦ (٤) الاغاني ٩١ ج ٩ (٥) الاغاني ٩٢ ج ٤
(٦) ابن الاثير ٥١ ج ٧

لاسباب تقدم بيانها . فلما ضخم ملكهم وذهبت دهشة النبوة عمل الامويون على التشبه بالدول المستبدة واخذ الدهاة من عمالهم بتعظيم امر الخليفة وتفخيم منصبه وتنزيه مجلسه عن مجالس سائر الناس . واول من فعل ذلك زياد بن ابيه فوضع القاعدة « ان لا يسلَّم على قادم بين يدي الخليفة » (١) ثم منعوا الكلام في حضرة الخلفاء على الاطلاق واول من منعه عبد الملك بن مروان . وتجبر الخلفاء بعد ذلك حتى منعوا الناس من مخاطبتهم كما كانوا يخاطبون اسلافهم واول من تجبر الوليد بن عبد الملك فكلف الناس ان لا يكلموه كما كانوا يكلمون اسلافه وقال بعد كلام « واني اعطي الله عهداً يأخذني بالوفاء به لا يكلمني احد بمثل ذلك الا اتلفت نفسه فلعمري ان استخفاف الرعية براعيها سيدعوها الى الاستخفاف بطاعته والجرأة على معصيته » وقال له رجل من بني مرة يوماً « اتق الله ياوليد فان الكبرياء لله » فامر به فوطيء حتى مات فانعظ الناس وهابوه (٢) وهو اول من منع الناس ان يكاتبوه بما كانوا يكاتبون اسلافه او يكاتبون بعضهم بعضاً

ثم صارت القاعدة المرعية في مجالسة الخلفاء ان لا يبدءى لاحد في حضرتهم (٣) ولا ينهض لداخل الا اذا نهض الخليفة — ثم صارت رسوم ارباب الدواوين كبارهم وصغارهم اذا كانوا في دواوينهم لا يقومون لاحد من خلق الله ممن يدخل عليهم (٤) ـ فلا يتكلم احد في مجلس الخلفاء الا اذا كلموه اي لا يبدأهم احد بكلام . وجرت العادة ان يطلقوا الكلام للوافد عليهم بقولهم « ما انعمنا بك يا ابا فلان » وهي كلمة كانت تقولها العرب (٥) فيذكر الرجل ما جاء من اجله واذا لم يطلق له الكلام ظل ساكتاً

وما زال ذلك سنة مرعية في مجالس الخلفاء حتى اباح المأمون الكلام لاهل مجلسه للمناظرة بين يديه (٦) واستمر ذلك بعده مع مراعاة الاحوال . اما مبادأة الخليفة بالكلام فاول من استطاعها احمد بن ابي دواد وزير المعتصم (٧) . ولما استولى القواد على الامور ضعفت هيبة الخلفاء وذهبت تلك الرسوم حتى ابيح اللعب والضحك والهزل في مجالسهم واول من اباحها المتوكل على الله في اواسط القرن الثالث للهجرة (٨)

---

(١) العقد الفريد ٢١٨,٦ ج ٢

(٢) لطائف المعارف ١٤ والبيان والتبيين ١٢ ج ٢ وابن الاثير ٢٥١ ج ٤

(٣) البيان والتبيين ٣٨ ج ٢ (٤) الفرج بعد الشدة ١٠٠ ج ١

(٥) ترتيب الدول ٩٢ (٦) الاغاني ٣٦ ج ١٤ والمسعودي ٢٥٧ ج ٢

(٧) ابن خلكان ٢٢ ج ١ (٧) المسعودي ٢٦١ ج ٢

ومن ادابهم في ذلك المجلس ان لا يأمر فيه احد غير الخليفة (١) واذا نهض نهض سائر الحضور ٠ وان يصغي الجليس الى كلامه بكليته فلا يشتغل عنه بشيء ٠ ومن لطيف ما يروونه من هذا القبيل ان معاوية كان يحدث يزيد بن سحرة حديثاً وابن سحرة مصغ فصكّ جبينه حجر غائر فادماه فجعلت الدماء تسيل على وجهه ولحيته وثوبه ولم يتغير عما كان عليه من الاستماع حتى نبهه معاوية الى ذلك فاجابه « ان حديث امير المؤمنين الهاني حتى غمر فكري وغطى على قلبي » فزاد معاوية عطاءه (٢)

والخلفاء لا يعزون وانما يقتصر على الدعاء لهم بدوام الظفر والسعادة من غير تطويل ٠ ولا يقال للخليفة كيف اصبح ولا كيف امسى ولا يسأل عن حاله ولا يطنب في تحسين كلامه ولا افعاله ولا يستعاد منه الكلام ولا يستزاد ولا تحسن الاشارات في مجلسه ولا يغامز ولا يشتغل بحضرته بوداع راحل ولا سلام قادم (٣) ولا يليق ان يرد على الخليفة بلفظ « لا » فيحتال في التخلص منها (٤) ٠ وقد قالوا في الاحتراس من مخاطبة الملوك « من اراد مصاحبة الملك فليدخل كالاعمى وليخرج كالاخرس » (٥) ٠ ومن امثلة التأدب في مخاطبة الخلفاء ان عبدالملك بن صالح وجه الى الرشيد فاكهة في اطباق الخيزران وكتب اليه « اسعد الله امير المؤمنين واسعدني به اني دخلت الى بستان لي افادنيه كرمك وعمرته لي نعمك قد اينعت اشجاره وآتت ثماره فوجهت الى امير المؤمنين منه شيئاً على الثقة والامكان في اطباق القضبان ليصل اليّ من بركة دعائه مثل ما وصل اليّ من كثرة عطائه » فاستحسن الرشيد تكنيته عن الخيزران بالقضبان لانه اسم امه (٦)

وكان الحديث يجري في مجلس الخليفة في اول الاسلام باللغة العربية الفصحى فيعربون الكلام ويضبطون حركات الالفاظ فمن لم يستطع ذلك من الخلفاء عدوه لحاناً ٠ فكان الامويون يرسلون اولادهم الى البادية يشبون فيها ليضبطوا الفاظهم وقد احسنوا ذلك الا الوليد بن عبد الملك فان اباه لم يرسله الى البادية فنشأ لحَّاناً وكان ابوه يكره اللحن ومن اقواله « اللحن في الكلام اقبح من التفتيق في الثوب والجدري في الوجه » ومنها « تعلموا النحو كما تتعلمون الفرائض » وكان يخاف اللحن اذا وقف للخطابة فيؤلمه ذلك وسأله سائل « لقد عجل اليك الشيب يا امير المؤمنين » قال « شيبني ارتقاء المنابر وتوقع

(١) العقد الفريد ١١١ ج ٣ (٢) المسعودي ١٥٧ ج ٢ (٣) ترتيب الدول ٦١
(٤) ابن الجوزي ٣٦ و ٦٠ (٥) ترتيب الدول ٩٨
(٦) فوات الوفيات ١٣ ج ٢

اللحن » وكذلك كان سائر بني امية ـ وللوليد اخبار في اللحن مضحكة [١]. وكان عمال بني امية مثل خلفائهم في المحافظة على الاعراب الا الحجاج بن يوسف فقد كان يلحن احياناً [٢] فلما استعجمت الدولة في زمن بني العباس قلت عناية الناس في الاعراب وظهر غير واحد من الفقهاء والعلماء يلحنون في كلامهم كابي حنيفة النعمان وابي عبيدة وغيرهما

احتجاب الخلفاء عن جلسائهم

كان الخلفاء الراشدون يجالسون الناس ويخاطبونهم ولا يحتجبون عنهم ثم احتجب الامويون وجعلوا بينهم وبين الجلساء حجاباً ووسطوا في حوائج الناس من يقضيها عنهم. واول من احتجب معاوية بعد اقدام البرك بن عبد الله الخارجي سنة ٤٠ هـ على قتله غيلة وكان قد قعدله في المسجد فلما خرج ليصلي الغداة شد عليه بالسيف فجرحه فلما شفي ابتنى هناك مقصورة يصلي فيها خوفاً من مثل ذلك واحتجب عن الناس الا من اختصهم بالمجالسة. واقتدى به الخلفاء بعده في اوائل دولتهم وكذلك الاوائل من بني العباس [٣]

والحجاب كان شائعاً عند الفرس من عهد ازدشير فكانوا ينصبون في مجلس الملك ستارة بينها وبينه عشرة اذرع وبينها وبين الجلساء عشرة اذرع فقلدهم العباسيون. ثم ضاعفوا الحجاب في بعض الاحوال فاتخذوا عدة استار الواحد وراء الآخر الى ثلاثة او اربعة وفعل ذلك وزراؤهم البرامكة ايضاً [٤] وجعلوا لقصورهم عدة ابواب الواحد وراء الآخر [٥]

كذلك كان شان العباسيين من ابي العباس السفاح الى المتوكل ومن بعده الا الهادي فانه لم يحتجب عن احد [٦] على انهم كانوا يحتجبون غالباً عن الندماء والمغنين وسائر طبقات العامة وليس عن الخاصة الا احياناً. فكانوا يقيمون عند الستارة حاجباً يسمونه صاحب الستارة يتوسط في نقل ما يريد الخليفة ابلاغه الى جلسائه او ندمائه واقتدى بالعباسيين غيرهم من الدول الاسلامية بمصر والاندلس

علامة الصرف

واذا اراد الخليفة صرف جلسائه ابدى اشارة يعرفونها فينصرفون. وهي عادة فارسية وضعها كسرى انوشروان فكان اذا احب ان يصرف ندماءه مدّ رجله فينصرفون. وتابعه

(١) العقد الفريد ٢٢٤ ج ١ والفخري ١١٢ (٢) ابن خلكان ٢٤٤ ج ١
(٣) المسعودي ١٠٦ ج ١
(٤) الفرج بعد الشدة ٢٣ ج ٢ والمستطرف ١٦٤ ج ١ والاتليدي ١٣٣
(٥) الاتليدي ١١٥ (٦) الاغاني ١٦ ج ٥

ملوكهم على ذلك فكان فيروز يدلك عينيه وبهرام يرفع راسه الى السماء [١] وقلدهم فيها المسلمون من ايام بني امية فكان معاوية اذا اراد صرف الناس قال « اذا شئتم » او « العزة لله » وكان ابنه يزيد يصرفهم بقوله « على بركة الله » وعبد الملك كان يحمل بيده خيزرانة فاذا القاها من يده عرف جلاسه انه يريد انصرافهم [٢] وقس عليه سائر الخلفاء من بني امية وامرائهم فكان يزيد بن هبيرة اذا اراد صرف جلسائه دعا بمنديل فيقومون

اما بنو العباس فقد كانت امارة السفاح منهم ان يتثاءب ويلقي المروحة من يده [٣] وكانت علامة المأمون ان يعقد اصبعه الوسطي بابهامه ويقول « برق يمان برق يمان » ومن انصرف من حضرة الخليفة مشى القهقري ووجهه نحو مجلسه حتى يتوارى

## ٢ — مجالس الادب والشعر

رغبة الخلفاء في الاطلاع

كان للخلفاء ميل شديد الى سماع الاخبار فيعقدون المجالس يحضرها الادباء من اهل الاخبار والنوادر والادب والشعر يحادثون الخليفة بما يلذ له سماعه من اخبار العرب ونوادرهم واشعارهم . وكان الدهاة من الخلفاء والامراء مثل معاوية وهشام والمنصور وابن هبيرة [٤] يقيمون اناساً يتلون عليهم اعمال القواد والملوك من الروم والفرس واخبار الدول وحوادث الشجاعة والرأي يلتمسون بذلك التوسع باسباب الدهاء وافانين السياسة كما يفعل رجال اليوم بالاطلاع على تراجم العظماء

على انهم كانوا يعقدون مجالس الادب على الغالب لترويح النفس من مشاغل الدولة وتلذذاً بالاطلاع على آداب العرب واخبارهم فاختص بكل خليفة جماعة ممن عاصروه من اصحاب الاخبار والشعر يجالسونهُ في اوقات معينة او اذا دعاهم في ساعة قلقه او ارقه . وقد يكون ذلك في اواسط الليل والناس نيام . فلا يزال الرجل ينتقل بحديثه من خبر الى نكتة الى نادرة الى شعر حتى يزول ما في نفس الخليفة وينشرح صدره . وقد تفرغ جعبة المحدث مما يعلمهُ من الاخبار قبل ان ينشرح صدر الخليفة فيضع قصة من عند نفسه يبنيها على نكتة او حكمة مما يعلم ارتياح الخليفة لهُ [٥]

---

(١) حلبة الكميت ٢٦ (٢) البيان والتبيين ٦٠ ج ٢ والعقد الفريد ٢١٩ ج ١
(٣) الاغاني ٢٠٦ ج ١٨ (٤) ابن الاثير ١١ ج ٦ والمسعودي ٥١ ج ٢ وابن خلكان ٢٨٠ ج ٢ وسير الملوك ٢٢ (٥) المسعودي ١٦٣ ج ٢

احترام الخلفاء لاهل العلم

وكانوا يجلّون اهل الادب والعلم ويقربونهم ويبذلون لهم الاموال ويدافعون عنهم ولا سيما الرشيد والمأمون · وفي ما يروونه عن الرشيد ومعاملته للعلماء ادلة عديدة على ذلك فكان كثير الملاطفة للاصمعي والاجلال لهُ فاذا خلا بهِ سأَله واستفاد منهُ علمًا وادبًا فيقول الرشيد عندذلك « هكذا وقّرنا في الملا وعلّمنا في الخلا » وكان يعطيه الجوائز الحسنة · وأَكل ابو معاوية الضرير طعامًا مع الرشيد فلما قام ليغسل يديه تناول الرشيد الابريق وصبَّ عليهما والرجل لا يعلم فقال لهُ « اتدري من يصبُّ الماء على يدك ؟ » قال « لا » قال « انا » قال « انت يا امير المؤمنين ؟ » قال « نعم اجلالاً للعلم » (١)

ناهيك بما وقع من البحث في مسأَلة الزنبور والنحلة بين سيبويه والكسائي وكيف انتصر الامين للكسائي والمأمون لسيبويه وما جرى من الجدال في ذلك بحضرة الرشيد فاخذ الرشيد بناصر الكسائي في حديث طويل ذكرنا خلاصته في الجزء الثالث صفحة ٧٩

ومن ادلة اجلالهم للعلم انهم كانوا يحرضون ابناءهم على تلقيه وحفظ الاشعار والاخبار ويعينون لهم المعلمين من نخبة العلماء المعاصرين · فالمنصور ضمَّ الشرقي بن القطامي الى ابنه المهدي واوصاه ان يعلّمه اخبار العرب ومكارم الاخلاق وقراءة الاشعار (٢) والرشيد عهد بتعليم ابنه الامين الى الاحمر النحوي ثم الى الكسائي وعهد بتأديب المأمون لليزيدي وسيبويه وغيرهما · وللرشيد وصية يقال انهُ اوصى بها الاحمر المذكور لما عهد اليهِ بتأديب الامين ينبغي ان يتحداها سائر الآباء وهي :

« يا احمر ان امير المؤمنين قد دفع اليك مهجة نفسه وثمرة قلبه فصيَّر يدك عليه مبسوطة وطاعته لك واجبة فكن له بحيث وضعك امير المؤمنين · اقرئه القرآن وعرفهُ الاخبار وروّه الاشعار وعلّمه السنن وبصره بمواقع الكلام وبدئه وامنعه من الضحك الاّ في اوقاته وخذه بتعظيم مشائخ بني هاشم اذا دخلوا عليه ورفع مجالس القواد اذا حضروا مجلسهُ ولا تمرَّنّ بك ساعة الا وانت مغتنم فائدة تفيده اياها من غير ان تحزنه فتميت ذهنه ولا تمعن في مسامحته فيستحلي الفراغ ويأْلفه وقوّمه ما استطعت بالقرب والملاينة فان أباها فعليك بالشدة والغلظة » (٣)

(١) سير الملوك ٧٩ (٢) المسعودي ١٨٠ ج ٢ وطبقات الادباء ٤٢

(٣) ابن خلدون ٤٧٥ ج ١ والمسعودي ١٩٤ ج ٢

وعهد المأمون الى الفراء بتعليم ولديه النحو واتفق ان الفراء اراد ان ينهض ذات يوم الى حوائجه فابتدرا الى نعله ليقدماها لهُ فتنازعا ايهما يقدمها ثم اصطلحا على ان يقدم كل منهما واحدة . و بلغ ذلك المأمون فاستدعاهُ فلما دخل عليه قال المأمون « من اعزّ الناس؟ » قال « لا اعرف احداً اعز من امير المؤمنين » فقال « بل من اذا نهض تقاتل على تقديم نعله وليّا عهد المسلمين حتى يرضى كل واحد منهما ان يقدم لهُ فرداً » فقال « يا امير المؤمنين لقد اردت منعهما عن ذلك ولكن خشيت ان ادفعهما عن مكرمة سبقا اليها او اكسر نفسيهما عن شريفة حرصا عليها » [1] . وعهد المتوكل بتعليم ابنائه الى ابن السكيت [2] وتعلم عبد الله بن المعتز الادب والعربية على المبرّد وثعلب واحمد بن سعيد الدمشقي [3]

تقديم الشعراء

و يقال نحو ذلك في تقديمهم الشعراء فقد اجزلوا لهم الاعطية وعينوا لهم اوقاتاً يدخلون فيها عليهم كما قلنا في غير هذا المكان وكانوا يفرضون لهم مالاً يدفعونه اليهم كل سنة على الوفدة او القصيدة او يعطونهم على البيت من الشعر مبلغاً معيَّناً . على ان مقامهم كان يعلو و يهبط تبعاً لأمزجة الخلفاء واغراضهم واحوال السياسة . فمنهم من كان يبعد الشعراء من البخل كعبد الملك بن مروان وابنه الوليد [4] . ومنع عمر بن عبد العزيز الشعراء من بابه تورعاً لاعتقاده انهُ لا تصح اجازتهم من بيت المال وكان ذلك اعتقاد غير واحد من ابناء الصحابة كعبد الله بن الزبير وغيره . وكان المنصور بخيلاً على الشعراء اشتغالاً عنهم بتأبيد الدولة . فكانوا يخرجون في ايامه من بغداد ويجتمعون ويتذاكرون ايامهم في الشام [5] على عهد بني امية

ولكن معظم الخلفاء كانوا يحبون الشعر و يقربون الشعراء و بعضهم تعلموا العروض ونظموا الشعر ولهم ابيات مشهورة . وكان الشعراء يتقربون الى الخلفاء او الامراء بالمديح وقد يرتكبون اقبح الاكاذيب في هذا السبيل الاَّ من لم يتجع بشعره وهم قليلون وكانت لهم منزلة رفيعة عند اهل الدوله [6] واما سائر الشعراء فكانوا يتعيشون بالمدح او الهجاء . وقيل للحطيئة «اياك وهجاء الناس» فقال « اذاً يموت عيالي جوعاً هذا مكسبي ومنه معاشي » [7] وقد يمدح

(١) طبقات الادباء ١٣٠ وابن خلكان ٢٢٨ ج ٢

(٢) طبقات الادباء ٢٣٨ (٣) فوات الوفيات ٢٤١ ج ١

(٤) الاغاني ١٥٨ ج ١٥ و ١١٩ ج ٢٠ (٥) الاغاني ٩١و ١٠٢ ج ١٢

(٦) الاغاني ٧٩ ج ٢٠ (٧) الاغاني ٥٥ ج٢

الشاعر الضدين رغبة في الكسب كما فعل ابن دأب فمدح معاوية وعليًّا [١]

وكان الشاعر اذا دخل على الخليفة بقصيدة انشدها بصوت عال وهو قائم . واذا تعدد المنشدون قدموهم على الاسنان . وكان الخلفاء يتفهمون معاني الشعر حتى كثيرًا ما كانوا يباحثون الشاعر في معنى البيت او الكلمة واذا استبطأُوا الشاعر او الراوية بعثوا في استقدامه من العراق او الحجاز وقد لا يكون الغرض من ذلك الا سماع بيت او قصيدة كما فعل الوليد ابن يزيد في استقدام حماد من العراق لينشدهُ قصيدة تغنيها مغنيته [٢] او لينظم له شعرًا في حادثة جرت معهُ كما فعل الواثق لما غضبت عليه حظيته فاستقدم ابن الضحاك ليقول في ذلك شعرًا [٣] وقد يجيزون من يأتيهم بشاعر يعجبهم كما اجاز المهدي الفضل بن الربيع بعشرة آلاف دينار وولاه حجابته لانهُ اتاهُ بابن جامع [٤]

وكانوا لا يكتفون بمن يفد عليهم من الشعراء للاستجداء فيرسلون في طلبهم الى الانحاء وارغب الخلفاء في ذلك الرشيد [٥] فتكاثر الشعراء ببابه حتى ضاقت بهم بغداد واضطروا الى امتحانهم وترتيبهم في الجوائز فعهد يحيى بن خالد بذلك الى شاعره ابان اللاحقي [٦] واصبح الخليفة اذا احب مجالسة الشعراء بعث رجلاً يثق به ليختار لهُ احسنهم [٧] او اذا عنَّ لهُ بيت او قصيدة خرج وصيف او حاجب او نحوهما فيقول للشعراء «من منكم يقدر يقول قول فلان او يحفظ القصيدة الفلانية فليدخل ولهُ كذا وكذا» [٨] وكانوا يطربون للشعر ويستلذونهُ وربما تزاحفوا عن مجالسهم اعجابًا وطربًا [٩]

---

## ٣ مجالس المناظرة والعلم

كانت مجالس الادب في ايام بني امية واوائل بني العباس يقتصر البحث فيها على المسائل الادبية والعلوم اللسانية كما تقدم فلما ترجمت علوم القدماء في العصر العباسي ونشأ علم الكلام شاعت المناظرة بين العلماء والفقهاء . وقد سبق الناس الى العناية في ذلك البرامكة فكان ليحيى بن خالد مجلس يجتمع فيه المتكلمون وغيرهم من اهل النحل يتباحثون في الكون

---

(١) الاغاني ١٣٩ ج ٤ (٢) الاغاني ٦٥ ج ٢ (٣) الاغاني ١٧٨ ج ٦
(٤) الاغاني ٧٣ ج ٦ (٥) الاغاني ٧٤ ج ١٧
(٦) الاغاني ٧٣ ج ٢٠ (٧) الاغاني ٢ ج ١٢
(٨) الاغاني ١٣٥ ج ١١ و ١٤١ ج ١٧ (٩) سير الملوك ٩٣

والظهور والقدم والحدوث والاثبات والنفي وغيرها من الابحاث الفلسفية المبنية على علم الكلام [١]

ثم اهتم الخلفاء انفسهم في ذلك ولا سيما بعد ان ظهر القول بخلق القرآن وقام به المأمون فأخذ يعقد المجالس للمناظرة فيه وفي سواه وعين لذلك يوم الثلاثاء من كل اسبوع . فاذا حضر الفقهاء ومن يناظره من سائر اهل المقالات أُدخلوا حجرة مفروشة وقيل لهم « انزعوا اخفافكم » ثم أُحضرت الموائد وقيل لهم « اصيبوا من الطعام والشراب وجددوا الوضوء ومن كان خفه ضيقاً فلينزعه ومن ثقلت عليه قلنسوته فليضعها » فاذا فرغوا اتوا بالمجامر فتبخروا وتطيبوا ثم خرجوا فاستدناهم حتى يدنون منه ويناظرهم احسن مناظرة والطفها وابعدها من مناظرة المتجبرين . فلا يزالون كذلك الى ان تزول الشمس ثم تنصب الموائد ثانية فيطعمون وينصرفون [٢] وسار الواثق على خطواته في هذا السبيل . وكانوا يعقدون هذه المجالس كلما دعت الحاجة الى اثبات رأي أو مذهب جديد

ولما استقرت الدولة الفاطمية بمصر فعل وزيرها يعقوب بن كلس مثل فعل يحيي وزير العباسيين فانشأ مجالس للمناظرة في الفقه والادب والشعر وعلم الكلام وغيره وغرض هذه الدولة اثبات مذهب الشيعة لان عليه قامت دولتهم . فاخذ الحاكم بامر الله يفاوض العلماء ويجيزهم ويسهل عليهم البحث والمناظرة في دار الحكمة التي انشأها في القاهرة [٣] وربما عقدوا حلق المناظرة في الجوامع أوغيرها

وصارت تلك المجالس عامة في الدول التي خلفت الدولة العباسية او تفرعت منها واكثر العقلاء والاقوياء من الملوك والسلاطين كانوا يعقدونها للمناظرة -- كذلك فعل صلاح الدين وسيف الدولة ونظام الملك والحكم الاندلسي . واقتدى بهم اهل العلم والوجهاء والاطباء واطلقت حرية البحث في كل شيء . ومن اشهر مجالس المناظرة مجلس كان يعقده يوحنا بن ماسويه في بغداد فيحضره العلماء على اختلاف طبقاتهم من الفلاسفة والاطباء والادباء والمتكلمين وغيرهم [٤] ومجلس ابي حامد الاسفراييني كان يحضره ٣٠٠ فقيه . وقس عليهما مجلس ابن المنجم وكان يعقده بحضرة المكتفي [٥]

(١) المسعودي ٢٠٢ ج ٢ وابن خلكان ٤٨٠ ج ١
(٢) المسعودي ٢٣١ ج ٢ وابو الفرج الملطي ٢٣٦ (٣) الجزء الثالث ٢٠٩
(٤) طبقات الاطباء ١٧٥ ج ١ وابو الفرج الملطي ٢٢٧
(٥) ابن خلكان ٢٣٥ ج ٢

# ٤ – مجالس الغناء والانس

منزلة المغنين

تقدم الكلام في تاريخ الغناء واصله وانتشاره وقد رغب الخلفاء فيه على الخصوص في ابان الحضارة وعصر الرخاء والترف وجعلوا للمغنين نوبات يدخلون فيها مجالسهم [1] وفرضوا لهم الرواتب كما فرضوها للشعراء وعهدوا بهم الى بعض اهل البلاط او الحاشية ينظرون في امورهم [3] . وكانوا يصطحبونهم في خروجهم للصيد او نحوه ويجيزونهم [2] الجوائز الكبرى وهم اقرب الى ذلك من الشعراء لما يتفق في مجالسهم من طرب الخلفاء لانهم قلما كانوا يسمعون الغناء من غير شراب فاذا طربوا بذلوا الاموال بلا حساب كما تقدم

ومن اكثر الخلفاء الامويين رغبة في الغناء وبذلاً للمغنين يزيد بن عبد الملك الذي استخفه الطرب من غناء جاريته حبابه حتى قال « اريد ان اطير » فقالت له حبابة « على من تدع الامة وتدعنا » [4] وكذلك كان ابنه الوليد بن يزيد . ومن الخلفاء العباسيين المهدي والرشيد والامين والمأمون والواثق والمتوكل ومن نبغ في ايامهم من الوجهاء والعظماء

على انهم كانوا اذا اهمهم امر الدولة وخافوا سقوطها ابعدوا المغنين ليتفرغوا لمهامهم كما فعل المأمون لما رجع من خراسان [5] . وكان لكبار المغنين منزلة رفيعة في الدولة كابراهيم الموصلي وابنه اسحق وابن جامع وكانت جوائزهم من الخلفاء تفوق الحصر — ذكروا عن ابراهيم المذكور انه غنى الامين بشعر ابي نواس :

رشأ لولا ملاحته خلت الدنيا من الفتن

فاستخفه الطرب حتى وثب من مجلسه وركب على ابراهيم وجعل يقبل رأسه فنهض ابراهيم واخذ يقبل اخمص قدمي الامين وما وطئتا من البساط فأمر له بثلاثة آلاف درهم فقال ابراهيم « ياسيدي قد اجزتني الى هذه الغاية بعشرين الف الف درهم » فقال الامين « وهل ذلك الا خراج بعض الكور ؟ » [6] فاعتبر ما دخل على الموصلي من الرشيد وغيره . فلا

---

(١) الاغاني ٩ ج ١٣ (٢) ابن الاثير ٦١ ج ٨ (٣) الاغاني ١١١ ج ٥
(٤) المسعودي ١٢٦ ج ٢ (٥) الفرج بعد الشدة ٨٧ ج ١
(٦) العقد الفريد ١٩٥ ج ٣

غرو اذا توفي عن ثروة طائلة . واشتهر في بلاد المغرب زرياب المغني وهو الذي نقل هذه الصناعة الى الاندلس فقد اثرى وارتفعت منزلته حتى صار يركب في ٢٠٠ غلام ويملك ٣٠,٠٠٠ دينار غير الخيل والضياع والرقيق [١]

المضحكون والمجانون

ومن توابع مجالس الغناء المضحكون والمجانون اشهرهم اشعب في دولة بني امية وابو الحسن الخليع الدمشقي في ايام الرشيد وابو العبر في ايام المتوكل وغيرهم كثيرون . فكانوا اذا عقدت مجالس الأُنس ودارت الاقداح وطرب الخليفة لبسوا ملابس مضحكة يقلدون بها الدب أو القرد ويعلقون في اعناقهم الجلاجل والاجراس مما يضحك الثكلى . وكان بعض الخلفاء اذا استخفهم الطرب كلفوا هؤلاء المجانين ما لا يطاق من ضروب العذاب وهم يتلذذون بعذابهم فالمتوكل كان اذا طرب امر بابي العبر المجان ان يُرمى به في المنجنيق الى الماء وعليه قميص حرير فاذا علا في الهواء صاح «الطريق الطريق» ثم يقع في الماء فتخرجه السباح . وكان يجلس احيانًا على الزلاقة فينحدر فيها حتى يقع في البركة ثم يطرح الخليفة الشبكة فيخرجه كما يخرج السمك [٢] وكان الامين اذا طرب صاح في ندمائه وجلاسه «من يكون منكم حماري» فكل واحد يقول «انا» فيركب الواحد ويصله [٣] وكان يقع في مجالس الوليد بن يزيد من السكر والفحش في القول والفعل ما نتحاشى ذكره . وقد افرط الخلفاء بالتبسط في العيش والتمتع بالملذات ولذلك كانوا قصار الاعمار فمات اكثرهم قبل سن الكهولة

## ٥ — مواكب الخلفاء

نريد بالموكب الاحتفال بخروج الخليفة او السلطان او الامير في عيد او غير عيد وهو من مقتضيات الابهة والمدنية . وكانت المواكب معروفة عند ملوك العرب في الجاهلية فكان لمعدي كرب عبيد من الاحباش يمشون بين يديه بالحراب [٤] فلما جاء الاسلام تزهد اصحابه من التقوى فكان الخلفاء الراشدون يركبون في خروجهم كسائر الناس . وكان ابو بكر في اول خلافته يقيم في السنخ بضاحية المدينة ويغدو كل يوم على رجليه الى المدينة وقد يركب فرسه . وكان يغدو الى السوق فيبيع ويبتاع وله قطعة غنم تروح عليه وربما خرج هو بنفسه

(١) الاغاني ١٣٢ ج ١٠ (٢) الاغاني ٩٢ ج ٢٠
(٣) الاغاني ٢٠٣ ج ٦ (٤) المسعودي ١٩٧ ج ١

فيها منفرداً · وكان عمر يخرج في الاسواق ماشياً ويسوءه ان يركب عماله وامراؤه ركوب الفرس والروم · وفد الى الشام اربع مرات جاءها في المرة الاولى على فرس وفي الثانية على بعير وفي الثالثة على بغل وفي الرابعة على حمار وبعث في احدى خطراته الى امرائه ان يوافوه في الجابية فكان اول من لقيه يزيد بن ابي سفيان وابو عبيدة ثم خالد على الخيول عليهم الديباج والحرير فنزل واخذ الحجارة ورماهم بها [1] فقس على ذلك سائر الراشدين

مواكب الخلفاء في ابان التمدن

على ان اتخاذ الآلة والاعوان في المواكب انما بدأ به العمال في الامصار لقربهم من حضارة الفرس والروم فاتخذوا الطبول والاعلام والحرس وغيرها من شارات الدولة · واسبقهم الى ذلك معاوية فاقام حراساً يرفعون الحراب بين يديه او يقفون بالسيوف عند المقصورة التي يصلي فيها خوفاً من الاغتيال [2] واقتدى به عماله وبعضهم سبقه الى مثله فاتخذ زياد ابن ابيه رجالاً يمشون بين يديه بالاعمدة [3] او بالحربة · واصبح ذلك قاعدة في المسير بين يدي الخليفة ثم صار المسير بالحربة خاصاً بولي العهد او بكبار العمال يحملها رجل راكب على جواد يتقدم الخليفة او الامير فجرى على ذلك الخلفاء العباسيون [4]

وفي ايام المتوكل جاء بعضهم بحربة كانت للنبي تسمى العنزة واصلها للنجاشي فاهداها للزبير ابن العوام فاهداها الزبير الى النبي وكانت تركز بين يديه في العيدين ثم اتصلت بذلك الرجل فحملها الى المتوكل فكان صاحب الشرطة يحملها بين يديه [5] اذا خرج في موكبه

وتدرجوا في الابهة بتدرجهم في اسباب المدنية واتساع السلطة حتى اصطنعوا المحامل او القباب او المحفات يحملون بها بدل الركوب على الخيل ثم صاروا يركبون والناس يمشون بين ايديهم · واقدم من فعل ذلك الاشعث بن قيس سيد اهل اليمن فكان يركب والناس يمشون بين يديه [6] ثم صاروا يمشون بين يدى الخلفاء بالسلاح واول من فعل ذلك الهادي العباسي فكان اذا ركب مشت الرجال بين يديه بالسيوف المرهفة والاعمدة المشهورة والقسي الموتورة [7] فلما خلفه الرشيد تجاوزه فاتخذ خدماً صغاراً يسمونهم النمل يتقدمونه وبايديهم قسي

(١) ابن الاثير ٢٤٦ ج ٢ والعقد الفريد ٢٣٦ ج ٢

(٢) الفخري ٩٧ (٣) لطائف المعارف ١٢ والعقد الفريد ٤ ج ٣

(٤) البيان والتبيين ١٥ ج ٢ وابن الاثير ٣٩ ج ٦ والمقريزي ٣٠٧ ج ١

(٥) ابن الاثير ٣٢ ج ٧

(٦) لطائف المعارف ١٢ (٧) المسعودي ٣٦٥ ج ٢

البندق يرمون بها من يعارضه من الناس [1] ثم صار ذلك سنة جرى عليها الوزراء والامراء واول وزير مشى ارباب الدولة بين يديه رجالة الحسن بن علي وزير المسترشد [2] وهم الى ذلك الحين يركبون بالحلية الخفيفة الفضية والسروج المكسوة بالديباج ثم ركبوا في حلية الذهب واول من ركب بها المعتز العباسي المتوفى سنة ٢٥٥ هـ فجرى الناس على ذلك

اما في مصر فالخلفاء الفاطميون قلدوا العباسيين في مواكبهم على جاري العادة في سائر اسباب المدنية وزادوا عليهم الركوب بالمظلة والشمسية ولعلهم نقلوا هذه العادة من المغرب لانها كانت جارية هناك قبل الاسلام فكان الناس يظللون حكامهم بريش الطواويس [3] فاتخذها الفاطميون من الديباج او الخز المحلي بالذهب والمرصع بالجوهر وحولها الاعلام تختلف ألوانها باختلاف الاحوال

وكان السلاجقة يركبون بالطبل والبوق والعلم وبالجتر على رؤوسهم وهو كالقبة الصغيرة مرتفعة في الهواء على رمح يحمله من يسير قريب الملك بحيث يظلله من الشمس ويتخذونه من الديباج او الحرير المذهب [4]

على ان تلك المواكب تختلف فخامة وشكلاً باختلاف المقصود منها وباختلاف الدول اهمها موكب الخروج الى الحج او الى بلد آخر . ومواكب الاعياد وهي تمتاز بمن يقف للخليفة في خروجه من صفوف الجند . واول من صفت له الجنود يزيد بن الوليد الاموي فكان يخرج يوم العيد بين صفين عليهم السلاح [5]

وللخلفاء مواكب كثيرة لو اردنا الاتيان عليها كلها لضاق المقام ولكننا نقول بالاجمال انهم كانوا يخرجون على الخيول او في القباب وحولهم الاعوان ركوباً والشرطة مشاة وكذلك الغلمان على اختلاف طبقاتهم يلبسون مناطق الذهب او يحملون المقارع او الطبرزينات المحلاة بالذهب ويقف الناس او الجند في الطريق صفين يسير الموكب بينهما ويختلف طول هذا الموقف باختلاف ما يريدونه من اظهار الابهة . وقد بلغ طوله في خروج المتوكل على الله اربعة اميال ترجل فيها الناس بين يديه [6] واذا كان المسير الى مكان بعيد ضربوا القباب العظيمة في الطريق [7] يستظل الخليفة بها او يقيم فيها

(١) الاغاني ٩٤ ج ٢٠ (٢) الفخري ٢٧٢
(٣) الاغاني ٥٩ ج ٦ (٤) ترتيب الدول ١٠٣ (٥) ابن الاثير ١٤٧ ج ٥
(٦) ابن الاثير ٣٦ ج ٧ والاغاني ٣٢ ج ٩ وابن خلكان ٣٨٠ ج ٢
(٧) فوات الوفيات ٤ ج ١

وكان الخلفاء الفاطميون يركبون يوم الجمعة الى الجامع الازهر بالمظلة المذهبة وبين ايديهم نحو ٥,٠٠٠ ماشٍ وعلى الخليفة الطيلسان والسيف وبيده قضيب الخلافة حتى يأتي الجامع ويصلي ولهم رسوم كثيرة يجرونها قبل الصلاة • واذا خرجوا للمبايعة او الاحتفال لفتح الخليج ركب الخليفة وعليه العمامة الجوهر [1] وثوب يقال له البدنة كله ذهب وحرير مرقوم والمظلة من شكله وبين يدي الخليفة الجنائب عليها السروج الذهب المرصع بالجوهر والسروج العنبر والقباب الديباج بالحلى والعسكر على ازيائه من الاتراك والديلم والعزيزية والاخشيدية والكافورية بالديباج الثقيل والمناطق المذهبة وبين يديه الفيلة عليها الرجالة بالسلاح والزراقة وفوق الخليفة المظلة الثقيلة بالجوهر وبيده قضيب الخلافة ويمشي امامهُ اصحاب الابواق الذهب فابواق الفضة فالنحاس واصحاب الطبول الكبار التي مكان خشبها فضة والالوية تخفق فوق ذلك الموكب

## ٦ — احتفالاتهم

### الاحتفالات الدينية

والاحتفالات في التمدن الاسلامي بعضها دينيٌّ كالموالد والاعياد والكسوة وبعضها وطني كالنيروز والمهرجان وشم النسيم وفتح الخليج • على ان الاحتفالات الدينية انما اتخذوا اسلوب الاحتفال بها من غير المسلمين كما اتخذ النصارى بعض طقوس الاحتفال باعيادهم من الوثنيين • ولا يزال الاحتفال بالاعياد الاسلامية شائعاً الى الآن مع تغيير اقتضاه الفرق بين التمدنين • واكثر الدول الاسلامية عناية بهذه الاعياد الفاطميون منها : يوم عاشوراء والمولد النبوي وموالد علي وفاطمة والحسن والحسين والخليفة الحاضر وليلة اول رجب وعيد النحر وعيد الفطر وفتح الخليج ويوم النيروز وغيرها مما فصله المقريزي في خططه [2] ولهم في كل من هذه الاعياد رسوم وقواعد يبذلون فيها الاموال ويفرقون الصدقات ويهدون الهدايا من النقود والثياب والحلي وغيرها مما يطول شرحه

وممن اشتهرت عنايتهُ بالاحتفالات الدينية مظفر الدين صاحب اربل وكان احتفاله بالمولد النبوي بالغاً حد النهاية بالابهة والمشهور انه اول من احتفل به على الصورة المعروفة اليوم [3] وكذلك السلطان ابو حمو موسى صاحب تلمسان [4] — غير احتفالاتهم الاجتماعية

---

(١) المقريزي ٢٨٠ و ٢٨٥ ج ٢ (٢) المقريزي ٤٩٠ ج ١
(٣) ابن خلكان ٤٣٦ ج ١ (٤) نفح الطيب ٦٠٤ ج ٤

كالاعراس والمـآتم والختان ونحوها • والسياسية كاستقبال الوفود والمبايعة والتتويج والخلع فنذكر امثلة منها في ما يلي

احتفالات الاعراس ونحوها

فالاحتفال بالاعراس تقلب على احوال شتى ترجع الى نحو المشهور من الاحتفال باعراس المسلمين في مصر الآن مع اعتبار عوائد البلاد وتفاوت الثروة • ونأتي بمثال من ابلغ ما يعرف من التناهي بالبذخ في مثل هذه الحال فنذكر احتفالين اشتهرا في تاريخ الاسلام :

الاول زفاف خديجة بنت الحسن بن سهل المسماة بوران الى الخليفة المأمون احتفلوا به في فم الصلح احتفالاً لم يسبق له مثيل نثر الحسن فيه على الهاشميين والقواد والكتاب والوجوه بنادق المسك فيها رقاع باسماء ضياع واسماء جوارٍ وصفات دواب وغير ذلك • فكانت البندقة اذا وقعت في يد الرجل فتحها فيقرأ ما في الرقعة فاذا علم ما فيها مضى الى الوكيل المرصد لذلك فيدفعها اليه ويتسلم ما فيها سواءٌ كان ضيعة او ملكاً آخر او فرساً او جارية او مملوكاً • ثم نثر على سائر طبقات الناس الدنانير والدراهم ونوافج المسك وبيض العنبر غير ما انفقهُ على المأمون وقواده واصحابه وسائر من كان معه من اجناده واتباعه وكانوا خلقاً لا يحصى حتى على الحمالين والمكارية والملاحين وكل من ضمه عسكره • ذكروا انه خدم في ذلك الاحتفال ٣٦,٠٠٠ ملاح ونفد الحطب يوماً فاوقدوا تحت القدور الخيش مغموساً في الزيت • ولما كانت ليلة البناء وجليت بوران على المأمون فرش لها حصير من الذهب وجيءَ بمكتل مرصع بالجواهر فيه درر كبار نثرت على النساء وفيهنّ زبيدة وحمدونة بنت الرشيد فما مست احداهن من الدر شيئاً • فقال المأمون شرّفن ابا محمد واكرمنهُ فمدّت كل واحدة منهنّ يدها فاخذت درّة فبقي سائر الدر يلوح على ذلك الحصير الذهب ويتلألأ فقال المأمون : قاتل الله الحسن بن هانيء كانه قد رأى هذا حيث يقول :

كأن صغرى وكبرى من فواقعها   حصباء درٍّ على ارض من الذهب

وكانت في المجلس شمعة عنبر فيها مائة رطل فضج المأمون من دخانها فعملت له مثلُ من الشمع فكان الليل مدة مقامه فيه كالنهار • وبلغت نفقة هذا الاحتفال ٥٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم وامر المأمون للحسن بن سهل عند منصرفه بمبلغ ١٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم واقطعهُ فم الصلح فجلس الحسن وفرق المال على قواده واصحابه وحشمه واطلق له خراج فارس وكور الاهواز مدة سنة • وجاء المأمون الى عروسه في الليلة التالية فنثرت عليه

جدتها الف درة كانت في صينية ذهب [١] وغير ذلك مما يفوق طور التصديق

والاحتفال الثاني احتفله المتوكل على الله حين ظهر ابنه المعتز بالموضع المعروف ببركوازا ومما جرى فيه انه جلس بعد فراغ القواد والاكابر من الاكل ومدت بين يديه مرافيع ذهب مرصعة بالجوهر وعليها امثلة من العنبر والندّ والمسك المعجون على جميع الصور وجملت بساطاً ممدوداً واحضر القواد والجلساء واصحاب المراتب فوضعت بين ايديهم صواني الذهب مرصعة باصناف الجواهر من الجانبين وبين السماطين فرجة . وجاء الفراشون بزنابيل قد غشيت بالادم مملوءة دراهم ودنانير نصفين فصبت في الفرجة حتى ارتفعت على الصواني وأُمر الحاضرون ان يشربوا وان يتنقل كل من شرب من تلك الدنانير بثلاث حفنات ماحملت يده وكلما خف موضع صبّ عليه من الزنابيل حتى يرد الى حالته . ووقف غلمان في آخر المجلس فصاحوا ان « امير المؤمنين يقول لكم ليأخذ من شاء ما شاء » فمدّ الناس ايدهم الى المال فاخذوه وكان الرجل يثقله ما معه فيخرج به فيسلمه الى غلمانه ويرجع الى مكانه . ولما تقوض المجلس خلع على الناس الف خلعة وحملوا على الف مركب بالذهب والفضة واعتق الف نسمة [٢]

وقس على ذلك احتفال الخليفة المقتدي بالله سنة ٤٨٠ هـ لما زفت اليه بنت السلطان ملكشاه وحمل جهازها الى دار الخلافة [٣] واما الاحتفال بتتويج السلاطين والبيعة فقد ذكرنا امثلة منهُ في الجزء الاول من هذا الكتاب صفحة ٩١ و١١٧

الخلع على الوزراء

ومن مظاهر الابهة احتفالهم بالخلع على الوزراء والسلاطين واول من خُلع عليهِ جعفر البرمكي في اليوم الذي تولى الرشد الخلافة فيهِ وكان في جملة ماخلعهُ عليهِ ١٠٠ بدرة دراهم ودنانير وامر الناس فركبوا اليه حتى سلموا عليه واعطاه خاتم الملك ليختم بهِ على ما يريد [٤] وحذا حذو الرشيد من جاء بعدهُ فخلعوا على وزرائهم وعمالهم خلعاً تختلف شكلاً وقدراً باختلاف الاحوال ومعها في كل حال ثوبٌ يرسلهُ الخالع و يلبسهُ المخلوع عليهِ يقال لها الخلعة . فالخليفة العاضد الفاطمي لما ولى السلطان صلاح الدين الايوبي الوزارة بمصر لقبهُ الملك الناصر وخلع عليهِ خلعة مؤلفة من عمامة بيضاء تنيسي بطرف ذهب وثوب ديبقي بطراز ذهب وجبة بطراز ذهب وطيلسان مطرز ذهب وعقد جوهر بعشرة آلاف

(١) لطائف المعارف ٧٣ وابن خلكان ٩٣ ج ١ (٢) لطائف المعارف ٧٤

(٣) ابن الاثير ٦٥ ج ١٠ (٤) المقريزي ٩٩ ج ٢

دينار وسيف محلى بخمسة آلاف دينار وحجرة بثمانية آلاف دينار عليها سرج ذهب وسرسار ذهب مجوهر وفي رأسها مائتا حبة جوهر وفي قوائمها اربعة عقود جوهر وفي رأسها قصبة بذهب وفيها شدة بياض باعلام بيض . ومع الخلعة عدة بقج وخيل وأشياء أخر ومنشور الوزارة مكتوب في ثوب أطلس أبيض (١)

ولما نقلت الخلافة العباسية الى مصر خلع الخليفة العباسي على السلطان الملك الظاهر يومئذ خلعة البسه اياها باحتفال هي عبارة عن جبة سوداء وعمامة سوداء وطوق في عنقه من ذهب وقيد في رجله من ذهب (٢) . وقس على ذلك

استقبال الوفود

اما استقبال الوفود فقد كان فخماً يظهرون به عز الاسلام ولا سيما اذا كان القادمون من وفود الدول غير الاسلامية من الروم او الهند او الافرنج . والاحتفال بذلك يختلف باختلاف الاحوال نذكر من امثلته احتفال المقتدر العباسي برسل جاؤوه من ملك الروم سنة ٣٠٥ هـ فانه استقبلهم في دار الشجرة التي تقدم ذكرها وعبى لهم الجيوش وصفت الدار بالاسلحة وانواع الزينة وكانت جملة العساكر المصفوفة حينئذ ١٦٠,٠٠٠ رجل بين راكب وواقف . ووقف الغلمان الحجرية بالزينة والمناطق المحلاة وكانوا اثنين وعشرين الفاً . ووقف الخدم والخصيان كذلك وعددهم سبعة آلاف منهم ٤,٠٠٠ خادم ابيض و ٣,٠٠٠ خادم اسود . ووقف الحجاب وكانوا سبعمائة حاجب وزينت المراكب والزوارق في دجلة أعظم زينة . وزينت دار الخلافة وكانت جملة الستور المعلقة عليها ٣٨,٠٠٠ ستر منها ديباج مذهب ١٢,٥٠٠ ستر وكانت جملة البسط ٢٢,٠٠٠ بساط . واستعرضوا مائة سبع مع مائة سباع . وكان في جملة الزينة الشجرة الذهب والفضة التي تشتمل على ثمانية عشر غصناً من الذهب والفضة فكانت أغصانها تتمايل بحركات موضوعة وعلى الاغصان طيور وعصافير مختلفة من الذهب والفضة تصفر بحركات مرتبة كما وصفناها في محلها . فشاهد الرسل من العظمة ما يطول شرحه (٣)

---

(١) السيوطي ٢٥ ج ٢ (٢) السيوطي ٥٨ ج ٢

(٣) ابو الفداء ٧٣ ج ٢ وابن الساعي ٧٥

## ٧ - الخلفاء والدول المعاصرة

هب العرب للفتح والعالم قد تضعضع واهله في خمول فبغتوهم وفتحوا بلادهم في بضع عشرة سنة على اسلوب لم يسبق له مثيل . فلما افاقوا ارادوا ردهم فعجزوا عنه . وما لبثوا ان شاهدوا تمدنهم وعمران مملكتهم واشتغالهم بالعلوم والفنون والصناعة والتجارة والرحلة والسياحة فهابوهم واخذوا يتقربون اليهم بالوفود والهدايا الى المدينة فدمشق ثم اصبحت بغداد مجتمع الوفود القادمين من اطراف العالم من الهند والصين شرقًا الى اعالي اسيا واواسط اوربا شمالاً الى اقصى افريقيا غربًا والبحر الهندي جنوبًا . وصارت البصرة بؤرة التجارة البحرية في الشرق وملتقى السفن القادمة من اقاصي البحور

### الاسلام في تاريخ الصين

المشهور ان الاسلام لم يذكر ظهوره وانتشاره غير اصحابه ولم يدوّن اخباره غير اهله حتى الروم مع ما كان من مدنيتهم يومئذ لم يكتب المعاصرون منهم شيئًا عن الاسلام او المسلمين . ولكن الباحثين عثروا في الكتب الصينية على خبر الاسلام وانتشاره الى استقلال معاوية بالخلافة لنفسه فقيام ابي مسلم الخراساني ونقله الدولة الى العباسيين وغير ذلك . فقرأوا اسماء محمد وقريش ومعاوية وابي العباس وابي جعفر وغيرهما من رجال الاسلام مكتوبة بالاحرف الصينية . ومما جاء هناك ان اباجعفر ارسل سنة ٧٥٦م وفدًا الى امبراطور الصين التقى عنده بوفد قادم من « هوي هو » من مغول الشمال فاختصم الوفدان في من يتقدم بالدخول على الامبراطور فانصف الحاجب بينهما وادخل كل وفد من باب — ذكروا ذلك بكتاب طنغ شو الفصل العاشر في اثناء سيرة الامبراطور سوتسونغ — قالوا ثم تولى المهدي وخلفه هرون الرشيد وفي ايامه ( سنة ٧٨٥ م — ٨٠٤ ) جرّد العرب اصحاب الجبة السوداء على توفان ( تيبت ) ثم صار اهل توفان يتجندون لقتالهم كل سنة . وفي ( ٧٩٨ م ) جاء ثلاثة سفراء من العرب الى بلاط الامبراطور الخ » (١)

ووقفوا في تاريخ الصين ايضًا على نصوص تشير الى ما كان من العلائق التجارية بين الصينيين والعرب من اواسط القرن العاشر للميلاد او الثالث للهجرة فذكروا سفنًا تجارية عربية كانت ترسو على شواطئ الصين يحملون فيها الزجاج والسكر وغيرها . وان تجار العرب وربان سفنهم كثيرًا ما كانوا يفدون على البلاط ويدخلون على الامبراطور فيخاطبهم

(١) E. Bretschneider, The knowledge Possessed by The Ancient Chinese of the Arabs & Arabian colonies. 7

و يسألهم عن بلادهم وملكهم وسائراحوالهم · ووقفوا على نصوص أخرتدل على علائق مثل هذه بين الصين وغير العرب من دول الاسلام مما يطول بيانه · ومع اختصار هذه الاخبار وتشوش حوادثها وفساد تهجئة الاعلام فيها فهي عظيمة الاهمية لانها منقولة عن مصدر صيني مستقل

اما العرب فقد ذكر مؤرخوهم واهل الرحلة منهم كثيرًا من اخبار نزولهم شواطىء الصين والهند ودخولهم على ملوكها ومخاطبتهم في بعض الشؤون التجارية · ولكن اكثرنا كانوا لايكترثون بتلك الروايات لاعتقادهم انها محشوة بالمبالغات والخرافات كأنهم قاسوها بما يقرأونه من الاقاصيص الخرافية في الف ليلة وليلة مثل قصة السندباد البحري والفرس المسحور وغيرها · على ان هذه الاقاصيص منقولة بالاصل عن غير العربية واكثر خرافات العرب دخيلة في آدابهم — واما ما يكتبونه من عند انفسهم فالغالب فيه التحقيق والصدق ولا سيما كتب ونحوها اذا نظرنا فيها نظر الناقد المنصف واعتبرنا الفرق بين عصرهم وعصرنا

على اننا لا نلوم المنكرين لانهم انما عرفوا العرب بعد ذهاب دولتهم وانحلال عصبيتهم وانحطاط هممهم وضعف عزائمهم فاكبروا ان يكون لهم مثل تلك الهمم الشماء في عهد ذلك التمدن فكذبوا ما قرأوه في كتبهم من هذا القبيل · اما وقد رأينا مايؤيده في كتب اهل الصين على غير تواطوءٍ او نقلٍ فلم يبق لنا بدٌّ من تصديقه

واقدم ما وصل الينا من الكتب العربية التي ذكرت تجارة العرب مع الصين والهند ونزول تجار العرب شواطيء تلك البلاد كتاب « سلسلة التواريخ » وهو يشتمل على السياحات البحرية التي اجرتها العرب والعجم من شواطيء خليج فارس الى بلاد الهند والصين تأليف سليمان التاجر وابي زيد حسن من ابناء القرن الثالث للهجرة · وقد طبع هذا الكتاب بباريس سنة ١٨١١ ومعه ترجمة فرنساوية للمستشرق الشهير رينو · ثم مروج الذهب للمسعودي وهو مشهور ومتداول غير امهات كتب الجغرافية العربية وكلها مبني على رحلات حقيقية اشهرها ما كتبه البلخي والاصطخري وابن حوقل والمقدسي وغيرهم وليس هنا مكان الافاضة في ذلك

و يقال بالاجمال ان في كتب التاريخ نصوصًا كثيرة تدلُّ على علائق تجارية وسياسية بين العباسيين وملوك المشرق في الهند والصين وان المهاداة كانت متواصلة بينهما · فكانت وفود ملوك الهند تؤم بغداد من اواخر القرن الثاني للهجرة تحمل الهدايا او كتب المخابرة (١) ولا بدَّ ايضًا من وفود كانت تأتي بغداد من صاحب الصين

(١) العقد الفريد ١٤٩ ج ١ والمسعودي ٢٤٨ ج ٢ وترتيب الدول ٩٦

الاسلام وملوك أوربا

على ان علائق ملوك المسلمين مع ملوك اوربا واعظمهم يومئذ الروم والجرمان والافرنج والاسبان كانت اوثق من سواها . اما الروم وهم ملوك القسطنطينية فكانت المخابرات متواصلة بينهم وبين المسلمين من ايام بني امية اما لصلح او مهادنة او مهاداة[1] او مفاداة . والحرب كانت سجالاً بينهما على الحدود او في البحار . وقد حاصر الامويون القسطنطينية غير مرة ولم يفتحوها ولكنهم فتحوا بلاداً أُخرى من أوروبا وأوقعوا الرعب في دول الافرنج . وكذلك بنو العباس[1] فان الرشيد اخذ الجزية من ايريني صاحبة القسطنطينية

واما حوادث المهاداة فهدية الرشيد الى شارلمان ملك فرنسا اشهر من ان تذكر . على ان هدايا ملوك الروم الى دار الخلافة كانت متواصلة واكثرها من السيوف والثياب والاطياب والذهب والكلاب . منها هدية بعث بها قيصر الروم ( ربما ميخائيل الثاني ) الى المأمون وفيها تحف سنية من جملتها مائة رطل مسك ومائة حلة سمور[2]

واهدت تريا بنت الاوباري (كذا) ملكة الافرنج الى المكتفي بالله سنة ٢٩٣هـ خمسين سيفاً و ٥٠ رمحاً و ٢٠ ثوباً منسوجاً بالذهب و ٢٠ خادماً صقلبياً و ٢٠ جارية و ١٠ كلاب كبار لا تغلبها السباع وستة بازات وسبعة صقور ومضرب حرير ملون كقوس القزح وغيرها[4]

وكان الخلفاء ايضاً يوجهون وفوداً من عندهم في مراسلة او مخابرة وممن سار في ذلك القاضي الاشعري المعروف بابن الباقلاني انفذه عضد الدولة سنة ٣٧١ هـ الى قيصر الروم ( باسيل الثاني ) في جواب رسالة فاظهر في بلاط القيصر انفة زادت مقام المسلمين عندهم[5]

الاندلسيون وملوك الافرنج

على ان العلائق كانت اكثر وثوقاً بين ملوك اوربا وملوك الاسلام في الاندلس لان قياصرة القسطنطينية كانوا يتقربون من الخلفاء الامويين في قرطبة ليستنصروهم على العباسيين اعداء الجانبين . حتى ان ثيوفيلوس ملك الروم المعاصر لعبد الرحمن الأوسط هاداه سنة ٢٢٥ هـ وكتب اليهِ يرغبهُ في ملك المشرق من اجل ما ضيق عليهِ بهِ المأمون والمعتصم وقد ذكرهما في كتابهِ لهُ وعبر عنهما بابن مراجل وابن ماردة تحقيراً لهما بالانتساب الى امهات من الجواري . فكافأه عبد الرحمن عن الهدية وبعث اليه يحيى الغزال شاعره واحد كبار

(١) المبرد ٢٩٦ و ٣٢٤ (٢) ابن الاثير ٧٤ ج ٦

(٣) فوات الوفيات ٢٤٠ ج ١ (٤) المستطرف ٤٦ ج ٢ (٥) ابن الاثير ٦ ج ٩

دولته فاحكم الصلة بينهما [١] فلما ظهر الخليفة الناصر عبد الرحمن الثالث وأوطأ عساكر المسلمين من بلاد الافرنج مالم يطأهُ احد من اسلافه تقدم اليه ملوكهم بالطاعة وتقربوا بالهدايا فاوفدوا رسلهم وهداياهم من رومية والقسطنطينية وغيرهما على سبيل المهادنة والسلم والاعتمال بما يعنّ في مرضاته ووصل الى بابه الملوك من الاسبان المتاخمين لبلاده بجهات قشتالة وبنبلونة وما ينسب اليها من الثغور الجوفية فقبلوا يده والتمسوا رضاه واحتقبوا جوائزهُ وامتطوا مراكبه [٢]

وتوالت الهدايا على عبد الرحمن الناصر من سائر ملوك الاسبان . فملكا برشلونة وطركونة هادياهُ يلتمسان تجديد الصلح [٣] وملك الصقالبة وهو يومئذ « ذوفوة » ( كذا ) اوفد اليهِ رسولاً مع رسل آخرين من ملك الالمان ( ربما اوتو الاعظم ) وملك الفرنجة وراء الرون وهو يومئذ « اوفه ؟ » ورسول آخر من ملك الفرنجة بقاصية المشرق واسمهُ « كلدة » ( ربما كونراد ) واحتفل الناصر لقدومهم احتفالاً شائقاً . ولما رجعوا بعث مع رسول الصقالبة ربيعاً الاسقف الى ملكهم . و بالجملة ان الخليفة الناصر كان سلطانهُ ضخماً عزيزاً لم يبق ملك من ملوك اوربا الاَّ خطب مودَّته وفي جملتهم قياصرة الروم وملوك الافرنج والاسبان والجرمان . وفي نفح الطيب للمقري تفصيل ما كان يجريه من الاحتفال في استقبالهم [٤] تعظيماً لدولة المسلمين . ولما اراد بناء « الزهراء » اهداه أُولئك الملوك من اصناف الحجارة والرخام على اختلاف الوانه واشكالهِ شيئاً كثيراً [٥] وقد ذكرنا ذلك في كلامنا عن بناء هذا القصر الفخيم

وقس على ما تقدم علائق ملوك اوربا بسائر خلفاء المسلمين وملوكهم فكانت هدايا قيصر القسطنطينية ترد على صاحب مصر ولا سيما في زمن الفاطميين بعد ان ضخمت دولتهم منها هدية بعث بها الامبراطور قسطنطين التاسع الى المستنصر بالله الفاطمي سنة ٤٣٧ هـ اشتملت قيمتها على ثلاثين قنطاراً من الذهب الاحمر كل قنطار في عشرة آلاف دينار الجملة ٣٠٠,٠٠٠ دينار [٦] وكان رسول الروم اذا قدم القاهرة في ذلك العهد نزل عند باب الفتوح ولا يزال يقبل الارض وهو ماش حتى يصل القصر الكبير مقر الخليفة [٧]

---

(١) نفح الطيب ١٦٣ ج ١ (٢) نفح الطيب ١٦٧ ج ١

(٣) نفح الطيب ١٨١ ج ١ (٤) نفح الطيب ١٧٢ ج ١

(٥) نفح الطيب ٢٧٠ ج ١ (٦) المستطرف ٤٦ ج ٢

(٧) المقريزي ١٠٧ ج ٢

## ٨ – العاب الخلفاء وملاهيهم

ما برح الملوك من قديم الزمان يلهون في ساعات الفراغ بالعاب يروضون بها عقولهم وابدانهم . ولكل امة العاب تلائم عاداتها وتشاكل اخلاق اهلها ولكن الملوك يتشابهون في اكثرها لتشابه مرادهم منها . والعاب الخلفاء كثيرة بعضها كان معروفاً في الجاهلية كالصيد والسباق و بعضها اقتبسوه من الاعاجم كاللعب بالكرة والصولجان والرمي بالبندق واللعب بالنرد والشطرنج ونحوها . واسبق الدول الى الاحتفاء بهذه الالعاب العباسيون في ايام الرشيد فانه اول من لعب بالصولجان والكرة واول من رمى بالنشاب في البرجاس واول من لعب بالشطرنج والنرد وقرّب اللعّاب واجرى عليهم الارزاق[١] واليك وصف اهم العابهم في ابان تمدنهم

١ – الصيد والقنص

كان الصيد معروفاً في الجاهلية ولكنه كان قاصراً على صيد غزال او طائر بالنبل او الفخ فلما تمدن العرب بعدالاسلام وخالطوا الفرس والروم توسعوا في طرائق الصيد والقنص فاتخذوا الجوارح من الطير وهي الباز والشاهين والعقاب والصقر يعلمونها صيد الطيور وغالوا في اقتناء الكلاب والفهود ونحوها يستعينون بها على صيد الخنازير والغزلان وحمر الوحش . واول من اشتغل بالصيد من الخلفاء يزيد بن معاوية وكان صاحب طرب وجوارح وقرود وفهود وله كلف بالصيد فاتخذه للهو وليس للرياضة . وكان يلبس كلابه الاساور من الذهب والأجلة المنسوجة بالذهب ويهب لكل كلب عبداً يخدمه[٢] . واشتغل بالصيد غيره من خلفاء بني امية على تفاوت في ذلك

حتى اذا افضى الامر الى بني العباس و رسخت اقدامهم في الدولة اهتموا بالصيد وتفننوا في تربية الجوارح والكلاب والفهود وغالوا في انتقائها و بذلوا الاموال في اقتنائها وتربيتها واقاموا عليها اناساً ينظرون في شؤونها وفيهم البيازرة والحجالون والفهادون واصحاب الصقور والكلاب واطلقوا لهم الارزاق الجليلة واقطعوهم الاقطاعات السنية وسهلوا عليهم حجابهم . وتسابق الشعراء الى وصف تلك الجوارح وحركاتها وسرعتها وخصالها[٣] وكتبوا

(١) المسعودي ٣٦٥ ج ٢ (٢) الفخري ٤٩

(٣) ترتيب الدول ١٣٦ وديوان ابي نواس والاغاني ١١٦ ج ٩

في فنون الصيد واساليبه كتباً عديدة ككتاب البزاة والصيد وكتاب المصائد والمطارد [1]

وكان العباسيون يصيدون السباع والخنازير فضلاً عن الغزلان والطيور وحمر الوحش ونحوها . واول من احب الصيد منهم المهدي فالرشيد وكان ابنه صالح يحب صيد الخنازير [2] وابنه الامين يهوى صيد السباع يصطادها له جماعه يعرفون باصحاب اللبابيد [3] وكان المعتصم الهجهم به فبنى في ارض دجيل قرب بغداد حائطاً طوله فراسخ كثيرة يحدّون الصيد عنده وذلك ان يطارد رجاله تلك الحيوانات من الجهة المقابلة للحائط فتفرّ نحوه فيضربون حولها حلقة ولا يزالون يطاردونها بخيولهم وكلابهم وفهودهم وهي تثب بين الاعشاب والادغال حتى يضايقوها ويحصروها بين الحائط ودجلة فلا يبقى لها مجال للنجاة فيقبل المعتصم واولاده واقاربه وخواص حاشيته ويتأنقون في القتل والصيد ويتفرجون فيقتلون ما يقتلون ويطلقون الباقي [4]

وقس على ذلك سائر الخلفاء من بني العباس والفاطميين والمروانيين وغيرهم من ملوك المسلمين السلاجقة والاتابكة والايوبية والمماليك . فقد عدّوا ما اصطاده السلطان ملك شاه السلجوقي من الحيوانات فبلغ عشرة آلاف راس حتى بنى من حوافر الحمر الوحشية وقرون الظباء التي صادها منارة [5] وكان السلطان مسعود السلجوقي يبالغ في ترفيه الكلاب حتى البسها الجلال الاطلس الموشاة وسوّرها بالاساور الذهب . واصطنع السلطان ابو عبد الله المستنصر في المغرب مصيداً بناحية بنزرت في بقعة ببسيط من الارض واحاطها بسياج خرج نطاقه عن التحديد بحيث لا يراع فيه حمر الوحش فاذا ركب للصيد تخطى السياج في اصحابه ومواليه وفعل فعل المعتصم بحصر الصيد عند ذلك السياج [6] وفي كتاب الاعتبار لابن منقذ فصول طويلة في الصيد وطرقه [7]

٢ — الحلبة او السباق

لم تبق امة من الامم القديمة او الحديثة الا لهجت بالسباق ولا سيما اليونان والرومان والفرس . وكان العرب في الجاهلية يتسابقون بخيولهم ويتفاخرون بذلك . وكثيراً ما انتشبت الحرب بين القبائل من اجل السباق . وكانوا يرسلون خيلهم الى الحلبة وهي

---

(١) ابن خلكان ٢٣٥ ج ٢ و ٤٢٣ ج ١ (٢) الاغاني ٩٧ ج ٩

(٣) المسعودي ٢١٣ ج ٢ (٤) الفخري ٤٧

(٥) ابن خلكان ١٢٤ ج ٢ (٦) ابن خلدون ٢٨١ ج ٦

(٧) كتاب الاعتبار ١٥٠

ميـدان السباق عشرة عشرة وعندهم لكل منها اسم باعتبار تقدمها في السبق بعضها على بعض (١)

ولما تحضروا بعد الاسلام بالغوا في اتخاذ الميادين واستكثروا من الخيول وتفننوا في تضميرها . وكان لمعاوية حلبة يخرجون اليها في ايام معينة للسباق فمن حاز قصب السبق أجازوهُ — وقصب السبق قصبة يغرسونها في آخر الحلبة فمن سبق اليها واقتلعها فهو الفائز . ومن غريب ما ذكروه ان يزيد بن معاوية كان له قرد يكنى ابا قيس يحضره مجلس منادمته و يطرح له متكأ وكان نبيهًا خبيثًا يحمله على اتان وحشية قد ريضت وذللت لذلك بسرج ولجام وكان يسابق بها الخيل يوم الحلبة . فجـاء ابو قيس في بعض الايام سابقًا وتناول القصبة ودخل الحجرة قبـل الخيل وعليه قباءٌ من الحرير الاحمر والاصفر وعلى رأسـه قلنسوة من الحرير ذات الوان بشقائق وعلى الاتان سرج من الحرير الاحمر المنقوش (٢)

وكان لهشام بن عبد الملك رغبة في الحلبـة يستجيد الخيل للسباق و يبـذل في اقتنائها الاموال فاجتمع عنده ٤٠٠٠ فرس ولم يسبقه احدٌ من العرب الى ذلك . وكان لهُ فرس سابق اسمه « الزائد » اشتهر في ذلك العصر . وكان الوليد بن يزيد مغرى بخيل السباق فجمع منها الف فرس اسبقها فرسٌ اسمـه « السندي » كان يسابق به في ايام هشام وكان يقصر عن فرس هشام « الزائد » وربما ضامه او جاءَ مصليًا . وكان ميدان السباق يومئذٍ في الرصافة ( بالشام ) ولهم فيها ميادين مشهورة وحوادث مذكورة (٣) ولمحمد بن يزيد بن عبـد الملك بن مروان قصيدة عامرة وصف بها خيل الحلبة العشرة باسمائها وصفاتها هي احسن ما نظم في هذا الموضوع (٤)

اما العباسيون فلم يكونوا اقل رغبة في السباق وكانت لهم ميادين كبيرة في الرقّة والشماسية وللرشيد مواقف شهيرة في الحلبة نظم فيها الشعراءُ القصائد في مدح السوابق (٥) وقس على ذلك ما كان من ميادين الحلبة في سائر دول الاسلام ومن اشهرها ميدان ابن طولون وميدان بيبرس بمصر (٦) وميادين الحكم في الاندلس

(١) المسعودي ٣٨٠ ج ٢ (٢) المسعودي ٦٨ ج ٢

(٣) المسعودي ١٢٩ و١٣٥ ج ٢ (٤) المسعودي ٣٨١ ج ٢

(٥) العقد الفريد ٤٧ ج ١ والمسعودي ١٩٩ ج ٢ (٦) المقريزي ١١١ ج ٢

## ٣ ــ الكرة والصولجان

هي لعبة فارسية لم يكن بنو امية يعرفونها واول من لعبها بنو العباس واسبقهم اليها الرشيد. وهي عبارة عن كرة تصنع من مادة خفيفة مرنة كالفلين ونحوه تلقى في ارض الميدان فيتسابق الفرسان الى التقافها بعصا عقفاء يسمونها الصولجان او الجوكان ويرسلون الكرة بها في الهواء وهم على خيولهم وكان المعتصم شديد الرغبة فيها. ومن لطيف ما يحكى انه قسم اصحابه يوماً للعب بها فجعل الافشين في جهة وهو في جهة فقال الافشين « يعفيني امير المؤمنين من هذا » فقال « ولم » قال « لاني ما ارى ان اكون على امير المؤمنين في جد ولا هزل » فاستحسن ذلك منه وجعله في حزبه [1]

## ٤ ــ البندق

البندق كرات تصنع من الطين او الحجارة او الرصاص او غيرها وهي فارسية بلفظها واستعمالها ويسمونها ايضاً الجلاهقات جمع جلاهق. فكان الفرس يرمون هذا البندق عن الاقواس كما يرمون النبال. واقتبس العرب هذه اللعبة في اواخر ايام عثمان بن عفان وعدّوا ظهورها في المدينة منكراً [2] ثم الفوها حتى شكلوا فرقاً من الجند ترمي بها. وقد رأيت ان الرشيد كان عنده فرقة يقال لها النمل تسير بين يديه ترمي البندق على من يقف في طريق الموكب. وكان رماة البندق في العصر العباسي طائفة كبيرة يخرجون الى ضواحي المدن يتسابقون في رميه على الطير ونحوه [3] و يعدّون ذلك من قبيل الفتوة ويغلب في رماة البندق ان يشتغلوا بتطيير الحمام. ولهم زيّ خاص يمتاز بسراويل كانوا يلبسونها و يسمونها سراويل الفتوة وكان العيارون من اهل بغداد يلبسونها في اواخر الدولة. حتى اذا افضت الخلافة الى الناصر لدين الله العباسي المتوفى سنة ٦٢٢ هـ جعل لرمي البندق شأناً لانهُ كان ولعاً بهِ و باللعب بالحمام المناسيب وكان يلبس سراويل الفتوة. وقد بلغ من رغبته في ذلك حتى جعل رمي البندق فنّاً لا يتعاطاه الاّ الذين يشربون كاس الفتوة و يلبسون سراويلها على ان يكون بينهم روابط وثيقة نحو ما عند بعض الجمعيات السرية. وجعل نفسه رئيس هــذه الطائفة يدخل فيها من شاء ويحرم من شاء. وكتب سـنة ٦٠٧ هـ الى ملوك الاطراف الذين يعترفون بخلافته ان يشربوا لهُ كاس الفتوة و يلبسوا سراويلها وان ينتسبوا اليهِ برمي البندق ويجعلوه قدوتهم فيهِ فاجابوه الى ذلك فمن اراد الانتظام في سلك هذه الطائفة يأتي بغداد

---

(١) ترتيب الدول ١٣٠ (٢) ابن الاثير ٩٠ ج ٣

(٣) الاغاني ٩٣ ج ٢٠

فيلبسه الخليفة السراو يل بنفسه .. فبطلت الفتوة في البلاد جميعها الاّ من لبس سراو يلها منه ومنع الرمي بالبندق الاّ من ينتسب اليه . فاجابه الناس في العراق وغيره الاّ انسانًا اسمه ابن السفت من بغداد هرب الى الشام فارسل الخليفة اليه يرغبه ببذل المال ليرمي عنه وينتسب في الرمي اليه فلم يفعل فلامه بعضهم على ذلك فقال « يكفيني فخرًا انه ليس في الدنيا احد لا يرمي للخليفة الاّ انا » (١)

وكان لرمي البندق شأن كبير في العصور الاسلامية الوسطى بالعراق والشام ومصر وفارس وغيرها . وخط البندقانيين بالقاهرة ينسب الى صناعة اقواس البندق (٢) ثم تفننوا في رمي البندق بالمزاريق او الانابيب بضغط الهواء من مؤخر الانبوب بما يشبه انابيب البنادق . فلما اخترعوا البارود صاروا يرمون البندق به من تلك الانابيب وسموا هذه الآلة بندقية نسبة اليه . ومن قبيل رمي البندق رمي النشاب في البرجاس وهو غرض في الهواء او على راس رمح او نحوه يطلبون اصابته بالنشاب وهي لعبة فارسية اول من لعبها من الخلفاء الرشيد

ومما يدخل في الالعاب والملاهي لعبة الشطرنج وهي هندية الاصل اخذها العرب عن طريق الفرس واول من لعبها من الخلفاء الرشيد ايضاً وهو اول من لعب النرد كما تقدم ولا تزالان هاتان اللعبتان شائعتين الى اليوم



## ٩ — ارتباط السباع

وكان من ملاهي الخلفاء والملوك ارتباط الاسود والفيلة والنمور لاثبات الهيبة في قلوب الرعية واول من اهتمّ بذلك بنو العباس فكان المنصور كثير العناية في جمع الفيلة لتعظيم الملوك السالفة اياها وكان للرشيد اقفاص فيها الاسود والنمور وغيرها (٣) وغالى الذين جاؤا بعده باقتنائها واقتناء الكلاب والقردة ونحوها — ذكروا انه كان عند ام جعفر زوج الرشيد قرد يخدمه ثلاثون رجلاً وكانوا يلبسونه لباس الناس و يقلدونه السيف واذا ركب ركبوا في خدمته واذا دخلوا عليه قبلوا يده . فجاء يزيد بن مرثد يوماً الى ام جعفر ليودعها قبل سفره فاتوا اليه بالقرد وامروه ان يقبل يده فشق عليه ذلك وجرد السيف وقطعه نصفين وانصرف فبعث اليه الرشيد وعاتبه فقال « يا امير المؤمنين ابعد ان اخدم الخلفاء

(١) ابن الاثير ٢٠٢ ج ١٢ وابو الفداء ١١٩ و ١٤٢ ج ٣ وابن خلدون ٥٣٥ ج ٣
(٢) المقريزي ٣١ ج ٢ (٣) العقد الفريد ١٥٠ ج ١

اخدم القرود لا والله ابداً » فعفا عنه (١)

وما زال شأن الخلفاء واهلهم على ذلك حتى تولى المهتدي وكان يتشبه بعمر بن عبدالعزيز بالتقوى والزهد فامر بقتل السباع التي كانت في القصور وطرد الكلاب ولكن ذلك المنع لم يدم طويلاً . فلما مات المهتدي عادوا الى المغالاة في اقتناء السباع حتى ارتبطها بعضهم في مجلسه . فقد كان عضد الدولة بن بويه اذا جلس على سريره احضرت الاسود والفيلة والنمور في السلاسل وجعلت في حواشي مجلسه تهويلاً بذلك على الناس وترويعاً لهم (٢)

وقس على ذلك سائر دول المسلمين في مصر والاندلس وغيرهما فقد كان لخمارويه بن احمد بن طولون دار خاصة بالسباع عمل فيها بيوتاً بآزاج كل بيت يسع سبعاً ولبوءته وعلى تلك البيوت ابواب تفتح من اعلاها بحركات ولكل بيت منها طاق صغير يدخل منه الرجل الموكل بخدمة ذلك البيت يفرشه بالرمل . وفي جانب كل بيت حوض من رخام بميزاب من نحاس يصب فيه الماء . وبين يدي هذه البيوت قاعة فسيحة متسعة فيها رمل مفروش بها وفي جانبها حوض كبير من رخام يصب فيه ماء من ميزاب كبير . فاذا اراد سائس سبع من تلك السباع تنظيف بيته او وضع وظيفة اللحم لغذائه رفع الباب بحيلة من اعلى البيت وصاح بالسبع فيخرج الى القاعة المذكورة فيردّ الباب و ينزل الى البيت من الطاق فيكنس الزبل و يبدّل الرمل بغيره مما هو نظيف و يضع الوظيفة من اللحم في مكان معدّ لذلك بعد ما يخلص ما فيه من الغدد و يقطعه له و يغسل الحوض و يملأه ماء ثم يخرج و يرفع الباب من اعلاه وقد عرف السبع ذلك فحال ما يرفع السائس باب البيت يدخل اليه الاسد فيأكل ما هيء له من اللحم حتى يستوفيه و يشرب من الماء كفايته . فكانت هذه البيوت مملوءة من السباع . ولهم اوقات تفتح فيها فتخرج السباع كلها الى القاعة وتتمشى فيها وتمرح وتلعب و يهارش بعضها بعضاً فتقيم يوماً كاملاً الى العشي فيصيح بها السوّاس فيدخل كل سبع الى بيته لا يتخطاه الى غيره

وكان من جملة هذه السباع سبع ازرق العينين يقال له زريق قد أنس بخمارويه وصار مطلقاً في الدار لا يؤذي احداً و يقام له بوظيفته من الغذاء كل يوم . واذا نصبت مائدة خمارويه اقبل زريق معها وربض بين يديه فيرمي اليه الدجاجة بعد الدجاجة والفضلة الصالحة من الجدي ونحو ذلك مما على المائدة فيتفكه به . وكانت له لبوءة لم تستأنس

(١) تاريخ طبرستان لابن اسفنديار ترجمة ادورد برون الى الانكليزية صفحة ٤٥

(٢) الفخري ٢٠

كما انس هو فكانت مقصورة في بيت ولها وقت معروف يجتمع معها فيه . فاذا نام خمارويه جاء زريق ليحرسه فان كان قد نام على سرير ربض بين يدي السرير وجعل يراعيه مادام نائماً وان نام على الارض بقي قريباً منه وتفطن لمن يدخل و يقصد خمارويه لايغفل عن ذلك لحظة واحدة . وكان على ذلك دهره وقد ألفه ودرب عليه وكان في عنقه طوق من ذهب . فلا يقدر احد ان يدنو من خمارويه ما دام نائماً لمراعاة زريق له وحراسته اياه (١)

وتطرف آخرون في اقتناء الحيوانات حتى الهوام والحشرات فالوزير جعفر بن خنزابه احد وزراء المقتدر بالله العباسي كان يهوى النظر الى الحشرات من الافاعي والحيات والعقارب وام اربعة واربعين وما يجرى هـذا المجرى وكان في داره بمصر قاعة لطيفة مرخمة فيها تلك الحيات بالسلال ولها قيم وفراش وحاو يستخدمون برسم نقلها وحطها وكان كل حاو بمصر يصيد ما يقدر عليه من الحيات و يتناهون في ذوات العجب من اجناسها وفي الكبير والغريب منها وهو يثيبهم على ذلك اجل ثواب و يبذل لهم المال الجزيل . وكان له وقت يجلس فيه على دكة فيدخل المستخدمون والحواة فيخرجون ما في تلك السلال و يطرحونه على ذلك الرخام و يحرشون بين الهوام وهو يستعجب من ذلك و يستحسنه (٢)

وكانت لهم عناية في تربية الحيوانات الداجنة ايضاً كالغزلان والقماري واشباههما يجعلونها في حظائر واقفاص مخصوصة عليها قوام يخدمونها (٣)

واجتمع عند العزيز الفاطمي صاحب مصر من غرائب الحيوانات ما لم يجتمع عند غيره وذكروا بينها العنقاء ؟ قالوا « وهو طائر جاءه من صعيد مصر في طول البلاشون واعظم جسماً منه له غبب ولحية وعلى رأسه وقاية وفيه عدة الوان ومشابهة من طيور كثيرة » (٤)

واتخـذ الخليفة الناصر الاموي في مدينة الزهراء محلات للوحوش والسباع واسعة الارجاء متباعدة السياج ومسارح للطيور مظللة بالشباك كالاقفاص الكبيرة (٥)

وهناك العاب أخر تتعلق بالحيوانات كسمكة كانت للامين مقرطة صيدت له وهي صغيرة فقرطها بحلقتين من ذهب فيهما حبتا درّ . وكاعب الحمام وتطييره واللعب بالكباش والديوك للمناطحة والمهارشة وغير ذلك مما لامحل لذكره

( تم الجزء الخامس وهو آخر اجزاء الكتاب والحمد لله )

---

(١) المقريزي ٣١٧ ج ١ (٢) فوات الوفيات ١٠٥ ج ١ (٣) المسعودي ٢٦٠ ج ٢ وابن الاثير ٦٦ ج ٨ (٤) ابن خلكان ٢٦٧ ج ١ (٥) نفح الطيب ٢٧٤ ج ١

# فهرس الجزء الخامس

## اصلاح خطأ

جاء في الجزء الثالث صفحة ١٩٨ سطر ٨ « ابراهيم بن اسحق الموصلي» صوابها « اسحق ابن ابراهيم الموصلي »

وجاء في الجزء الرابع صفحة ٥٤ سطر ٢ « عبد الملك بن مروان » صوابها « عبد الملك ابن صالح » وينبغي حذف العبارة من قولهِ « وكان اشدهم بطشاً » الى « في اجمة »



# جدول اسماء الكتب

وهي المؤلفات التي وردت اسماؤها في هوامش صفحات هذا الكتاب مرتبة على حروف الهجاء مع اسماء مؤلفيها وسني طبعها واماكنه — وهي غير مارجعنا اليه في التحقيق من القواميس والموسوعات العربية والافرنجية ونحوها

| اسم الكتاب | اسم مؤلفه | مكان طبعه وسنته |
|---|---|---|
| الآثار الباقية عن القرون الخالية | للبيروني | ليبسك سنة ١٨٧٨ م |
| الآداب السلطانية (الفخري) | لابن الطقطقي | مصر ١٣١٧ هـ |
| ابجد العلوم ٣ اجزاء | لصديق القنوجي | الهند ١٢٩٦ هـ |
| ابن الاثير | (انظر الكامل) | |
| « الجوزي | (كتاب الاذكياء) | |
| « حوقل | (المسالك والممالك) | |
| « خرداذبه | ( « « ) | |
| « خلدون | (العبر والمبتدا والخبر) | |
| « خلكان | (وفيات الاعيان) | |
| « الساعي | (مختصر اخبار الخلفاء) | |
| « عساكر | (تاريخ دمشق) | |
| « الفقيه | (كتاب البلدان) | |
| « هشام | (السيرة النبوية) | |
| ابو الفرج الملطي | (مختصر الدول) | |
| « المحاسن | (النجوم الزاهرة) | |
| الاتليدي | (اعلام الناس) | |
| احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم | للمقدسي | ليدن ١٨٧٦ م |
| الاحكام السلطانية | للماوردي | مصر ١٢٩٨ هـ |
| اخبار الدول وآثار الأول | للقرماني | بغداد ١٢٨٢ هـ |
| ادب الدنيا والدين | للماوردي | بهامش الكشكول |
| الاستقصا في المغرب الاقصى ٤ اجزاء | للسلاوي | مصر ١٣١٢ هـ |

| اسم الكتاب | اسم مؤلفه | مكان طبعه وسنته | |
|---|---|---|---|
| أُسد الغابة في اخبار الصحابة ٥ اجزاء | لابن الاثير | مصر | ١٢٨٦ هـ |
| الاصطخري | ( المسالك والممالك ) | | |
| اعلام الناس | الاتليدي | مصر | ١٣١٨ هـ |
| الاغاني ٢٠ جزءًا | لابي الفرج الاصفهاني | بولاق | ١٢٨٥ هـ |
| الافادة والاعتبار | لعبد اللطيف البغدادي | مصر | ١٢٨٦ هـ |
| الف باء جزآن | يوسف البلوي | مصر | ١٢٨٧ هـ |
| البخاري | (صحيح البخاري) | | |
| بغية الطالبين في علوم وعوائد المصريين | لاحمد بك كمال | بولاق | ١٣٠٩ هـ |
| البلاذري | ( فتوح البلدان ) | | |
| بلوغ الارب في احوال العرب ٣ اجزاء | للالوسي | بغداد | ١٨٩٨ م |
| البيان والتبيين جزءان | للجاحظ | مصر | ١٣١٣ هـ |
| البيروني | ( الآثار الباقية ) | | |
| تاريخ ابي الفداء ٤ اجزاء | للملك المؤيد | الاستانة | ١٢٨٦ هـ |
| « الامم والملوك ١١ جزءًا | للطبري | ليدن | ١٨٨٥ م |
| « دمشق | لابن عساكر | ( خط ) | |
| « المشارقة | لصليبا بن يوحنا | ( خط ) | |
| « الوزراء | للهلال الصابي | بيروت | ١٩٠٤ م |
| تحذير المسلمين | محمد ظافر | مصر | ١٩٠٤ م |
| تراجم الحكماء | لابن القفطي | ( خط ) | |
| ترتيب الدول | للحسن بن عبد الله | بولاق | ١٢٩٥ هـ |
| تزيين الاسواق | لداود الانطاكي | مصر | ١٣ ٨ هـ |
| تهذيب الاسماء | للنووي | جوتنجن | ١٨٣٢ م |
| الجبرتي | ( عجائب الآثار ) | | |
| حسن المحاضرة في مصر والقاهرة جزءان | للسيوطي | مصر | ١٢٩٩ هـ |
| حلبة الكميت | لشمس الدين النواجي | مصر | ١٢٩٩ هـ |

| اسم الكتاب | اسم مؤلفه | مكان طبعه وسنته |
|---|---|---|
| حياة الحيوان الكبرى جزءان | للدميري | مصر ١٣٠٩ ﻫ |
| الخراج ـ كتاب | لابي يوسف | بولاق ١٣٠٢ ﻫ |
| « » | لقدامة بن جعفر | ليدن ١٣٠٦ ﻫ |
| الخطط التوفيقية ٢٠ جزءًا | لعلي باشا مبارك | بولاق ١٣٠٦ ﻫ |
| خطط مصر جزءان | للمقريزي | بولاق ١٢٧٠ ﻫ |
| الخميس جزءان | للديار بكري | مصر ١٣٠٢ ﻫ |
| الدميري | ( حياة الحيوان ) | |
| ديوان ابي نواس | للحسن بن هاني | مصر ١٨٩٨ م |
| رحلة ابن بطوطه جزءان | لابن بطوطة | مصر ١٢٨٧ ﻫ |
| رحلة ابن جبير | لابن جبير | ليدن ١٨٥٢ م |
| رسائل الخوارزمي | لابي بكر الخوارزمي | الاستانة ١٢٩٧ ﻫ |
| سراج الملوك | للطرطوشي | على هامش مقدمة ابن خلدون بمصر ١٣١١ ﻫ |
| سلسلة التواريخ | اسليمان وابي زيد | باريس ١٨١١ م |
| السيرة الحلبية ٣ اجزاء | لابن برهان الدين | مصر ١٣٠٢ ﻫ |
| سير الملوك | لعبد الرحمن الاربلي | بيروت ١٨٨٥ م |
| السيرة النبوية ٣ اجزاء | لابن هشام | بولاق ١٢٩٥ ﻫ |
| السيوطي | ( حسن المحاضرة ) | |
| شعراء السريان | للقرداحي | رومية ١٨٧٥ م |
| الشعر والشعراء | لابن قتيبة | ليدن ١٩٠٢ م |
| الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية | لطاشكبري زاده | على هامش ابن خلكان |
| الشهرستاني | ( الملل والنحل ) | |
| صحيح البخاري ٤ اجزاء | للامام البخاري | مصر ١٣٠٤ ﻫ |
| طبقات الاطباء جزءان | لابن ابي أُصيبعة | مصر ١٨٨٢ م |
| « الادباء | لعبد الرحمن الانباري | مصر ١٢٩٤ ﻫ |
| « ابن سعد | لابن سعد | ( خط ) |

| اسم الكتاب | اسم مؤلفه | مكان طبعه وسنته |
|---|---|---|
| طغر بردي | ( النجوم الزاهرة ) | |
| العبر والمبتدا والخبر ٧ مجلدات | لابن خلدون | بولاق ١٢٨٤ ه |
| عجائب الآثار ٣ اجزاء | للجبرتي | على هامش ابن الاثير |
| « المخلوقات | للقزويني | على هامش الدميري |
| العقد الفريد ٣ اجزاء | لابن عبد ربه | مصر ١٣٠٥ ه |
| « « | للملك السعيد | مصر ١٢٨٣ ه |
| فتوح البلدان | للبلاذري | ليدن ١٨٦٦ م |
| الفخري | (الاداب السلطانية) | |
| الفرج بعد الشدة جزءان | للتنوخي | مصر ١٩٠٣ م |
| الفلاحة النبطية | لابن وحشية | ( خط ) |
| الفهرست | لابن النديم | ليبسك ١٨٧٢ م |
| فوات الوفيات جزءان | لابن شاكر الكتبي | مصر ١٢٨٢ ه |
| قاموس الادارة والقضاء ٧ اجزاء | ليفيلب جلاد | مصر ١٧٩٠ م |
| القانون | لابن سينا | رومية ١٥٩٣ م |
| القبة الزرقاء | للدكتور فانديك | بيروت ١٨٩٣ م |
| قدامة | ( الخراج ) | |
| القرماني | ( اخبار الدول ) | |
| القزويني | ( عجائب المخلوقات ) | |
| القوانين العقارية | للحكومة المصرية | مصر ١٨٩٣ م |
| الكامل ١٢ جزءا | لابن الاثير | مصر ١٣٠٢ ه |
| الكامل | للمبرد | مصر ١٢٨٦ ه |
| كتاب الاذكياء | لابن الجوزي | مصر ١٣٠٦ ه |
| كتاب الاعتبار | لابن منقذ | ليدن ١٨٨٤ م |
| كتاب البخلاء | للجاحظ | مصر ١٣٢٤ ه |
| كتاب البلدان | لابن الفقيه الهمذاني | ليدن ١٨٨٥ م |
| « « | لليعقوبي | « « « |

| اسم الكتاب | اسم مؤلفه | مكان طبعه وسنته |
|---|---|---|
| كتاب الحيوان ٣ اجزاء | للجاحظ | مصر ١٣٢٤ ﻫ |
| كشف الظنون جزءان | لكاتب جلبي | الاستانة ١٣١١ ﻫ |
| الكشكول | للعاملي | مصر ١٣٠٥ ﻫ |
| لطائف المعارف | للثعالبي | ليدن ١٨٦٧ م |
| اللمعية الشهية في اللغة السريانية | للمطران يوسف داود | الموصل ١٨٧٩م |
| الماوردي | (الاحكام السلطانية) | |
| مجمع الامثال جزءان | للميداني | بيروت ١٣١٢ ﻫ |
| مختصر اخبار الخلفاء | لابن الساعي | بولاق ١٣٠٩ ﻫ |
| « الدول | لابي الفرج الملطي | بيروت ١٨٩٠ م |
| مروج الذهب جزءان | للمسعودي | مصر ١٣٠٤ ﻫ |
| المزهر جزءان | للسيوطي | بولاق ١٢٨٢ ﻫ |
| المسالك والممالك | لابن حوقل | ليدن ١٨٧٣ م |
| « « | لابن خرداذبه | « ١٣٠٦ ﻫ |
| « « | للاصطخري | « ١٨٧٠ م |
| المستطرف جزءان | للابشيهي | مصر ١٣١١ ﻫ |
| المسعودي | (مروج الذهب) | |
| مشكاة المصابيح | لولي الدين العمري | دهلي ١٣١٠ ﻫ |
| المعارف | لابن قتيبة | مصر ١٣٠٠ ﻫ |
| معجم البلدان ستة اجزاء | لياقوت الحموي | ليبسك ١٨٧٠ م |
| مفتاح السعادة | لطاشكبري زاده | (خط) |
| المقدسي | (احسن التقاسيم) | |
| المقري | (نفح الطيب) | |
| المقريزي | (خطط مصر) | |
| الملل والنحل جزءان | للشهرستاني | لندن ١٨٤٢ م |
| الموطأ | للامام مالك | (خط) |

| اسم الكتاب | اسم مؤلفه | مكان طبعه وسنته |
|---|---|---|
| الميداني | (مجمع الامثال) | |
| ميزانية مصر لسنة ١٩٠٢ | للحكومة المصرية | بولاق ١٩٠٣ م |
| النجوم الزاهرة جزءان | لابي المحاسن | ليدن ١٨٥١ م |
| نفح الطيب ٤ اجزاء | للمقري | بولاق ١٢٧٩ ﻫ |
| نهاية الارب في قبائل العرب | للقلقشندي | (خط) |
| الهداية | برهان الدين الفرغاني | لكنهو ١٣١٤ ﻫ |
| الهمذاني | (كتاب البلدان) | |
| وفيات الاعيان ٣ اجزاء | لابن خلكان | مصر ١٣١٠ ﻫ |
| اليعقوبي | (كتاب البلدان) | |

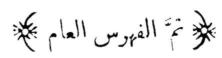
| | | |
|---|---|---|
| Gibbon's Roman Empire. | London | . . . |
| Bretschneider's Knowledge Possessed by ancient chinese of the Arabs. | ,, | |
| Porter's Constitutional History of turkey. | Ms. | |
| Lane Poole's Mohammadan Dynasties. | London | 1894 |
| Statesman's Year book. | ,, | 1904 |
| Williams' Sanskrit Crammar. | Oxford | 1876 |
| Browne's Literary History of Persia. | London | 1902 |
| Frazer's ,, ,, ,, India. | ,, | 1898 |
| Rawlinson's Ancient Monarchies, 4Vol. | ,, | 1862 |
| Whitaker's Almanack. | ,, | 1901 |
| Browne's Translation of Ibn Isfandiyar's History of Tabaristan. | Leyden | 1905 |
| Library of Universal History, 8Vol. | New York | 1897 |
| Clot Bey, Aperçu sur l'Egypte, 2Vol. | Paris | 1840 |
| Labourt, Christianisme dans l'Empire Perse, | ,, | 1904 |
| Revue Archéolgique. | ,, | 1905 |
| Van Vloten, La Domination Arabe etc. sous le khalifat des Omayades. | Amsterdam | 1894 |
| Von kremer, Einnahmebudjet des abbass. | Wien | 1887 |
| ,, ,, Culturgeschichte des Orients. 2 Vol. | Wien | 1875 |

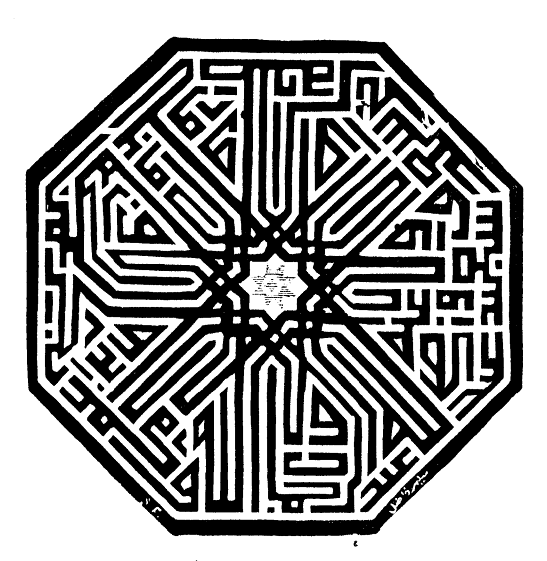
رسائل شبلي النعماني في اللغة الهندستانية طبعت في علي كده بالهند سنة ١٨٩٨

# فهرس ابجدي عام

يشمل ما حواه هذا الكتاب في اجزائه الخمسة من المواضيع الهامة مرتبة على احرف الهجاء

ب



اسماء الجلالة والنبي والصحابة

